منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

١٤

عهد المتصرفين في لبنان

١٨٦١ - ١٩١٨

بقلم

لحد خاطر



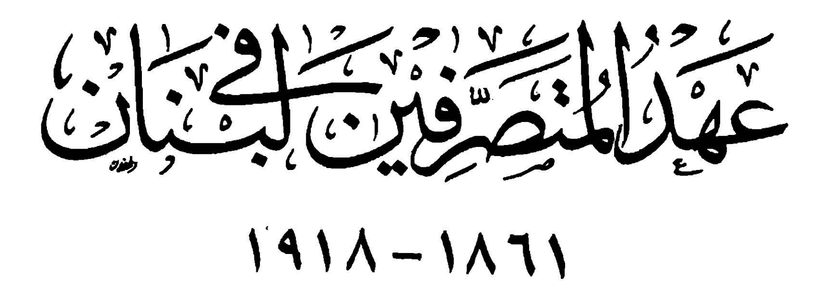
بيروت

١٩٦٧

منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

١٤



١٨٦١ - ١٩١٨

بقلم

لحد خاطر



بيروت

١٩٦٧

مقدمة

عهد المتصرفين في لبنان حلقة من سلسلة تاريخه ذات طابع خاص قوامه ذلك البروتوكول او النظام الذي وضعته له لجنة دولية في بيروت اثر حوادث سنة ١٨٦٠ ليكون له دستورًا او قانوناً اساسيًّا تدار فيه الاحكام وفقاً لنصوصه. وقد دعي ذلك العهد «عهد المتصرفين» نسبةً الى اسم حاكمه الذي اتفقت اللجنة على ان تختار له كلمة «متصرف».

واستمرّ ذلك العهد قائماً سبعاً وخمسين سنة من ١٨٦١ اثر حوادث الستين المشؤومة حتى ١٩١٨ عند انتهاء الحرب العالمية الاولى حرب الفظائع والاهوال، فكان باستثناء سنيها الاربع التي لا تحسب منه الا على سبيل الالحاق عهدًا كثير الهدوء والاستقرار قليل موارد العيش ووسائل التأنق، اي انه كان عهد «قلّة وبسط» كما كان يقول فيه بعض واصفيه.

اجل كان ذلك العهد كما قيل فيه تماماً «عهد قلّة وبسط» لان اللبنانيين، وقد اصبحوا تحت كفالة ست دول اوربية، وانقطعت اصابع السوء عن اللعب بهم من الخارج، عادوا الى فطرتهم الاصيلة، وتناسوا ما حرمهم اياه نظامهم الجديد من حقوق وحدود، واقبلوا في الغالب على الاخلاد الى الراحة والحياة البسيطة القانعة بما تيسّر، والتعامل بعضهم مع بعض من مختلف الطوائف والاحزاب على صفاء ومودة كما لو كانوا اسرةً واحدة من بيت واحد. ولطالما كنت اراهم في ذلك العهد، ولا سيما في القرى الجبلية، يلتئمون لمناسبة اعيادهم ومواسمهم لسهرةٍ في بيت، او لمباراةٍ او لعبةٍ في ساحة، او لنزهةٍ في حديقة او على ضفّة نهر او الى جانب ينبوع، يرقصون ويقصّفون ويتناشدون الاغاني والازجال، او ينصرفون الى مختلف المسابقات والملاهي متضامنين متباسطين مما نكاد لا نجد له مثيلاً في هذا العهد الا في القليل النادر.

ولقد قُيِّض لي أن اكون ممن عاشوا جانباً غير قليل من ذلك العهد، وعركوه، وذاقوا حلوه ومرَّه، وأحبّوا بسطه وقلّته، وصرفوا فيه ايام الصبا والشباب، وحفظوا ما تحدثه في النفس من عوامل وتتركه من ذكريات. لذلك رأيتُني، بعد اقبالي على خدمة العلم والأدب، ومزاولة الصحافة، ومعالجة التاريخ، اعمل على درسه ونبش مخبآته، وقد خصصته بفصل مطوَّل من كتابي «تاريخ لبنان المدرسي» الذي نشرته بالطبع سنة ١٩١٤ فكان الاول في نوعه والفريد في موضوعه في ذلك الحين.

ثم بعد ان توليت تحرير جريدة البشير زهاء ربع قرن ابتداء من سنة ١٩٢٤ والمعاونة في غيرها من الصحف والمجلات ولا سيما الشراع والعمل والسنابل والرسالة وغيرها، أشجاني ان تظلّ احداث ذلك العهد المعدود في تاريخ لبنان صلة وصل بين القديم والحديث، او مرحلة انتقال من الاقطاعية الى الديموقراطية، على توالي السنين عليها وعلى ما لبعضها من خطورة، ان تظل مبدَّدةً في مختلف المظان، مبعثرةً في شتى الكتب والاوراق، غير مجموعة في مصدر فرد، يمكّن طلابَها من اكتناه اسرارها، واجتناء ثمارها، من اقرب طريق.

ومن ثم عدت الى تقصّيها في متفرق مراجعها، ولمّ شتاتها، ونشرها هنا وهناك في مقالات مترادفة، للعبرة والتذكير، وكان من ابرز ما استهواني منها ذلك الخلاف الذي شجر بين رستم باشا والمطران بطرس البستاني بين سنتي ١٨٧٣ و ١٨٨٣، وكانت له مضاعفات وذيول خطيرة طنانة اقامت لبنان واقعدته، واسترعت اهتمام الدولة العثمانية والدول الست الكافلة ومن لها في الآستانة وبيروت من موظفين وسفراء وقناصل مدةً غير يسيرة، وحفزتهم جميعاً على السعي في تخفيف حدّتها، وازالة ما نجم عنها من اضرار وقلاقل، فبحثته بحثاً ضافياً مؤيداً بالمستندات في عدة مقالات صحفية.

والآن وقد وصلت الى عصارى العمر، وما زلت بفضل الله احتفظ بما كان لي من قبل من قوة على التنقيب والتنقير، فقد اخذت اعيد النظر في مـــا تشتمل عليه خزائن مكتبتي وقماطرها ورفوفها في شتى المواضيع المتعلّقة بعهد المتصرفين. فاقبلت على مراجعتها وتحقيقها ونظمت كتاباً هو هذا متتبعاً في تقسيمه توالي المتصرفين، متصرفاً بعد متصرف، وفقاً لتاريخ كلّ منهم، من داود باشا حتى ممتاز بك. وقد خصصت خلاف رستم باشا والمطران بطرس بدرس ضافٍ، وقدّمت لكل ذلك بتمهيد في الظروف والاسباب التي ادّت الى قيام ذلك العهد، وختمته بالمتصرفين الاتراك الثلاثة

الذين انفردت الدولة العثمانية بتعيينهم ، مغتنمةً فرصة الحرب الى اغفال نظام لبنان .

وبعد ان صار هذا الكتاب بين يديَّ جاهزًا للنشر حملته الى الصديق الكريم العلامة الدكتور فؤاد البستاني رئيس الجامعة اللبنانية وسألته تصفحه حتى اذا رآه بثاقب بصره يكفل بما جمعته فيه من فوائد خدمة تاريخنا الوطني في مرحلة من مراحله ما تزال تشكو من فراغ جاء هذا الكتاب يملأه او يملأ جانباً منه وافق على طبعه في منشورات الجامعة، وفقاً لشروطها المعمول بها ، وكان بعد وقوفه عليه أن اجابَ ملتمسي بارتياح قابلته بمزيد شكري .

وها ان كتابي «عهد المتصرفين في لبنان» وقد برز اليوم الى عالم النشر حاملاً في مطاويه اخبار حقبة من تاريخ لبنان هي في مسيس الحاجة الى التوضيح والتشريح ، أقدّمه لاخواني اللبنانيين ، مقيمين ومغتربين ، هديةً مضمخة بعبير الاخلاص ، راجياً ان يلاقي لديهم قبولاً وأن يكون ما يشتمل عليه من دروس وعبر ، حافزًا لهم على التمثل باسلافنا الصلحاء، في التجمل بتلك الاخلاق اللبنانية النبيلة المفعمة بالتجرّد والإباء والشمم ، وفي مواصلة العمل على اتيان كل ما يؤدّي الى ازدهار هذا الوطن العزيز ودوام ارتقائه في سلّم الحضارة والعمران .

لحد خاطر

تمهيد

كان للبنان منذ القدم استقلال نوعي خاص توارثه اللبنانيون عن اسلافهم وحافظ عليه حكامهم على التوالي ، المردة فالمقدمون في الشمال ، والتنوخيون في الجنوب ، فالمعنيون والشهابيون بعد توحيد الجانبين ، وساند ذلك الاستقلال وفاق الموارنة والدروز وتعاونهم معاً على تأييده كما لو كانوا اخوةً في بيت واحد ، دون ان يكون بينهم اي فارق او خلاف .

وساء الدولة العثمانية ان يشذ لبنان بذلك الاستقلال الخاص عن سائر ولاياتها الواسعة الاطراف ، فأخذت تعمل على تقليم اظافره ، وتهديم كيانه ، بمختلف الوسائل ، مستهدفةً جعله ولايةً عادية مثل باقي ولاياتها ، وابتدأت بنفي حاكميه الاميرين بشير الثاني الكبير ابي سعدى ، وبشير الثالث المعروف ببشير قاسم والذي كان العامة يلقبونه في عهده « ببشير بو طحين » ، وعيّنت في مكانهما والياً من عندها هو عمر باشا النمساوي ، ولكن اللبنانيين نهضوا صفاً واحداً الى مقاومته والمطالبة بأن يعاد اليهم حاكمهم الوطني .

وعندئذٍ ابتدعت لهم الدولة حكومة القائمقاميتين التي فصلت فيها بين الموارنة والدروز ، متذرعة بها الى بث روح التفرقة الطائفية فيما بينهم ، ذلك لتأكدها من انها لا تقوى على اخضاع لبنان لسيطرتها اخضاعاً تاماً ما بقي الوفاق سائداً بين سنديه الاقويين الدروز والموارنة ، ومن ثمّ مضت توالي مساعيها في نيل ما تبتغيه ، واوكلتْ الامر الى والٍ اقامته على بيروت هو خورشيد باشا جعل ديدنه منذ وصوله زرع بذور الخصام في لبنان بين الاخوة ، والحض على الاقتتال ، تارةً بالوعد وطوراً بالوعيد ، حتى اضطرهم الى الانقياد له ، وكانت حصيلة ذلك تلك الحوادث المؤسفة التي نكب بها لبنان ما بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ .

ولكن الله لم يهمل لبنان

على ان الله سبحانه الذي يحب هذا الوطن العزيز ويسهر عليه بعين يقظى تفضل بوقايته مما بُيّت له ، وألهم اقوى دول العالم يومئذٍ الى الاسراع لنجدته ومساعدته على الخروج من محنته ، وكان ان وصل اليه جيش فرنسيّ باسم اوربة ، قوامه سبعة آلاف محارب يقوده الجنرال بوفور دي هوتبول فاوقف القتال واعاد الامن والطمأنينة ، بفضل ما أنزله في القلوب من رهبة ، فضلاً عما ضمّدهُ من جراح بواسطة ما وزّعه على المنكوبين من مساعدات .

اللجنة الدولية ونظامها الجديد

وكانت الدول العظمى فرنسة وانكلترة وروسية والنمسة وبروسية قد ارسلت مندوبين مدنيين من قبلها ليعملوا على لأم الصّدع ، بما يرونه متلائماً مع واقع الحال ، وحين وصولهم رأوا أن الدولة العثمانية قد سبقتهم الى توجيه وزير خارجيتها الداهية فؤاد باشا ، للفلفة ما يمكن لفلفته من بواعث تلك النكبات ، وتغطية ما كان لرجال الدولة فيها من يد ، والسعي بما عرف به ذلك الرجل من ذكاء وحسن بصر وتدبير في منع اعضاء اللجنة من المساس بمصالح الدولة ، والحؤول دون مهرها لبنان بما كان له في عهده الاميري من سعة الحدود ومظاهر الاستقلال والسيادة .

وبعد اجتماعه مرات باولئك الاعضاء في بيروت تمّ الاتفاق فيما بينهم على ان يؤلف فيها لجنة دولية قوامها فؤاد باشا المفوض السلطاني الآنف الذكر رئيساً ، والسادة بكلار عن فرنسة ، ودوفرن عن انكلترة ، وفيكوف عن روسية ، ووكبكر عن النمسة ، ورهفوش عن بروسيا ، اعضاء .

واخذت هذه اللجنة توالي جلساتها وتدرس مختلف الشؤون وانتهت الى وضع عدة قرارات كان اهمها الموافقة على اعادة تنظيم الحكم في لبنان على اساس الغاء القائمقاميتي مقام واقرار نظامين جديدين لحكومة جديدة تاريخ الاول منهما ٢٠ اذار من سنة ١٨٦١ وقد الف من ٤٧ مادة ، وتاريخ الثاني ٩ حزيران من السنة نفسها وقد ألف من ١٧ مادة ورفعت النظامين الى الباب العالي وسفراء دولهم في الاستانة لكي يجتمعوا ويدرسوهما ويقرّوا منهما ما يرونه اكثر موافقة واولى بالتنفيذ .

كيف كانت حالة اللجنة عند وضعها النظامين

وكانت اللجنة الدولية عند وضعها هذين النظامين متباينة الاهداف متضاربة الآراء ولكل من اعضائها هدف خاص يرمي به الى مصلحة الدولة التي يمثلها ، غير مهتم لما فيه مصلحة لبنان الا بنوعٍ ثانوي .

فكان هم ممثل انكلترة فيها معارضة الممثل الفرنسي للقضاء على نفوذ فرنسة في هذه البلاد .

وهدف ممثل روسية السعي بكل الوسائل في نشر الخلل والتشويش في المملكة العثمانية والمبالغة في اضعافها حتى يتسنى لدولته ذات يوم ان تبتلعها لقمة سائغة وتزيحها من طريقها للاستيلاء على ما تطمع به من البلدان الشرقية .

ولم يكن يهم ممثل النمسة الا التظاهر بمساعدة الدولة في هذه البلاد ليحملها على التسامح مع دولته في ما تهدف اليه من مطامع في مقاطعات الدانوب .

اما فؤاد باشا داهية تركية المتفوق بعلمه وسمو مداركه واقتداره فكان يسعى قبل كل شيء الى اقرار ما يؤيد سلطة دولته على لبنان ، وملاشاة النفوذ الاجنبي عنه ، وللوصول الى غرضه كان يخادع اللجنة ويماطلها ويتهرب من توقيع اي قرار يراه مخالفاً لذلك الغرض ، وقد عرف كيف يسيطر على سائر الاعضاء حتى قيل انه كان يلعب بهم كما يلعب الهر بالفأر ، وهو الذي جعلهم يباشرون البحث في جلساتهم الاولى في منشأ الاضطرابات واسبابها وتقدير خسائرها وقصاص مسببيها فاضاعوا وقتهم فيها ، ولم يصلوا الى بحث النظام مهمتهم الجوهرية الا وقد كانوا قد سئموا الجدل والتناقش ، ولذلك جاء ذلك النظام الذي وضعوه مرتجلاً ناقصاً لا يفي بما كان ينتظره منهم اللبنانيون.

اما كيف سكت عنه هؤلاء فلانهم كانوا يومئذٍ لا يزالون تحت تأثير تلك النكبات التي المّت بهم في حوادث الستين مضعضعي القوى دامي الجراح همهم منصرف الى تخفيف ما ثقلت به كواهلهم من اعباء ، ولم يكن عندهم من الهدوء وطمأنينة النفس ما يجعلهم يهتمون لمسألة المسائل وهي كيف يسن قانونهم الاساسي الذي يقرر فيه مصيرهم في مستقبلهم .

اختيار نظام الـ ١٧ مادة

ووصل النظامان الى الاستانة فشكل الباب العالي والسفراء مجلساً للنظر في اي النظامين افضل ، وتألف هذا المجلس من عالي باشا الصدر الاعظم عن تركية ، ومن السادة

لافالت عن فرنسة ، وهنري بولفر عن انكلترة ، ولوبانوف عن روسية ، وبروكش اوستن عن النمسة ، وغولتز عن بروسية وبدأ في ٣٠ ايار بالاجتماع والمناقشة فطلب عالي باشا اقرار النظام الاول الموجب قسمة لبنان الى ثلاث قائميات مقام فعارضه اكثر السفراء وتشبثوا باقرار النظام الثاني القاضي بان يكون حاكم لبنان واحداً فاضطر عالي باشا الى الانقياد لهم .

اقرار حاكم مسيحي اجنبي على سبيل الاختبار

وبحث بعد ذلك في مذهب الحاكم وتقرر ان يكون مسيحياً من مذهب اكثرية اللبنانيين ، ثم في وطنيته فكان من رأي عالي باشا ان يكون اجنبياً ومالأه على ذلك سفير الانكليز ، وطلب سفير فرنسة ان يكون لبنانياً حفاظاً على تقاليد لبنان وامتيازاته المعمول بها من اجيال طويلة بمرافقة الدولة ، ولأن الوطني اخبر بحالة البلاد عملاً بقول من قال : « صاحب البيت ادرى بالذي فيه » ووافقه على طلبه سفير النمسة ، وسفير روسية . واعلن سفير بروسية انه لا يضاد الحاكم الوطني على أن يحافظ على حقوق الدولة صاحبة السيادة ، وعرض طريقةً للتوفيق ، وهي ان ينصَّب حاكم اجنبي الى ثلاث سنين على سبيل الاختبار ثم يعمل بعد حين بما تظهر افضليته ، فنزل الاعضاء جميعاً عند هذا الرأي .

قصة طريفة عن تسمية حاكم لبنان باسم متصرف

تقدَّم القول ان هذا العهد دعي « عهد المتصرفين » مجاراةً لاتفاق اللجنة التي وضعت له النظام الذي تدار به شؤونه على تسمية من يتولّى الحكم فيه باسم « متصرف ». ولاختيار هذه التسمية قصة طريفة رأيت ايرادها هنا لما فيها من تفكهة ولأن المقام يتطلبها :

قيل : ان اعضاء اللجنة الدولية التي وضعت نظام لبنان لهذا العهد اختلفوا فيما بينهم على اختيار اللقب الذي يطلق على من يلي المنصب الاول في حكومة لبنان ، فلم يرافقوا على لفظة «امير» لانها بمفهومهم تخدش اذان الباب العالي وتذكره بامارة لبنان التي سعى جهده للتخلص منها . ولم تعجبهم لفظة « وال » لانهم كانوا يريدون بزعمهم ان يجعلوها فوق لقب الولاة العثمانيين الذين كانوا يحكمون الاقاليم المجاورة للبنان من بلاد الدولة ، ولم يستحسنوا لقب « حاكم » لتوهمهم انه لقب مبتذل لكثرة شيوعه واستعماله ، ولم يروا لقب «رئيس جمهورية» مرافقاً لانه من الالقاب التي لا توافق عليها حكومة الاستانة.

وبعد الاخذ والرد واستقداح زناد افكارهم طوال اسبوعين أُلهم احدهم الى اقتراح لفظة «Plénipotentiaire» الفرنسية التي ترجمها لهم معاونوهم من الكتاب العرب باسم «متصرف» فتهلل وجهه فرحاً وخيّل اليه انه اتى امرًا لم يسبقه اليه احد وعرض فكرته هذه على زملائه فوافقوه عليها لاعتقادهم انها تفي بالمرام.

وعرف فؤاد باشا بما اقروه فلم يبدِ اعتراضاً وضحك منهم في سره لاهتمامهم بمثل هذا الامر التافه واهمالهم ما هو اهم منه واسمى.

وبعد ان انتهت اعمال اللجنة وعاد الى اسطنبول وارسل اول متصرف الى لبنان كان في مقدمة ما فعله اعلان تنظيم جديد لاقاليم السلطنة قسمها فيه اولاً الى ولايات، ثانياً الى متصرفيات، ثالثاً الى قائميات مقام. وجعل المتصرفيات في الدرجة الثانية من هذا النظام تحقيرًا لمتصرف لبنان الحامل اسم متصرف وليبين ظاهرًا انه في مقام ادنى من مقام الوالي.

ولعل السفراء مجانبةً لهذا الاثر عادوا فاشترطوا عند تعديل النظام على الدولة ان تعطي متصرف لبنان عند تعيينه رتبتي الوزارة والمشيرية وهما اعلى رتب الدولة.

التوقيع على النظام وتعيين داود باشا

وقد ادى تداول السفراء مع الباب العالي في مسائل لبنان الى اقرارهم في ٩ حزيران ١٨٦١ النظام المؤلف من ١٧ مادة والى تعيين داود افندي الارمني متصرفاً للبنان لمدة ثلاث سنين على سبيل التجربة على ان يجتمعوا بعد انقضاء هذه المدة مع الصدر الاعظم ويروا ما ستكون نتيجة التجربة ويعتمدوا الاوفق.

وبعد انقضاء السنين الثلاث من مدة داود اجتمع السفراء في الباب العالي مع الصدر الاعظم ووجدوا ان في نظام ١٨٦١ بعض النقص فادخلوا عليه تعديلات حديثة في ٩ ايلول من سنة ١٨٦٤ وجددوا لداود الى خمس سنين اخرى وظل ذلك النظام المعدل دستوراً للعمل في لبنان مع ما كان يضاف اليه من ملحقات عند تعيين كل متصرف، الى ان دخلت تركية الحرب العالمية الاولى الى جانب المانية وابطلت العمل به وابعدت اوهانس آخر المتصرفين النظاميين وذلك بتاريخ ١٨ حزيران من سنة ١٩١٥. وها نحن نلخص ذلك النظام لمن يكتفون بمآله ثم نتبعه بنصه الحرفي لمن يؤثرون الاحاطة به كما وضعته اللجنة ووافق عليه السلطان وذلك زيادة في توضيح وثائق مراميه ومشتملاته:

ملخص نظام لبنان المعدل سنة ١٨٦٤

الحدود

جعل هذا النظام لبنان متصرفية مؤلفة من سبعة اقضية هي : جزين، الشوف، المتن، كسروان ، البترون ، الكورة ، زحلة . وكل قضاء مشتملاً على عدة مديريات بينها مديريتان ممتازتان مرتبطتان مباشرةً بقاعدة الحكم وهما دير القمر، الهرمل .

وقد ضيّق حدوده باقتطاعه منه مدناً وبلداناً كانت له في عهد الامارة مما كان كافياً للاجهاز عليه لولا نشاط اللبنانيين وعلو هممهم .

الحاكم أو المتصرف

واقر هذا النظام بان يكون للبنان حاكم او متصرف مسيحي عثماني من غير اهله ترشحه الصدارة ويوافق عليه ممثلو الدول الكافلة ويصدر السلطان ارادة سنية بتعيينه الى خمس سنين قابلة التجديد ، وبمنحه رتبتَي الوزارة والمشيرية (المرشالية) اعلى رتب الدولة الادارية والعسكرية ، وتخويله مراجعة الباب العالي مباشرةً دون مرور بالوزارات وحجبه من العزل والنقل والمؤاخذات على انواعها دون موافقة السلطات العليا العثمانية والدولية في الاستانة .

واسندت اليه صلاحيات واسعة فكان مستقلاً استقلالاً داخليًّا كاملاً في ادارة الشؤون ، وجباية الضرائب ، وحفظ الأمن ، وجمع السلاح فيما اذا دعت الى ذلك ضرورة ، وتعيين القضاة والموظفين وعزلهم ، وتنفيذ الاحكام ما عدا عقوبة الاعدام ، فقد كانت تتوقف على صدور ارادة سنية بشأنها مقترنةً بموافقة محكمة التمييز العليا في الاستانة ، كما ان القضاة منحوا بعد حين حصانة كانت تمنعه من عزلهم او اتخاذ اي تدبير تأديبي بحقهم الا بعد تحقيق يشترك فيه المجلس الاداري .

اما اختياره غريباً والى زمن محدود فقد اضرَّ بلبنان ضررًا فاحشاً ، اذ أدّى الى اهتمامه قبل كل شيء بتنفيذ مآرب الدولة التي كانت لا تبطن الخير للبنان ضماناً لمستقبله ، وعلى ذلك كان دأب المتصرفين في لبنان تهديم ما امكنهم من نظامه وتضييقه بدلاً من حرصهم على صيانته وتوسيعه .

المجلس الإداري أو النيابي

وأقيم الى جانب الحاكم مجلس دعي بالاداري بسعي فؤاد باشا الذي شاء أن تقتصر مهمته على ما يستشيره به الحاكم من شؤون الادارة ، واخصّ ما أسند اليه توزيع التكاليف وضبط واردات الحكومة ونفقاتها .

وإذ كان اعضاء المجلس قد رأوا انهم لا يصلون اليه الا عن طريق انتخاب شعبي مرتبط بالتقسيمات الادارية ومتلائم في كل طائفة مع عدد افرادها اخذوا يسعون بكل قواهم الى اكتساب الصفة التمثيلية والقيام بمهام النيابة عن ناخبيهم وقد ساعدهم سفراء الدول الكافلة في ذلك وشدّدوا على الباب العالي في تخويلهم تلك الصفة فاصبحوا يلون حق الاشراف على القضاء والادارة والسيطرة على الاشغال العامة والمشاريع الاقتصادية ، وصاروا وحدهم يلزمون الطرق ويمنحون الامتيازات لمختلف المنشآت من مثل جر المياه والتنوير بالكهرباء وفتح الملاحات والاتجار بالتبغ والتنباك وغير ذلك ، على انه بالرغم من صدق وطنية اعضائه وترفعه عن النزعات الطائفية والنفعية لم يتمكن بسبب فساد نظامه من الوصول يوماً الى مقام المجالس النيابيّة في البلدان المتحضرة المستقلة .

موظفو الإدارة

وكان المتصرف يعين في المراكز الادارية رئيساً لكل قضاء باسم قائمقام ولكل مديرية او ناحية باسم مدير من الطائفة الاكثر عدداً . اما القرى فينتخب لكل منها موظف باسم شيخ صلح يعتبر مندوباً ثانويا في انتخاب العضو الاداري عن منطقته وله الحق بان يحكم في قريته في الدعاوى البسيطة ولا سيا المالية التي لا تتجاوز المئتي قرش .

واتخذت الطائفية اساساً للتوظيف في ذلك العهد وذلك بمقتضى العرف ودون اي نص في النظام بحجة الحؤول دون وقوع اي نزاع بين طوائفه ، فكان مثلاً وكيل الرئاسة في المجلس الاداري مارونيّاً ، ومدير القلم التركي ارثوذكسيّاً ، ومديرا القلم العربي والقلم الأجنبي مارونيّين ، ومدير قلم الاوراق من الروم الكاثوليك ، ورئيس دائرة الحقوق الاستئنافيّة من الموارنة ، ورئيس دائرة الجزاء من الدروز ، وهكذا سائر الموظفين فقد كان كل منهم ذا لون طائفي خاص لا يمكن تبديله .

الجندية

وقد عهد في المحافظة على الامن الى درك محلي يؤخذ من الاهلين بنسبة سبعة عن كل الف نفس ، يرئسه قائد لبناني برتبة ميرآلاي (كولونال) ومنع الجنود الاتراك من

دخول لبنان الا اذا دعت الى ذلك حاجة ووافق على دخولهم المجلس الاداري ».

على انه كان للدولة مفرزة من جيشها من نوع الدراكون لا يزيد عدد افرادها عن الخمسين تقيم في ثكنة خاصة في بتدين تحت مطلق امر الحاكم يرئسها ضابط برتبة يوزباشي (نقيب) وقد عرف هؤلاء طوال العهد المتصرفي بالحشمة والتهذيب والامتناع عن اي تدخل في شؤوننا الوطنية .

شؤون مختلفة

ومن مقررات هذا النظام المختلفة الغاؤه امتيازات رجال الاقطاع ، ومنح جميع الرعايا حقوقاً متساوية ، وايجابه احصاء السكان ، ومسح الاملاك ، والاعفاء من الخدمة العسكرية الاجباريّة ، ومن دفع خراج للباب العالي ، والاكتفاء بفرض ضرائب على نحو ما تقتضيه نفقات الحكومة المحليّة ، فاذا كان في الموازنة مال فائض ارسل الى خزانة الدولة ، على ان تدفع هذه الخزانة ما قد يقع من عجز في الموازنة . وقامت الدولة بسد العجز بضع سنين ، ثم اعفاها منه رستم باشا ، ولكن المجلس ظلّ يقيده عليها سنة بعد سنة الى ان وقعت الحرب الكبرى وجلت الدولة عن هذه البلاد وذهبت تلك القيود المسجّلة ادراج الرياح .

نص نظام ١٨٦٤

وهذا هو نص النظام كما عدلته اللجنة في الباب العالي سنة ١٨٦٤ ووافق عليه السلطان :

« لما كان الاجل المضروب مدة ثلاث سنين ، للنظام الذي وضع ، وللقرار الذي تقدم صدوره بخصوص ادارة جبل لبنان ، تحصيلاً لاسباب رفاه وامن الرعية التابعين لدولتي العلية ، القاطنين والمستوطنين الجبل المذكور ، وكان من المقرر انه عند انقضاء المدة المعينة يعاد التذاكر في مقتضى الحال ، وقد انقضت الآن ، فقد أجري التعديل والتنقيح في بعض المواد الواردة في لائحة هذا النظام ، وعند عرضها على جناب سلطنتي الاشرف والاستئذان فيها تعلّقت ارادتي السنية الشاهانية باجراء مقتضاها على هذا الوجه ، وبموجبها وجب اعلان النظام المذكور على المنوال الآتي بيانه :

المادة الاولى

« يتولى ادارة جبل لبنان متصرف مسيحي تنصبه الدولة العلية ، ويكون مرجعه الباب العالي رأساً وهو محتمل العزل بمعنى انه لا يستمر في منصبه ما زال حيًّا . ويكون على عهدته القيام بجميع خطط الادارة الاجرائية ، متوفرًا على حفظ الراحة والنظام في انحاء الجبل كلها ، وان يحصّل منها التكاليف ، وبحسب الرخصة التي ينالها من الحضرة الشاهانية ينصب تحت عهدته مأموري الادارة المحليّة ، ويقلّد الحكام القضاء . ويعقد المجلس الكبير ، ويتولى رئاسته ، وينفذ الاعلامات القانونية الصادرة من المحاكم والخارجة عن القيود التي ستذكر في المادة الثامنة . »

المادة الثانية

« ينبغي ان يكون للجبل كله مجلس ادارة كبير مؤلف من اثني عشر عضواً : اثنين مارونيين ينوبان عن قائمقاميتي كسروان والبترون ، وثلاثة عن قائمقامية جزين احدهم ماروني والثاني مسلم والثالث درزي ، واربعة عن قائمقامية المتن احدهم من الموارنة والثاني من الروم والثالث من الدروز ، والرابع من المتاولة ، وعضو واحد درزي عن قائمقامية الشوف ، وآخر من الروم ، ينوب عن قائمقامية الكورة ، وآخر عن الروم الكاثوليك عن مديرية زحلة .

ومجلس الادارة هذا يكون مأموراً بتوزيع التكاليف ، والبحث في واردات ومصاريف الجبل ، وبيان آرائه من وجه المشورة في ما يعرضه عليه المتصرف من المسائل .

المادة الثالثة

ينبغي أن يقسم جبل لبنان الى سبعة اقضية :

الاول : يشتمل على الكورة مع الجهة التحتية والارض المجاورة الآهلة باقوام من مذهب الروم . الآ ان قصبة القلمون التي على ساحل البحر ومعظم سكانها من المسلمين فانها مستثناة من ذلك .

الثاني : يشتمل من شمالي لبنان على جبة بشري والزاوية وبلاد البترون .

الثالث : يشتمل من الشمال المذكور على بلاد جبيل وجبة المنيطرة والفتوح وكسروان الاصلي حتى نهر الكلب .

الرابع : يشتمل على زحلة وضواحيها .

الخامس : يشتمل على المتن مع ساحل النصارى وارض القاطع وصليما .

السادس : يبتدئ من جنوبي طريق الشام حتى جزين .

السابع : يشتمل على جزين واقليم التفاح .

وفي كل هذه الاقضية السبعة المار ذكرها ينبغي للمتصرف ان ينصب مأمور ادا ة منتخباً من ابناء المذهب الغالبين هناك عدًّا في النفوس ، او اهميةً في الاملاك ، والارض الجارية على تصرفهم .

المادة الرابعة

يجب تقسيم الاقضية الى نواحٍ على نمط قريب الشكل لما ذكر اعلاه من اقسام الاقضية ، فيلي كل ناحية مأمورٌ ينصبه المتصرف بناءً على انهاء قائمقام القضاء ، وان يكون في كل قرية شيخ ينصبه المتصرف بانتخاب اهلها .

المادة الخامسة

تقرر امر المساواة بين جميع افراد الرعية في شمول احكام القانون ونسخ والغاء كل الامتيازات العائدة الى اعيان البلاد خصوصاً اصحاب المقاطعات .

المادة السادسة

يكون في الجبل ثلاث محاكم ذات درجة اولى يقوم كلٌ منها بحاكم ووكيل ينصبهما المتصرف ، ومعهما ستة وكلاء دعاوى رسميين تنتخبهم الطوائف ، ويكون في مركز ادارة الحكومة مجلس محاكمة كبير يتألف من ستة حكام ينتخبهم المتصرف وبينهم من ابناء الطوائف الست المتوطنين في الجبل وهم :

المسلمون ، المتاولة ، الموارنة ، الدروز ، الروم الارثوذكس ، الروم الكاثوليك . ويلحق بذلك ستة من وكلاء الدعاوى الرسميين لكل طائفة وكيل معين ، واذا وقع دعوى لاحد المتمذهبين بمذهب البروتستنت او اليهود أضيف الى المجلس حاكم ووكيل دعاوي رسمي من اهل كلا المذهبين ، علاوةً على الاثني عشر عضواً المار ذكرهم .

اما رئاسة هذه المحكمة الكبيرة فيتولاها مأمور مخصوص ينصبه المتصرف ، وان اقتضت حاجات البلاد مزيداً فللمتصرفين ان يضاعفوا عدد المحاكم ذات الدرجة الاولى ، ولاجراء الحكومة مجراها المنسَّق لهم ان يعينوا منذ الآن الاماكن الحرية بان تكون فيها هذه المحاكم .

المادة السابعة

ان لمشايخ القرى الذين يقومون بوظيفة حاكم الصلح ان يحكموا في الدعاوى التي لا يتجاوز قدرها مئتي قرش حكماً غير مستأنف . اما الدعاوى المتجاوز قدرها المئتي قرش فترى في مجالس المحاكمة ذات الدرجة الاولى ، على أنه لو عرض امور مختلطة وهي الدعاوى الواقعة بين اثنين مختلفي المذهب ، وابى ايُّهما كان قضاء حاكم الصلح فيها لكونه على مذهب المدعى عليه فتحال وان قل قدرها الى محاكم الدرجة الاولى . ثم ان جميع الدعاوى ولو وجب فصلها بحسب ماهيتها بمجموع آراء الاعضاء الا ان لكلٍّ من المدعي والمدعى عليه المتحدي المذهب ان يرد الحاكم لاختلاف مذهبه . غير ان الحكام المردودين من هذا الوجه لا بدَّ من حضورهم المحاكمة .

المادة الثامنة

تقتضي الدعاوى في المحاكم الجزائية ان تكون على ثلاثة وجوه وهي : ان يرى دعوى القباحة شيوخ القرى المتقلدين خطة حكام الصلح ، وان الجنحة والجرائم تراها المحاكم ذات الدرجة الاولى ، وان الجنايات تجري محاكمتها في مجالس المحاكمة الكبرى واعلامات

الحكم الواجب صدورها من هذه المجالس لا يمكن وضعها موضع التنفيذ ما لم تكمل المعاملات والمراسيم الجارية بها العادة في سائر الممالك المحروسة الشاهانية .

المادة التاسعة

ينبغي ان يرى في مجلس تجارة بيروت كل الدعاوى التجارية حتى ان الدعاوى العادية الواقعة بين واحد من ذوي التابعية الاجنبية او احد الداخلين في حماية اجنبية وبين آخر من اهل الجبل ترى في المجلس المذكور ، على أن المنازعات البادية من اللبنانيين والاجنبيين متى تأتى فصلها بمعرفة محكمين عن تراضٍ من المتنازعين فيجب والحالة هذه على مأموري لبنان المحليين وقناصل الدول المتحابة الفخمة ان ينفذوا اعلام المحكمين . وان تعذر تراضي الخصمين على الحاكم في الدعوى واحيلت الى محكمة بيروت فيجب تأدية المصاريف على الخاسر دعواه بحسب التعرفة التي وضعها متصرف جبل لبنان وقناصل الدول جملة واتفاقاً ، وقد جرى عليها التصديق من جانب الباب العالي . ومن المقرر انه يجب في الصك الحاوي تراضي المتنازعين على اتخاذ حكمين ان ينظراه ويمضياه وفقاً لاصوله وان يسجلاه في محكمة بيروت وفي مجلس المحاكمة الكبرى في لبنان .

المادة العاشرة

ان الحكام ينصبهم المتصرفون بخلاف اعضاء مجلس الادارة فانهم ينتخبون بمعرفة مشايخ القرى ، كما ان انتخاب الشيخ يكون بمعرفة اهل القرية ، ثم ان كلاً من اعضاء مجلس الادارة يجدد انتخاب سلفه كل سنتين . ويجوز تكرير انتخاب من انقضت مدة عضويته .

المادة الحادية عشرة

يجب ان يكون الحكام كلهم موظفين ، وان اقدم احدهم على الارتكاب (الرشوة) او تبين في التحقيق انه آتٍ ما لا يليق بصفة مأموريته فهو مستحق للعزل بل مستوجب ايضاً التأديب على قدر قباحته .

المادة الثانية عشرة

يجب في مجلس القضاء على الاطلاق ان تكون المرافعة علنية ، وأن يعهد بضبط الدعوى الى كاتب مخصوص ، وما عدا ذلك فحيث ان هذا الكاتب يكون مأموراً

باتخاذ سجل لقيود الصكوك المختصة بفراغ وانتقال وبيع الاموال الثابتة العقار فلا تكون هذه الصكوك معمولاً بها ما لم تقيد بحسب اصولها في السجل المذكور .

المادة الثالثة عشرة

ان المتهمين من اهالي جبل لبنان بارتكاب الجرائم في غير الوية فمرجع الدعوى عليهم هو اللواء الواقع فيه الجرم ، وكذا مرتكبو الجرم من اهالي سائر الالوية داخل نطاق جبل لبنان يجب ان تجري محاكمتهم والحكم عليهم بدعاوى جرائمهم في جبل لبنان .

وبناءً على ذلك فان المجرمين في جبل لبنان سواء أكانوا من اهاليه الوطنيين ام من نزلائه المعدودين من اهل ديار اخرى ، اذا فرّوا الى لواء آخر فكما ان على ضابطته ان تمسكهم بمقتضى الاشعار الوارد من قبل ادارة الجبل وتسلمهم اليها ، كذلك يلزم ادارة جبل لبنان ان تلقي القبض على الفارين اليه من المجرمين في احد الالوية سواء اكانوا لبنانيين ام غير لبنانيين وتدفعهم الى اللواء المذكور بموجب اشعار ضابطته .

وان مأموري الادارة الذين يتسامحون في اجراء الاوامر الصادرة باسترجاع امثال هؤلاء المتهمين الى المحاكم المنوطة بها دعاويهم ، او الذين يجيزون تأخيرات لا يمكن اثبات بنائها على اسباب مشروعة ، فتجري عليهم المجازاة بمقتضى قانون الجزاء كسائر الذين يوارون او يخفون امثال هؤلاء المتهمين عن الحكومة . والحاصل ان العلاقات الحاصل اجراؤها بين ادارة جبل لبنان والالوية المجاورة لها تكون كالمواصلات الجارية والمتخذة دستوراً للعمل بين السناجق في ممالك الدولة العلية قاطبةً .

المادة الرابعة عشرة

ان سبيل المتصرف الى اقرار حفظ الراحة وانفاذ القوانين في الازمنة العادية انما يكون بمعرفة فرقة ضبطية مجموعة من الاهلين ، بحسبان سبعة انفار عن كل الف من النفوس ، ويجب نسخ سلك الحوالية وابطال الضبطية على البيوت ، والاعتياض عن ذلك باسباب اكراهية كاستياق المحكوم الى السجن . فبناءً على ذلك يمنع مأمورو الضبطية بقيد التأديبات الشديدة ان يصادروا اهل البلاد بشيء من الاجرة ، نقداً كان او عيناً ، ويجعل للضبطية ملبس رسمي او ازياء مميزة في خدمتهم ، وان تبقى طرقات بيروت ودمشق وصيدا وطرابلس تحت محافظة العساكر الشاهانية الى ان يصدق المتصرف على ان جند الضبطية اللبنانيين صاروا اكفاء لاتمام جميع الوظائف المحمولة عليهم في الازمنة

العادية . وهذا العسكر يكون لدى المتصرف وبادارته وللمتصرف ان يطلب من الحكومة العسكرية في سورية الامداد بالجنود المنظمة في الاحوال غير العادية ، وان دعته الضرورة بعد ان يستشير مجلس الادارة الكبير . ويلزم الضابط المعين بالذات لرئاسة هذا العسكر ان ينظر مع المتصرف في تقرير التدابير الواجب اتخاذها هو (اي الضابط الموما اليه) وان كان مختاراً او مستقلاً بأمور العسكر المحضة ، كاجراء الحركات والنظامات الجندية ، الا ان عليه مدة وجوده في الجبل أن يلزم معية المتصرف ويجري العمل تحت عهدته ، وفي حال اعلان المتصرف لرئيس العسكر وافادته رسمياً ان قد زال السبب الذي من اجله ورد العسكر الى الجبل يجب عليه اخراجه منه .

المادة الخامسة عشرة

ان الدولة العلية تحافظ على حقها المعلوم بتحصيل ويركو الجبل المعين الآن ثلاثة آلاف وخمسمئة كيس ، وذلك على يد المتصرف ، على انه يجوز ابلاغ هذا القدر الى سبعة آلاف كيس عند الامكان ، بحيث ان المال المتحصل يخصص بادئ بدء لادارة الجبل ونفقات منافعه العمومية ، فان فضل منه شيء رُدَّ الفاضل على الخزينة ، وان اقتضت شدة الضرورة تحسين مجرى الادارة مزيداً على التكاليف المعينة فيرجع في تسوية المزيد الى مصاريف الخزينة الجليلة . اما واردات البكاليك اي حاصلات الاملاك الهمايونية فحيث انها ليست بداخلة ضمن الويركو فينبغي ادخارها في صندوق الجبل لحساب الخزينة الجليلة ، على ان السلطنة السنية لا تقوم باداء مصاريف الانشاءات العمومية وسائر النفقات غير العادية ما لم يتقدم قيد لها وتصديقها عليها .

المادة السادسة عشرة

يجب تعجيل الشروع في احصاء النفوس في جبل لبنان محلاً ومحلاً ملَّةً وملَّةً ومسح جميع الارض المزروعة ونظم خريطة مساحتها .

المادة السابعة عشرة

كل الدعاوى الكائنة بين افراد رهبان الاديرة وخوارنة الكنائس يكون فيها المظنون به او المتهم تابعين للحكومة الرهبانية ، الا ان تطلب الاسقفيات احالة ذلك الى مجلس الدعاوى العادية .

المادة الثامنة عشرة

يمتنع في عموم اماكن الرهبان مطلقاً اجـارة اللاجئين اليها ممن تطلبهم وتتعقبهم الحكومة أرهباناً كانوا ام من العوام .

صح : ان الثماني عشرة مادة المسرودة آنفاً هي النظامات الاساسية لجبل لبنان يجب اتخاذها دستوراً للعمل الى ما شاء الله ، ومن مقتضى ارادتي القاطعة السلطانية ان يتوفر الجميع على كمال الاعتناء والدقة في اجرائها وتنفيذها حرفاً فحرفاً والحذر كل الحذر من مخالفتها .

وايذاناً بذلك صدر فرماني هذا العالي الشان وقد كتب في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الاخر لسنة احدى وثمانين ومئتين والف (٦ ايلول ١٨٦٤) .

قيمة هذا النظام واثره في لبنان

ولقد تضاربت اقوال المعلقين على نظام ١٨٦٤ وما كان له من اثر في لبنان ، وخير ما يمكن القول فيه انه احسن في بعض الشؤون وقصَّر بل أساء في غيرها ، وقد جعله هذا التقصير بمثابة ثوب طفل فصل لجسم رجل ، فضلاً عما ترك فيه من خروق تعرّض لابسه لنوافح البرد ، ولوافح الحر ، ومغامز الناظرين اليه .

وزبدة القول ان هذا النظام الدستور الاساسي للبنان كانت فيه محاسن وفيه معايب او نواقص وتقصيرات وقفت حاجزاً في سبيل تقدم اللبنانيين في اثنائه ، على الرغم مما عرفوا به من ذكاء وعبقريّة ونشاط وعلو همة ، وعلى ذلك رأيناهم في ذلك العهد يكثرون من الهجرة الى مختلف البلدان ، ولا سيما الى اميركة ومصر حيث رحبت مجالات الرقي والحرية وقوي كل امرء على اجتناء ما تمكنه منه مواهبه من ثمار الفوائد والمرابح .

وها نحن نلمع بايجاز الى هاتيك المحاسن والمعايب اشباعاً للموضوع :

محاسن نظام ١٨٦٤

من اخص هذه المحاسن :

١ً — الغاء النظام امتيازات رجال الاقطاع ومنحه حقوقاً متساوية لجميع الرعايا اللبنانيين من مختلف الدرجات .

٢ً — حل حكومة القائمقاميتي مقام واعادة لبنان الى وحدته وجعله بلداً مستقلاً يليه حاكم فرد ، بضمانة خمس دول من كبريات دول اوربة ، هي فرنسة ، انكلترة ،

روسية ، النمسة، بروسية ، وانضمت اليها ايطالية سنة ١٨٦٨ فأصبحت هذه الدول الضامنة ستًّا ، وبذلك اصبح استقلاله اكثر منعةً مما كان عليه في عهده الاميري قبل سنة ١٨٤٠

٣ً — اقراره اعتماد طريقة الانتخاب الديموقراطية في تأليف مجلس اداري كبير يقوم الى جانب الحاكم العام ينتخبه مشايخ القرى المنتخبون بدورهم من الاهلين، وفاقاً للتقسيمات الادارية ولما لكل طائفةٍ من اهمية في العدد ، وقد ادّى ذلك الى ان يتألف هذا المجلس :

١ — من اربعة اعضاء موارنة زيد عليهم واحد فيما بعد فاصبحوا خمسة .
٢ — ومن ثلاثة دروز .
٣ — ومن اثنين روم ارثوذكس .
٤ — ومن ثلاثة احدهم روم كاثوليك وآخران سني فشيعي .

وقد اسندت اليه مهام محدودة في اول الامر اكثرها استشاري ، ولكنه اخذ يزيدها ويوسعها مع الايام وبعد منازعات شتى مع المتصرفين ، الى أن اصبح ذا صفةٍ تمثيلية ينوب بها عن الشعب في تصريف شؤون الحكم ، والاشراف على القضاء ، والجندية ، والمالية ، ومعالجة كل كبيرة وصغيرة من مهام الدولة .

٤ً — جعله القضاء مستقلاً قائماً بنفسه ، ولكن المتصرفين عملاً بالتوصيات التي كانوا يتلقونها من المراجع العالية في الاستانة عند تعيينهم حاولوا ربطه بمحاكمها فاحرزوا بعض النجاح بايجادهم بدعة التمييز اليها ، ونظر الدعاوى التجارية في محكمة تجارة بيروت، ولكن قضاة تلك المحاكم استمروا لبنانيين ومرجعهم الوحيد السلطات اللبنانية دون سواها.

٥ — اقراره فصل جندية لبنان عن جندية الدولة فصلاً تامًّا ومنع العساكر السلطانية من دخول لبنان الا اذا طلبها المتصرف ووافق على طلبه المجلس اللبناني الكبير. وفي طول العهد المتصرفي كان للجند اللبناني في لبنان من الهيبة والسطوة ما جعل استتباب الامن فيه مضرباً للامثال ، ومدعاةً لترداد وانتشار تلك العبارة التي ما زالت حتى اليوم شائعةً على الالسن وهي : « هنيئاً لمن له مرقد عنزة في لبنان ! » .

معايبه أو نقائصه

ولعل معايب هذا النظام ونقائصه كانت فوق محاسنه وها نحن نذكر منها :

١ — الاقتصار على جعله من ثمانية عشر بنداً وانه لمن الصعب ان تدار شؤون

بلاد ذات شأن بدستور من مثل هذا العدد من البنود ، ولذلك رأينا كثيرين من نقّاده يقولون عنه انه نظام ناقص مبتور .

٢ – ويشعر المطّلع على النظام انه مرتجل وموضوع من غير روية وتعمق في كل حاجات لبنان ، وسبب ذلك ان اللجنة الدولية التي وضعته جاءت بيروت ومهمّتها الاساسية سن نظام يضمن راحة لبنان ورفاهه التام في مستقبله ، الا انها على ما ذكرنا سابقاً اضاعت معظم جلساتها في بحث اشياء عرضية ، ولم تصل الى هدفها الاساسي اي وضع النظام الذي تدار به البلاد الا وقد كان اعضاؤها قد تعبوا وتولاهم السأم والضجر فوضعوه على عجل وهو ما ادّى الى ما وسم به من نقائص ومعائب .

٣ – جعل النظام الحاكم غريباً ومدته محدودة لا تتجاوز العشر سنين ، ومرجعه اسطنبول ، ومن البين ان ذلك يحمله قبل كل شيء على استخدام زمن اقامته في لبنان لخدمة مصالح الدولة وتنفيذ مآربها حتى حين تنتهي مدته ويعود اليها تحسن استقباله وتهتم بمكافأته وضمان مصالحه كما عمل هو على ضمان مصالحها .

مثال ذلك ما فعله المتصرفون الذين توالوا على حكم لبنان من الافتئات على حقوقه والاعتداء على امتيازاته :

فقد تنازل فرنكو للدولة عن ايرادات البقاع .
وتخلّى لها رستم عن فرق الموازنة .
وقلب واصا نظام القضاء واتبعه بنظام عدليتها .
وادخل يوسف فرنكو قانون مطبوعاتها وتذاكر النفوس فيها ، على الرغم من احتجاج اللبنانيين الشديد وانكار الدول على المتصرفين تلك التصرفات .

وانتقد بعضهم النظام لاقراره مبدأ الطائفية في الانتخابات والتعيينات وفي هذا الانتقاد نظر في بلاد مثل لبنان تقوم فيه الطائفية مقام الاحزاب في اوربة ، والاحرى نقده لاهماله كثيراً من القواعد الاساسية لقيام كل حكومة : منها ايلاء المتصرف الحق بتشكيل وزارة ، والمجلس الاداري التمثيلي حق الاشتراع والحد من الوقت الذي ينصّب فيه مشايخ الصلح ، لأن بقاءهم في وظائفهم مدى الحياة كان يحدوهم على ان ينتخبوا للمجلس في كل انتخاب الاعضاء انفسهم او من يلوذ بهم وهو ما كان يؤدي به الى الجمود ويقلل من حيويته ويحول دون تطوره وتأديته للامة ما كان ينتظر منه من خدمات مفيدة .

وافدح ظلم ألحقه هذا النظام بلبنان موافقة واضعيه فؤاد باشا على ان تضيق حدود لبنان وتسلخ عنه تلك المقاطعات التي كانت له في عهد امرائه ، والتي حبته اياها الطبيعة مثل بيروت وطرابلس وصيدا وصور ووادي التيم ، وعلى الخصوص البقاع وعكار اهم مورد لمعيشته ، وأن يحصر ضمن نطاق ضيق هو عبارة عن جبال صخرية جرداء . اجل قد اعطي ما بين تلك المدن البحرية من سواحل ، ولكنه منع من ان يقيم فيها موانئ ينفذ منها الى العالم الخارجي ، الا في عهد اوهانس ولكن لم ينفسح له الوقت لاستخدامها للتصدير والاستيراد ، اللذين بدونهما لا يتسنى لاي بلاد ان تعيش في بحبوحة ، ممتعةً باستقلال كامل ، وبحياةٍ حرَّةٍ كريمة .

٥

نكتفي بما قدمناه من بسط التمهيد الذي يتناول بعض توطئات الموضوع. ولايضاح الباقي ننتقل الى ذكر سلسلة الاحداث التي وقعت في لبنان خلال هذه الحقبة من تاريخه في عهد متصرفيه متصرفاً بعد متصرف ابتداء من عهد داود باشا .

داوُد بَاشَـا

١٨٦١ — ١٨٦٨

ولد في القسطنطينية من عيلة ارمنية كاثوليكية . اسم والده كرابت ارتين ، اختُلف في تاريخ مولده فجعله بعضهم ١٨١٢ وغيرهم ١٨١٦ وآخرون ١٨١٨ . وقالت دائرة المعارف مجلد ٧ صفحة ٧٢ تحت اسم داود : « انه قضى سنيه الاولى في بيت عائلة فرنسية في محلة غلَطة » دون ان تذكر ماذا كان السبب لاقامته في بيت هذه العائلة .

حصَّل الجانب البدائي والثانوي من دروسه في مدرسة فرنسية بازمير ، والعالي في الجامعة الفرنسية في ڤينة عاصمة النمسة ، وفيها درس اللغتين الانكليزية والالمانية فاصبح يتقنهما مع ما كان يتقن من اللغات الارمنية والتركية والفرنسية ، واخيرًا تعلّم الحقوق وعاد الى القسطنطينية فزاول زمناً التدريس ، ثم دخل في خدمة الدولة فعينته في السلك الخارجي ، وبعد زمن كلفته القيام باحدى مهامها في برلين حيث وضع بالفرنسية كتاباً في تاريخ القوانين والشرائع الانكلوسكسونية فجعلته اكاديميتها العلمية فيها عضوًا فخريًّا وأنعمت عليه جامعتها بلقب دكتور في الحقوق .

وبعد ذلك عينته الدولة العثمانية قنصلاً عاماً لها في ڤينة ونائباً عنها في اللجنة الدولية الطونية المعهود اليها بمراقبة من يسافرون في نهر الطونة وكان مركزها في كالالاتس .

ثم دعي الى القسطنطينية وعُيِّن فيها مديرًا للمطبوعات ثم مديرًا للبريد والبرق فنجح في المهمتين نجاحاً باهرًا رفع من قدره ولفت اليه انظار ذوي الشأن .

في متصرفية لبنان

وبالنظر الى تضلّع داود افندي من الثقافة الفرنسية أحبَّهُ الفرنسيون في اسطنبول واحاطوه بمعاضدتهم وكان سفيرهم فيها في مقدمة من ايّد انتخابه متصرفاً للبنان آملين ان يخدم مصالحهم في لبنان ولكنه كان على ما اكده كثيرون من معاصريه لا يقدم اية خدمة اخرى على خدمة تركيّة .

وحين صمم على السفر الى بيروت منحه السلطان رتبة الوزارة مع لقب « مشير » فكان اول مسيحي ينال مثل هذه الرتبة الرفيعة في تركية . ويروى انه لم يطلع على نظام لبنان الا وهو آتٍ على ظهر الباخرة الى بيروت فقال : « اني لو قرأته من قبل لما رضيت بهذه الوظيفة في بلد له مثل هذا النظام الناقص المعتل » .

وصوله الى بيروت

وغادر داود باشا دار السلطنة في اواسط حزيران ووصل بيروت في اواخره فاستقبل على المرفأ بحفاوة ، وقدَّمه فؤاد باشا للجنرال بوفور واركان حربه والقنصل الفرنسي فسُرَّ هؤلاء بتضلعه من اللغة الفرنسية ، آملين ان يكون خير عضد للسياسة الفرنسية في لبنان .

وفي اليوم التالي دعي الى حفلة رسمية فخمة أقيمت تحت السرادق في حرج بيروت. بمحلة الطيونة تلي فيها الفرمان السلطاني المؤذن بتنصيبه بمحضر فؤاد باشا وممثلي الدول وموظفي الحكومة واعيان البلاد ويقال : ان فؤاد باشا قدّم له الفرمان قبل تلاوته مع حفنة من تراب لبنان على سبيل التفاؤل .

وروى شاهد عيان ان يوسف بك كرم الذي اشتهر بالحرب التي شنَّها عليه كان حاضرًا تلك الحفلة وواقفاً الى جانب متكئاً على سيفه ، وعلى وجهــه سيماء الوجوم والحنق . وكان بمظهره ذاك يمثل دخيلة كثيرين من اللبنانيين الذين كانوا يتميزون غيظاً لتعيين حاكم عليهم لاول مرة من خارج لبنان ولمنحهم نظاماً حرموا فيه البقاع ومدن الساحل وحصروا فيه ضمن قفص في جبالهم الصخرية الجرداء .

داود باشا في دير القمر

وفي ١٢ تموز غادر داود باشا بيروت الى دير القمر مركز حكومة لبنان في ذلك الحين ، وكانت هذه المدينة لا تزال خراباً وقد سعى الجند الفرنسي بترميمها وساعد اهلها على العودة اليها فصمم هو على اكمال ما كانت لا تزال تحتاج اليه من ترميم . ولقي داود في اول امره صعوبات جمة في تعاطي الاحكام ، وتشكيل الدوائر ، وتعيين الموظفين ، وذلك لان اللبنانيين كما المعنا سابقاً لاقوا في النظام الجديد الموضوع في سنة ١٨٦١ اجحافاً فاحشاً بحقوقهم وامتيازاتهم فاستنكروه وكان في مقدمة مستنكريه يوسف بك كرم الاهدني اكبر زعيم يومئذٍ في شمالي لبنان ، فحاول الباشـــا ارضاءهم جميعاً ولكن لم يكن لديه

الوسائل اللازمة لتحقيق رغبته ، لذلك اقتصر على استمالة يوسف بك كرم اليه لعلمه بما له من نفوذ كلمة لدى الشعب فاستقدمه الى الدير بمكتوب وعرض عليه عدة مناصب في حكومته منها رئاسة جندية لبنان ولكنه لم يقبلها قائلاً : « اني لا اخدم نظاماً مجحفاً بحقوق وطني » .

توسط فؤاد باشا

واستعان داود بفؤاد باشا على استرضاء كرم وكان لا يزال في بيروت فأبحر للحال الى طرابلس ومنها اتجه الى اهدن وفيها حلّ ضيفاً على كرم في ١٩ آب ومعه جميل باشا واسعد باشا و ٧٠٠ فارس فاستقبلهم الاهدنيون بمهرجانات شعبية كبيرة واقاموا لهم الولائم السخية . وكان البطريرك بولس مسعد يومئذٍ في مصيفه بجوار قنوبين فخفَّ لتحية فؤاد باشا وتناول الطعام معه على مائدة كرم وتعاون كلاهما على اقناعه بوجوب زيارة داود في الدير وقبول منصب في حكومته فانصاع لهما احتراماً لمقامهما وقام بزيارة المتصرف الذي لاقاه مرحباً وطلب منه ان يكون من بعض موظفيه فرضي على ان يعتفي من الوظيفة حين يشاء فكان ان عيّنه قائمقاماً لجزين وهي أصغر القائمقاميات في لبنان فقبلها كرم مكرهاً لأنه رأى فيها تعمّداً للحط من مقامه وجاء بعد ثلاثة ايام الى الدير فاعتفى منها وعاد الى اهدن .

ابعاد كرم وخلوّ الجوّ لداود

وعرف فؤاد باشا باعتفاء كرم فاضمر له السوء واتصل به خبر قدومه الى بيروت فطلبه بمكتوب للتحدث اليه واوقفه في القلعة مكرماً، لكن محروم الحرية . وفي اوائل كانون الثاني من سنة ١٨٦٢ سافر فؤاد باشا الى اسطنبول فاستصحبه معه ليبعده عن داود باشا الذي كان يرى في تمنّعه عن التعاون معه سبباً في اقلاق راحته ونفور فريق كبير من اللبنانيين منه .

وكان داود باشا قد قام منذ وصوله بتنظيم بعض الدوائر والاقلام مبتدئاً بترتيب مجالس المحاكمة والوكلاء وتعيين حكام المقاطعات او القائمقامين فكان لكسروان والبترون الامير مجيد قاسم شهاب حفيد الامير بشير (وهو الذي كانت فرنسة تريد تعيينه حاكماً وطنياً للبنان مكان جده قبل الاتفاق على الحاكم الاجنبي)، وللكورة الامير حسن شهاب، وللمتن الامير مراد ابي اللمع ، ولزحلة الامير عبد الله شديد ابي اللمع ، وللشوف الامير ملحم ارسلان ، ولدير القمر الامير قيس شهاب ، ولجزين بعد اعتفاء كرم الشيخ

قعدان الخازن . وقد انتقاهم جميعاً من الامراء والمشايخ ليستعين بما كان لهم عندئذٍ من نفوذ كبير ومقدرة على التهدئة والارضاء .

ثم وجه همه الى تأليف الجندية فجعل عدد افرادها ١٥٠٠ وقسمهم الى فرسان ومشاة ودعا لترؤسهم يوسف بك كرم ولكنه لم يقبل ، وعندئذٍ عين لقيادة الفرسان يوسف بك نصيف من جزين ، وللمشاة الامير سعيد سعد الدين شهاب ، واستدعى من فرنسة ضابطين من جيشها هما « ڤان » و « الطاب » ليدربا هذه الجندية على الحركات العسكرية الفرنسية ، وقد فعلا وخصاها بلباس يماثل لباس فرقة « الزواف » من الجيش الفرنسي المقيم في بلاد المغرب ، وعيَّنا لها فرقةً للموسيقى كانت الاولى من نوعها في الحكومة اللبنانية .

وبعد ابعاد كرم هدأ بال داود وخلا له الجو فاخذ يسعى في اكمال التنظيمات وفقاً لمندرجات نظام ١٨٦١ فاصدر الاوامر بان ينتخب لكل قرية شيخ صلح ثم استدعى المشايخ المنتخبين الى بتدين فانتخبوا المجلس الاداري الكبير ، وكان في اول امره قد اتخذ له كاخية يمثله وينوب عنه هو الامير افندي شهاب وذلك على مثال ما كان يفعله الامراء والحكام اللبنانيون في العهود السابقة ، ولكنه بعد ان انتظم حال المجلس الاداري دعاه الى ان ينتخب له رئيساً وجعل ذلك الرئيس ممثلاً له واستغنى عن الكاخية .

وكان اول رئيس للمجلس الشيخ عيد حاتم من حمانا (ابو خطار) الماروني ، ومن ثم جرت العادة حتى آخر عهد المتصرفية ان يكون هذا الرئيس مارونياً بحكم التقليد والاكثرية الطائفية . وكان له في سلّم الوظائف المقام الثاني بعد المتصرف واقتصرت مهمته على ادارة الجلسات ومعاونة الاعضاء في ابداء الرأي دون مشاركتهم في التصويت .

داود يتودد الى اللبنانيين

وشعر داود باشا بان اللبنانيين نافرون منه فصمَّم على التقرب منهم والتودد اليهم ليجتذبهم الى جانبه ، ومن ثم اخذ يطوف بنفسه مع بعض المرافقين على المقاطعات اللبنانية ، ويزور رجال الدين والاعيان ، ويستمع الى رغبات الجميع وشكاياتهم ، ويبادر الى تحقيق مطالبهم ، معيداً العدل الى نصابه ، مقدماً الهدايا للكبراء ، محسناً الى الفقراء ، باذلا المساعدات للمعابد ، داعياً المتنافرين الى التصافي ، مضمداً الجراح ، ناشراً الوية الامن . وللاستزادة من كسب رضاهم ارتدى الملابس اللبنانية من مثل ما كان يرتديه امراؤهم ورجال الاقطاع منهم مع اهتمامه بوضع اساس المساواة فيما بينهم.

ومن اخص ما فعله في سبيل تهدئة البلاد واشاعة الراحة فيها استصداره ارادة سنية وافق عليها سفراء الدول بالعفو عن الجرائم ، شرط ان يخلد مرتكبوها فيما بعد الى السكينة ، فكان لهذا المسعى احسن اثر لدى بعض المتهمين بالاجرام الفارين من وجه العدالة ، فأخذوا يعودون الى بيوتهم ويباشرون اعمالهم مطمئني البال ، وعلى هذا النحو اخذ لبنان يعود شيئاً فشيئاً الى ما كان له سابقاً من حياة عادية هانئة . وفي ما قدمناه دليل على ان داود باشا كان رجلاً طيب العنصر كريم الخلق محسناً سخيًّا مخلصاً للبنان ، ولو ساعدته الظروف لانهضه الى درجة من الرقي والبحبوحة لا يماثله فيها اي بلد آخر في هذا الشرق.

اهم ما قام به من أعمال

ومما توفق اليه في تلك الآونة شراؤه للبنان سراية دير القمر من ورثة الامير يوسف، ثم قصر بيت الدين من الست حسنجهان ارملة الامير بشير بمبلغ ١٢ الف كيس ، وترميمه على قدر الامكان وانتقاله اليه مع دوائر حكومته ، وتحصيله للخزانة اللبنانية ايراد البقاع والبكاليك من اصل المال الذي كانت الدولة العثمانية قد اخذت على نفسها تأديته لها في كل سنة على سبيل المساعدة ، وانشاؤه مطبعة في بتدين وجريدة باسم « لبنان » كانت تطبع باللغتين العربية والفرنسية ، واقامته عدة مدارس حكومية مجانية، وسعيه بانشاء مدرسة كبيرة للطائفة الدرزية في عبيه وضمان اوقاف لها تكفل نفقاتها كل سنة، وقد سُمّيت باسمه « الداودية » وما زالت تواصل التعليم محتفظة بهذا الاسم حتى اليوم اقرارًا بالمعروف .

وعرف داود باشا ان اهل لبنان ينتقدون اقامته شتاءً في بيروت خارج حدود ولايته، فاستأجر لذلك دار الامير افندي شهاب في سبنيه بجوار بعبدا وانتقل اليها ، وتخرّب ذات شتاء جسر الدامور فرممه مسلحاً بالحديد زيادةً في تمكينه ، وطمح الى جعل هذه البلدة (الدامور) مرفأً للبنان ، ولكنه اصطدم بمعارضة عليا اقعدته عن تحقيق مطمحه ، ثم شقّ طريقاً للعربات بين بيروت وبتدين ، ولكنها لم تنجز الا في عهد خليفتيه فرنكو ورستم . وفي ايامه سنة ١٨٦٣ أنهت شركة فرنسية شق طريق للديليجانس اي لعربات كبيرة كانت تسير يوميًّا عليها بين بيروت ودمشق مخترقةً الارض اللبنانية، مسهّلة نقل الركاب والبضاعة ، مؤدية للحركة التجارية في البلاد خدمة عظيمة ، وقد ساعدت هذه الطريق خصوصاً على ان تتفرع منها طرق جانبية شمالا وجنوباً تربط قرى لبنان بعضها ببعض ، منها اول طريق من هذا النوع شقّها فورتونه بورطاليس تاجر

الحرير المشهور، من بحمدون الى معمله الحريري في بتاتر على نفقته الخاصة، بطول ٧ كيلومترات، فكانت ملكاً له اولاً ثم وهبها للحكومة فيما بعد.

تبديل نظام لبنان وتجديد مدة داود

وفي صيف ١٨٦٤ انتهت مدة داود فسافر الى الاستانة يحمل بعض اقتراحات بيَّن له الاختبار ان ادخالها على النظام السابق يعود على لبنان بالخير، فاستقبل باحترام لما أظهر في اثناء دورته الاولى من نشاط رضي عنه كثيرون من اللبنانيين وارتاح اليه قناصل الدول وسفراؤها، ومن ثم حين اجتمعت اللجنة الدولية عند عالي باشا الصدر الاعظم لبحث ما يوافق عمله، قرَّرت بالاجماع تعديل النظام كما تقدم على ضوء تلك الاقتراحات، وتجديد الولاية لداود باشا الى خمس سنين جديدة، فجعله ذلك يعود الى لبنان وكله استعداد على متابعة الجهاد في سبيل اسعاده.

اصطدامه بعودة يوسف كرم

ووصل داود الى لبنان واذا به يصطدم بخبر عودة يوسف بك كرم الى اهدن وتوافد الناس لتهنئته من كل جانب واجماع الكثيرين حتى من الدروز على تأييده والالتفاف حوله بحماس منقطع النظير، ومع ذلك انصرف الى استئناف تنظيم دوائره وفقاً للتعديلات الجديدة، واجرى عدة تشكيلات بين مأموريه، وأمر بان تسجل الصكوك في المحاكم، وبأن يعتبر لغوًا كل صك غير مسجل، وكان قد حاول مسح الاملاك في الشمال خلال مدته الاولى ولكن الشماليين من كسروان فما بعد قاوموه وطردوا لجان المسح، على انه بعد ان تجدَّدت مدته استعان بالمطران يوحنا الحاج مطران بعلبك الذي صار فيما بعد بطريركاً ونفَّذ المسح كما اراد.

كيف تمَّت عودة يوسف كرم

قدمنا القول ان يوسف بك كرم سافر مع فؤاد باشا الى الاستانة، وحين وصوله اليها استقبل استقبالاً حسناً وعرضت عليه الدولة قبول منصب من مناصبها الهامة اكتساباً له فأبى، لانه كان قد عاهد نفسه على ان لا يخدم الا وطنه. وبعد مدة زار عالي باشا وزير الخارجية وغيره من العظماء، وقد تمكن بتوسط فرنسة من ترك عاصمة الدولة والذهاب الى مصر على ان يبقى فيها الى ما بعد مرور السنين الثلاث من مدة داود. وقد قام بهذا الشرط.

وفي خلال ١٨٦٤ انتقل كرم من مصر الى قرية برنابا بجوار ازمير ينتظر انقضاء مدة داود ، حتى اذا عرف بالتجديد له غادر ازمير الى طرابلس فبلغها في ١٢ تشرين الثاني من السنة نفسها ، ومنها سار ليلاً الى زغرتا يرافقه حاجبه الخاص بطرس نمنوم ، واذ عرف الزغرتاويون بقدومه بادروا الى الاجراس يقرعونها والى اسلحتهم يطلقونها في الفضاء سروراً . فارتجت لمظاهراتهم تلك الانحاء ، وهبّوا يبحثون عن زعيمهم واذا هو في الكنيسة فحملوه على الاكف الى منزله واهازيجهم وهتافاتهم تبلغ عنان الجو .

داود يعمل على إخضاع كرم

وذاع خبر قدوم كرم في البلاد فأقبل مريدوه عليه من كل جانب وبينهم فريق من الدروز يهنئونه بالعودة بين مجالي الحماس والتأييد ، وكان كرم يهدئ حماسهم ، على ان تلك التظاهرات اشغلت بال داود فشكا امرها الى قنصل فرنسة والبطريرك فتدخلا في وضع حدٍّ لها ، ووعد كرم بالاخلاد الى السكينة على ان يتركه داود باشا وشأنه ولا يلاحقه بوجوب قبول منصب في حكومته .

وابلغ داود باشا وعد كرم فارتاح اليه ونفحه ببيولوردي التأمين والتطمين ، فراقت الاحوال زمناً ، ولكن الشماليين كانوا لا يتعرفون الى الحكومة ، ولا يعملون باوامرها ، وكان ذلك يوغر صدر داود ويرى فيه غضًّا من كرامته فعوّل على علاجه بالقوة ، وفي حزيران من سنة ١٨٦٥ سافر الى اسطنبول وعرض على الدولة قضية كرم قائلاً: « ان الامر لن يستقيم في لبنان الاّ بعد اذلاله وابعاده » واذا به يعود الى لبنان ومعه ١٥٠٠ جندي عثماني من صنف الدراغون والقوزاق وجهتهم الدولة الى الشواطئ اللبنانية على باخرة حربية عثمانية قدمتها لداود باشا ليستعين بها على تحقيق مآربه وقد أبدلت اسمها باسم « لبنان » من باب التغطية والتمويه .

إلماع الى ما أحرزه كرم من انتصارات

وشاء داود باشا ان يتحرش بكرم ليعلن الحرب عليه فجاء يصرف الشتاء في جونية، بعد ان كان يصرفه في بعبدا ، واستقدم الى ساحل كسروان الجيش الذي جاء به من الاستانة فانتشر رجاله في ارباض جونية والمعاملتين وطبرجا وأخذوا يضايقون الاهلين، فكان لهذا العمل اسوأ اثر في تلك المناطق المارونية ، وبادر كل من هناك الى الاحتجاج والاستنكار ، واستاء البطريرك الماروني لهذا الاعتداء على عرين المارونية وما فيه من تهديد مقنّع ، واحتج لدى داود باشا وقناصل الدول على ما في ادخال اولئك الجنود

الغرباء الى لبنان من خرق لنظامه واستقلاله، ولكن احتجاجه لم يلاقِ قبولاً، بل نجم عنه زيادة الجيش اضعافاً وذلك باستقدام عدة فرق عسكرية الى لبنان من الولايات المجاورة، حتى لقد بلغ مجموعها على ما قيل نحوًا من عشرة آلاف جندي. ومن ثم ابتدأ الشر بارسال شراذم من اولئك الجنود لتحصيل الضرائب من القرى المؤيدة لكرم، وامتنع بعض اهلها عن الدفع وفيهم فريق ممن عرفوا باختصاصهم بالبك، فضرب هؤلاء واودعوا السجن، ولم يسع كرماً الا النهوض لنصرتهم وهاجم بفريق من رجاله السجن وأخرجهم منه بالقوة، وحصل بسبب ذلك موقعة بين الجانبين خرج منها البك ورجاله والفوز حليفهم.

وتوالت بعد ذلك المواقع الحربية بين البك وداود باشا في عدة امكنة اخصها: البوار، العفص، بنشعي، سبعل، اهمج، وادي النسور، كفرفو، الحدث، عين الجوز، اهدن، اجبع، وادي الصليب، فكان كرم ورجاله على قلة عددهم وعُددهم يخرجون منها دائماً والوية النصر معقودة فوق الويتهم، واهم ما فعله العسكر التركي اقدام فرقة منه على اجتياح اهدن، وكرم غائب عنها، وبامر من داود باشا دخلت قصره وبعد ان نهبت ما فيه من امتعة وتحف وتذكارات تاريخية نفيسة اضرمت النار فيه حتى لقد اصبح اثرًا بعد عين.

كمين لداود

ولمناسبة احراق دار كرم نشرت الجوائب السطنبولية لمراسل لهـا في بيروت ان الزغرتاويين حنقوا على داود باشا حنقاً شديدًا لاحراقه تلك الدار الاثرية التي طالما استقبلت العظماء دار المجد والسخاء دار لبنان فتألفت منهم عصابة هبطت بيروت وكمنت لداود باشا بين الصبير في طريقه الى صديق له ارمني اسمه حنا خوكاز ولكنه درى بالكمين فتوارى ونجا وجعل بعد ذلك يأخذ الحيطة لنفسه في ما يقوم به من تنقلات وأسفار.

كرم تحت حماية فرنسة

وكان كرم قد توارى مدة حقناً للدماء التي رآها تراق دون فائدة، ولكن داود باشا لبث يبث عليه العيون ويرسل قواته في اثره، اخيراً سئمت نفسه تلك الحالة وظهر يجمع الرجال فتألب حوله كثيرون وسار بهم يريد مهاجمة داود باشا في بتدين فلجأ داود الى فرنسة يطلب توسطها لانهاء تلك الحالة، وكان كرم قد بلغ برجاله بكفيا وفيما كان هناك جاءه وفد من قبل قنصل فرنسة يعرض عليه أن يكون مظللاً بحماية الامبراطور نابليون

الثالث وأن يسافر الى فرنسة بضمانتها وتحت رايتها ، وان يلاقيه الى بكركي لابرام هذا الحلّ رسمياً .

وفي ١٧ كانون الثاني من سنة ١٨٦٧ حصل الاجتماع في بكركي وأعلنت حماية فرنسة على كرم امام الوف الرجال ، وتقرّر سفره ، وفي اليوم التالي نزل الى بيروت فجرى له فيها استقبال لم يسبق له نظير ، وسافر اولاً الى الجزائر ، ثم في شهر شباط الى مرسيلية ، وعينت له الحكومة الفرنسية مرتباً سنوياً قدره الف ليرة فرنسية ذهباً ، وبعد ذلك سافر الى باريس . وكان فيها غير راضٍ عن وزير خارجيتها فغادرها الى البلجيك ، ثم اتى ايطالية واقام مدة في رومية ثم في كورفو وانتقل اخيراً الى نابولي فتوطن قرية بجوارها اسمها « رازينا » الى ان مات في ٧ نيسان سنة ١٨٨٨ ودفن هناك .

وبعد مدة نقلت جثته الى لبنان ، وهي ما تزال حتى الآن مصونة من الفساد دون تحنيط ، ومعروضة في كنيسة باهدن ضمن صندوق زجاجي . وقد أقيم له تمثال يبدو فيه وهو على ظهر فرسه مثالاً للشجاعة والنخوة .

تتمة أيام داود حتى وفاته

وبعد سفر كرم راق داود باشا وصفا باله بما رآه من انصياع لبنان له بكل من فيه وجعل بعض المقربين اليه يوهمونه من باب الزلفى ان الدولة ستضطر الى التجديد له تباعاً طوال حياته لاستحالة وقوعها على آخر يقوى على ان يؤدي لها مثل خدماته ، لذلك حمله الغرور على ان يوالي احراجها بطلبه توسيع استقلال لبنان وتكبير حدوده وبان تضم اليه بيروت وطرابلس وصيدا ووادي التيم والبقاع وبعلبك ، ناسياً انها تضمر الكره لهذا البلد وتعمل على تضييقه وخنقه والقضاء على امتيازاته والحاق كل جانب منه بما يجاوره من ولاياتها ، حتى لا يبقى له اي كيان . وزاد الطين بلة انه ارسل اليها عريضة موقعة من اهالي صيدا يطلبون فيها الانضمام الى لبنان ، وعندئذٍ وقع عمله لديها موقع الاستغراب والاشمئزاز واستدعته الى اسطنبول في ايار من سنة ١٨٦٨ فسافر في حزيران ولدى وصوله احالته الى فؤاد باشا وقد كان في مقام الصدارة العظمى ليتدبر مطالبه معه ويتفاهم واياه عليها ، فاشار عليه ذلك الرجل الداهية بان يرفعها في عريضة الى الباب العالي مقترنة بطلب اقالته ان لم يجب اليها ، موهماً اياه ان الباب العالي لا يمكنه الاستغناء عنه اذ ليس لديه في الوقت الحاضر آخر جدير بالحلول محله ، فسلكت عليه لطيب قلبه تلك اللعبة ، ورفع العريضة على النحو الذي اشير به عليه ، واذا بالباب

العالي يسرع الى الموافقة على اقالته ، وهكذا وقع داود في الفخ الذي نصبه له فؤاد باشا وكانت مدة ولايته ست سنوات واحد عشر شهراً .

تعيينه وزيراً للنافعة وعزله

وشاءت الدولة استمرار الاستفادة من مواهب داود فأسندت اليه في الاستانة منصب نظارة النافعة مع نظارتي البرق والبريد . وحدث بعد حين ان كُلّف التوقيع باسم الدولة مع البارون هرش على شروط قرض مالي يُمد به خط حديدي في الروملي .

وكان لداود باشا خصوم وشوا به الى الباب العالي بأنه اساء الامانة واقتطع لنفسه من ذلك القرض مليوني ليرة ذهبية فعزلته الدولة من وظيفته .

وفاته في سويسرة

وخافَ داود باشا مغبّة هـــذه الوشاية فسافر الى اوربة بحجة حاجته الى تبديل الهواء ، وفيما كان في باريس طلبته الدولة للتحقيق معه في تلك الشروط التي رأتها مخلة بمصلحتها ، ولكنه لم يحضر بسبب اعتلال صحته ، وكان بالواقع معتل الصحة لفرط ما نالهُ من تأثر ، ومن ثم جاء سويسرة للاستشفاء ولم يطل به الامر حتى لاقى وجه ربه في تشرين الثاني من سنة ١٨٧٢ مخلفاً تركة قدرها ٦٠٠ الف ليرة ذهبية كان قد وقفها في وصيته الاخيرة لطائفته الارمنية الكاثوليكية لتنشئ بها مدرسة مجانية لتعليم فقرائها.

ولم يخلف داود باشا عقباً لانه كان قد اقترن قبل تعيينه متصرفاً بامرأة انكليزية ولكنه لم يكن معها على وفاق وحين عُيّن لمتصرفية لبنان تعاهد واياها على الانفصال فذهبت هي الى اهلها في انكلترة وجاء هو الى محل مأموريته في لبنان .

ولعلي اسهبت قليلاً في ترجمة هذا المتصرف وعذري في ذلك اهمية الاحداث التي وقعت في ايامه ولانه العامل المؤسس لكيان هذا العهد المتصرفي الذي وقفت كتابي هذا على بحثه ولبقاء النظم التي وضعها له سارية المفعول باكثرها الى ان انتهت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨ وكان ذلك آخر العهد بها .

فرنكو باشا

١٨٦٨ – ١٨٧٣

ولد فرنكو باشا في الاستانة سنة ١٨١٤ من والدين حلبيين من اسرة كوسا التي تمتّ بالقرابة الى اسرة تعرف بهذا الاسم في شمالي لبنان. تلقّى علومه في مدارسها وخرج منها يتقن ست لغات: العربية التي كانت لغة ابويه، والتركية لغة مسقط رأسه، والفرنسية، والانكليزية، والايطالية، واليونانية.

وسعى والده بادخاله في سلك الحكومة فعُين اولاً كاتباً في وزارة الخارجية، ثم رقّي بعد حين الى منصب رئيس دائرة، فناظر للبريد والبرق، وحين جاء فؤاد باشا الى بيروت سنة ١٨٦٠ لحل المشاكل التي طرأت سنتئذ في هذه البلاد أحضر معه عدة موظفين بصفة حاشية وفيهم فرنكو افندي بعد ان عيّنه اميناً لسرّه وكاتباً ليده.

فرنكو يصادق البطريرك

وكان الخلاف الذي شجر في كسروان بين المشايخ والاهلين من العامة الذين كانوا يعرفون يومذاك بالفلاحين لا يزال ناشباً، فوجهه فؤاد باشا اليها ليسعى مع البطريرك بولس مسعد في حل ما بقي من معقداته، واعادة المياه بينهم الى مجاريها السابقة، فكان احتكاكه بالبطريرك في تلك المناسبة مدعاةً لأن توثّق بينهما عرى الصداقة.

وبعد ان انهى فؤاد باشا مهمته عندنا وعاد مع حاشيته الى اسطنبول عُيّن فرنكو افندي ناظراً للجمرك في غلطة، وبعد مدة قام البطريرك مسعد برحلة الى اوربا وعرّج على عاصمة الدولة، فعُيّن فرنكو افندي فيها مهمداراً له، ليرافقه في زياراته للمقامات الرسمية، وبما ان البطريرك كان غير راضٍ عن داود باشا لعدة اسباب نذكر منها:

اولاً: قسوته على المنطقة الشمالية بلاد الموارنة وانزاله بها من النكبات والويلات ما لم يقل عما نزل منها بمنطقة الشوف في حوادث الستين.

ثانياً: اصداره امراً بنهب قصر يوسف كرم وهدمه مع ان يوسف كرم ما كان

ليخوض غمار الحرب لو لم يستنزله اليها داود باشا بدليل انه كان يقف في جميع معاركه مع الجيش التركي موقف المدافع .

ثالثاً : لانه وهو المسيحي الكاثوليكي كان يعنون رسائله اليه : «حضرة بولس افندي بطريق الطائفة المارونية » فاستاء البطريرك منه وعدّ تلك الكتابة تحقيراً لمقامه وامتنع من بعد عن مراسلته .

فلهذه الاسباب وغيرها سعى البطريرك وهو في الاستانة مع فؤاد باشا للتخلص منه وتعيين فرنكو افندي في مكانه عندما تؤاتيه لذلك فرصة .

تعيينه متصرفاً

وآتت فؤاد باشا الفرصة بنصبه لداود باشا ذلك الفخ الذي اوقعه فيه ممهداً للباب العالي اقالته . وفي ٢٨ تموز من سنة ١٨٦٨ اجتمعت اللجنة الدولية عند فؤاد باشا وزير الخارجية وقد زاد عددها واحداً بانضمام سفير ايطالية اليها ووافقت على انتخاب فرنكو افندي متصرفاً للبنان الى عشر سنين، وعلى الاثر صدرت ارادة سنية بمنحه رتبة الوزارة وهو غير عارف بكل ما جرى .

مفاجأة ظنها من باب المداعبة

ومن الحوادث التي تروى في لبنان ان فرنكو كان خفيف الروح حاضر النكتة يحب المزاح والدعابة وذلك ما جعل باب فؤاد باشا مفتوحاً في وجهه في كل وقت ، وكان يقضي معظم السهرات عنده ويورد له نكاتاً مسلية تسرّي عنه الهموم التي كان منصبه السامي يجرّها اليه .

وجاءه في تلك الليلة التي اختير فيها متصرفاً كمألوف عادته ، وهو جاهل ما تمّ بشأنه ، واذا بفؤاد باشا ينتصب امامه عند دخوله واقفاً وقفة المتهيب ويقول : «اهلاً وسهلاً بدولة افندينا فرنكو باشا » فوقف فرنكو مبهوتاً في مكانه وقال معاتباً : « اني يا مولاي اتشرف بناديك لاسليك لا لاسمعك تسخر مني وتتهكم علي » ! قال فؤاد باشا بحدة : « لا والله لست هازلاً وحياة راس افندينا (السلطان) انك قد صرت اليوم صاحب الدولة الوزير فرنكو باشا » ثم اخبره بانه انتخب متصرفاً للبنان ومنح رتبة الوزارة.

قدومه الى لبنان

وتهيأ فرنكو باشا للسفر في تموز ودعي قبل ركوبه البحر لمقابلة السلطان وتسلّم الفرمان من يده ويقال ان السلطان عندما كان يدفعه اليه اوصاه بان يحافظ وهو في مهمته بلبنان على واجب الامانة للدولة، فوعده فرنكو بانه سيبذل جهده في الغاء نظامه واعادته ولايةً للدولة مثل سائر ولاياتها ، وقد بدأ عمله بعيد وصوله بتنازله عن ايراد البقاع ، وتحويل ادارته لولاية سورية ، بينا كان داود باشا يجبي خراجه ، وينصّب قائمقامه ، بالاستناد الى ان الامراء والمشايخ اللبنانيين كانوا يتملكونه قبل سنة الستين ، ولكن الله نقله اليه قبل ان يتمكن من تحقيق وعده .

وكان فرنكو محدّثاً لبقاً ذكياً يحسن اجتذاب محدثه اليه ، ومما روته عنه الجوائب: انه تشرّف مرة بمقابلة السلطان ، فاوعز اليه بان يذهب الى المرفأ لتفحص بوارج جديدة كان قد امر السلطان باستحداثها وضمها الى الاسطول الراسي هناك ، فذهب وشاهدها واطّلع على ما فيها من فخامة المظهر وحسن الصنعة، وعندما عاد سأله السلطان : « كم اصبح عدد البوارج في هذا الاسطول ؟ » اجاب: « لقد سألت يا مولاي امير البوارج عن ذلك فقال لي انها كذا وكذا في مقام العشرات وقد تمنيت من صميم قلبي لو كنت صفراً الى يمين هذا العدد لاجعلها في عداد المئات » ، فسُرَّ السلطانُ من جوابه وانعم عليه بصرة من الليرات الذهبية .

ووصل فرنكو في الشهر نفسه الى بيروت ولبنان ترافقه اسرته المؤلفة من اولاده الستة وهم : اربعة ذكور وانثيان ، فاستقبلوا حيثما حلوا ولا سيما في بتدين بحفاوة بالغة وسر اللبنانيون الذين قابلوا المتصرف الجديد بما كان يبدو عليه من امائر الدعة والانس ، والبساطة وسلامة القلب ، ورجوا ان يكون عهده عهد سلام واطمئنان في لبنان .

مباشرته القيام بمهمته

وفي حال وصوله قرئ الفرمان بتعيينه في بتدين وباشر القيام بمهمته وكانت فاتحة اعماله تعيين لجنة مستشارين من اعيان البلاد يستعين بآرائها في شتى المجالات ، وحاذر التشيع لاحد الحزبين اليزبكي والجنبلاطي ، فاتخذ مأموريه من كليهما ، فكان في ذلك مثالاً للترفع عن العصبية ، وحبه لاقرار الوفاق والتصافي ، وأن يكون كلا للكل . اما الفرمان بالمشيرية التي اوجب النظام منحها كل متصرف للبنان فقد جاءه في تشرين الاول من السنة نفسها وقرئ في بتدين يوم الاحد ٢٥ منه في حفلة دعيت اليها جماهير غفيرة

وظهر فيها الباشا ببزته المقصَّبة والاوسمة تتلألأ على صدره ، وبعد قراءته عزفت الموسيقى بالنشيد السلطاني ، والقى المتصرف دعاء للسلطان ضجت الجماهير بالتأمين عليه بكلمة « الله ينصره ! » كما كانت العادة في تلك الايام .

اوصافه

وقد ترك لنا بعض من تقدمونا من المؤرخين والكتاب اقوالاً في اوصافه . فمما جاء في جريدة الجوائب في مقال نشرته لمناسبة وفاته :

« كان فرنكو باشا محبوباً من الجميع لانه كان تقيّاً ، محبّاً للحق ، غيوراً على مصالح العباد ، انيساً سهل الاخلاق ، يكلم الرفيع والوضيع ، ويراعي خاطر من يتحدث اليه ، ويأذن للجميع بأن يقدموا له معروضاتهم فينظر فيها بنفسه حتى لا يقع اجحاف بحق احد ، وكان كلما سمع بمظلمة يبادر لانصاف المظلوم من الظالم ، واعطاء كل ذي حق حقه » .

ومما رواه عنه الياس طنوس الحويك من موظفي المتصرفية في عهده في مذكراته المخطوطة : « انه كان جيد القلب ، كريم النفس ، يتظاهر بالبساطة وتواضع النفس ، وكان لا يأنف من مسايرة الفلاحين والبسطاء ويجالسهم ، واكد كثيرون ان مظاهره البسيطة تلك لم تكن الاّ تصنّعاً ودهاءً ليموه على عقول الناس . وكان كثير الوعود قليل الوفاء ، يداري اسطنبول ويصانع القناصل ورؤساء الدين ويفتقر الى الحزم والعزم في اعماله » .

وقال عنه ابراهيم الاسود في كتابه « تاريخ الاذهان » : «انه كان حليماً ساذجاً محبّاً للخير واجراء العدل في مجاريه وكثيراً ما كان يحسن الى الفقراء » وروى ان والده نجم الاسود الذي كان عضواً في المجلس الاداري أخذه معه ذات يوم الى مركز الحكومة في بعبدا وهو في مطلع عهد الشباب وادخله الى غرفة المتصرف (فرنكو) فانشده قصيدة كان قد نظمها في مدحه واصلحها له الشيخ ابراهيم اليازجي صديق ابيه فسرّ بها فرنكو باشا ، اذ كان يعرف العربية جيداً لانه حلبي الاصل ، واعلن والده بانه سيأمر بتعيينه في القلم التركي بصفة « جاكرد » اي ملحقاً ، ووعد باعطائه مرتّباً شهريّاً قدره خمس ليرات عثمانية من ماله الخاص ، قائلاً : « اذ ليس بوسعنا ان نوظفه بصورة رسميّة وهو في هذا العمر » يريد عمر الاحداث .

الضعف في موضع البطش

ومما كان يلومه عليه المقربون منه تسامحه مع المذنبين ووضعه اللين موضع الشدة، وافتقاره الى الحزم في اعماله، مما كان يحمل بعضهم على ارتكاب المخالفات والجرائم والاستخفاف بهيبة الحكم، وقيل ان شكاوى عديدة خطيرة رفعها اليه بعض اهالي العرقوب، على مدير منطقتهم خطار بك العماد الشهير بزعامته وبطشه والتصرف على هواه دون تقيد بالقوانين، ووجه المتصرف من حقّق في هذه الشكاوى فوجدت كلها صحيحة، فاستدعى ذات يوم خطار بك ليحاسبه على مخالفاته ويعزله من وظيفته، واذا به يجيء ويستأذن بالدخول على المتصرف وهو متمنطق بسيفه، وخنجره في زناره، وأخذ يكلّمه طالباً رضاه وعفوه، ولكن بلهجة تشعر بالشدّة والعنف، وبشيء من التهديد المقّنع، ومع ذلك ابتسم له وتناسى الشكاوى وتركه يعود وشأنه وأبقاه في وظيفته، وقد عاب عليه كثيرون هذا التسامح، وعدُّوه ضعفاً من النوع الذي قال فيه المتنبي:

ووضع الندى في موضع السيف في العلى   مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

وعلق الذي روى لي هذا الخبر عليه بقوله: «ان ذلك الضعف في فرنكو لم يكن لحسن الحظ لينجم عنه اي رد فعل في دوائر الحكم، وذلك لان موظفي ذلك العصر كانوا يؤخذون من كرام القوم ومن هم على جانب كبير من متانة الاخلاق واباء النفس وشرف المزايا، وان لم يكونوا على مثال موظفي اليوم ممن تخرجوا من المدارس العالية وحملوا اكبر الشهادات واتقنوا التحدث باللغات الاجنبية، ومع ذلك اضطروا الحكومة الحاضرة الى ان تجري فيهم هذه التطهيرات التي يكمن وراءها كثير من العيوب والمخازي».

موقفه من اولاده

قدمنا القول ان ابناء فرنكو باشا كانوا اربعة ذكور وابنتين:

كبيرهم نصري والثاني فايزلي: كانا في سن التوظف ولكنه لم يوظفها لئلا يقال انه يثقل على الخزانة اللبنانية بمعاش ولديه، الى ان ورد اليه امر من اسطنبول بان يعين ابنه نصري معاوناً له في الحكم، وفايزلي مفتشاً في الدرك ففعل، والمقول انهما كانا يقومان بمهمتيهما على احسن منوال.

والثالث كان يدعى ادوار وبعد ان مات والده وعاد الى الاستانة وشاء الدخول في سلك موظفي الدولة رأى نفسه مضطرًا الى ترك اسمه فاتخذ اسم فؤاد بدلا من ادوار وهو فؤاد بك الذي عاد الى لبنان مع صهره نعوم باشا زوج شقيقته ماري وكان قد

عينه مفتشاً للدرك ، ولكنه لم يلبث ان توفي ودفن في الحازمية في ضريح مجاور لضريح والده الذي كانت وفاته في سنة ١٨٧٣ .

والرابع يوسف وهو الذي انتخب متصرفاً للبنان سنة ١٩٠٧ باسم يوسف باشا فرنكو

ويروى ان ابنه نصري التقى ذات يوم في دار الحكومة بفتاة جميلة لها دعوى في المحكمة التي كان يرئسها الشيخ بشاره الخوري الفقيه جد رئيس الجمهورية الحامل اسمه ، فتوسلت اليه بالتوسط لها لدى الشيخ في انجاح دعواها ففعل واعطاها بطاقة توصية وفق طلبها .

فاستنكر الشيخ بشارة عمله ورفع البطاقة في ظرف مختوم الى والده فاستدعاه اليه في جمع من كبار موظفيه ووبخه على ما اتاه توبيخاً مرًّا وتهدده بالعقاب الصارم فيما اذا عاد الى مثل ذلك .

بك المركز

ومما يروى عنه : انه كان ينعم بلقب بك على من يأتون من الوجهاء او الموظفين عملاً يستحق رضاه . ومن ثم كثر طلاب هذا اللقب وانهالت عليه التوصيات ببعضهم من رؤساء الدين والقناصل حتى لقد ضاق بها ذرعاً ، ولكنه لم يعدم وسيلةً للتخلص مما تولاه من ازعاج بالوسيلة التالية :

« كان في المركز رجل معتوه اسمه «يوسف يزبك» مهمته كنس الاروقة وقضاء بعض الحاجات فدعا اليه ذات يوم رئيس القلم العربي وقال له : « اكتب » ! واملى عليه ما يلي :

« الى حضرة يوسف بك يزبك » .

فتوقف رئيس القلم والدهشة آخذة منه كل مأخذ وظن ان المتصرف غير جاد في ما يقول واذا به يكرّر القول بلهجة شديدة : « اكتبْ اكتبْ ! » :

« بناءً على رضانا عن اجتهادك فقد زدنا خمسة قروش على مرتبك الشهري » واخذه منه وذيّله بتوقيعه .

واشتهر امر هذا المكتوب واصبح حديث الاندية وامتنع محبو هذا اللقب عن طلب الحصول عليه ولا سيما بعد ان أصبح يوسف يزبك « يوسف بك او بك المركز المجذوب » !

عملها معي بوخطار

ومن النكات التي تروى عنه وعن رئيس المجلس الاداري في عهده الشيخ عيد حاتم من حمانا المعروف « ببو خطار » ان الشيخ كان يسكن صيفاً في جانب من قصر بتدين غير بعيد عن مسكن المتصرف وكان يعطف على عامل فقير له زوجة ذات جمال خفيفة الروح مغناج دمشقية الاصل عرفت بالشاناتية كانا يترددان عليه ويقومان نحوه ببعض الخدم فاسكنهما في قبو تحت محل اقامته. وصار الخبثاء يغمزون من قناة الشيخ وهو في السبعين من عمره ويلصقون به بعض الظنون متندرين باخباره مع تلك الزوجة الضحوك الشاناتية، وبلغت تلك الاقاويل مسامع المتصرف فرنكو باشا الذي على الرغم من شدة ثقته بعلو اخلاق وكيله، بدرت منه ذات يوم كلمة قالها على مسمع احد موظفيه: « لماذا يضع الشيخ بو خطار هذه الصبية الحلوة تحت ذقنه ويعرض سمعته للنقد؟ ...» وشاعت كلمة الباشا بين الموظفين وتناقلتها الالسن حتى اذا سمعها الشيخ عيد اسرع ونقل الشاناتية وزوجها الى قبو تحت سكن المتصرف ومنعها من التردد عليه.

ومرّت ايام انقطعت فيها الشاناتية عن الظهور امام نظر المتصرف فسأل عنها ذات يوم وكيله قائلاً: «يا شيخ عيد اين هي جارتك الصبية الحسناء؟» فاجابه الشيخ عيد: « لقد انتقلت يا افندينا من تحت ذقني لتحت ذقنك ».

واستقبل المتصرف العمل الذي قام به الشيخ بما عرف به من مرح وتسامح واخذ يردد امام موظفيه في مواقف التندر: «عملها معي بو خطار عملها معي ...»

ويتناقلون عنه ايضاً الخبر التالي:

رجلك في ظهر السلطان !!

أُدخل عليه يوماً مديون لا يؤدي ما عليه لدائنه. سأله: « لماذا لا تفي دينك »؟ اجاب: « ليس لدي مال يا صاحب الدولة » قال: « بعْ حمارك او عجلك » اجاب: « ليس عندي لا حمار ولا عجل » قال: « بع قطعة من ملكك وسدّد ما عليك » اجاب: « وليس عندي ملك يا مولاي »، قال: « بع بيتك » اجاب: « وليس عندي بيت » فقال له وهو يبتسم: « اذهب رجلك في ظهر السلطان » فذهبت عبارته هذه مثلاً ما زالت تردّد حتى اليوم لمن هو في حالة مثل حالة هذا المديون.

بَه ! والمندوب السلطاني

ومن المضحكات عن فرنكو باشا ومداعباته : انه حين أصيب بالداء ولازم منزله وترك مهام منصبه وشي به الى اسطنبول انه متمارض ، فوجهت اليه مفتشاً لفحص واقع الحال . ووصل المفتش الى منزله فاحاط به اولاده ورجوا منه ان يتلطف به حين المقابلة لان مرضه في القلب ويخشى عليه من ايّ تأثير نفساني مهما كان بسيطاً . وكان المفتش من اصدقاء فرنكو ومن زملائه في العمل حين كان موظفاً في وزارة الخارجية فلم يرَ من الموافق الدخول الى غرفته قبل ان ينبهه الى ذلك احد اولاده ، وبعد التنبيه فتحت له الغرفة فدخلها ولكنه لم يشاهد فيها احدًا وبينما هو في حيرة واذا بفرنكو يخرج من وراء الباب وهو يصيح « بَه ! » على سبيل المزاح قاصداً « تنقيزه » او تخويفه ثم تصافح الصديقان وهما يضحكان ، ولم يرَ المفتش من الضرورة اجراء تحقيق لانه اكتفى بما سمعه ورآه وسافر الى اسطنبول وقبل ان يصل اليها قضى المتصرف نحبه .

وفي لبنان يُعيـَّر من يخاف او « ينقز » من كلمة « بَه » . من ذلك ان قوالاً من قريتنا رويسة النعمان اسمه جرجس بدر كان يقارع قوالاً آخر في حفلة زجلية فافتتح قوله معه بالبيتين التاليين :

يللي قاصد جرجس بدر وبتفزع من كلمة بَه
سلم روحك لربك مدري بترجع مدري لَه

اخص أعماله

ومن حسن حظ فرنكو باشا ان عهده في لبنان كان عهد سلام وراحة لم يقع فيه شيء من مثل ما وقع في عهد سلفه من احداث مؤلمة تركت وراءها في لبنان ويلاً ودمارًا ، فانصرف الى ازالة كل ما كان باقياً من آثار تلك الاحداث والقيام بعدة مشاريع حضارية مفيدة منها :

١ — انصرافه الى انشاء احدى عشرة مدرسة حكومية مجانية للذكور والاناث في عدة قصبات وقرى كان يوجه اليها من قبله من يتفقدها وينفق عليها ، وقد عيَّن لها اساتذة يدرسون فيها العربية وشيئاً من الفرنسية وأمر بفتح مدرسة ليلية في بتدين لتعليم من يجهلون القراءة والكتابة من ضباط وافراد الجندية اللبنانية وارسل عدة شبان لبنانيين لاتمام دروسهم في مدارس اوربة العالية فخدم بذلك الثقافة في لبنان افضل خدمة .

٢ – سعيه في ترقية الزراعة . ويروى انه كان يحب الفلاحين والعمال ولا يستنكف عن مقابلتهم والاصغاء الى شكاياتهم ومطالبهم ، وقد سعى لدى الدولة باعفاء الادوات الزراعية المستوردة الى لبنان من الرسوم الجمركية مساعدةً للمزارعين ، وقد نشط على الخصوص زراعة الاشجار المثمرة والحرجية واستحضر مقداراً كبيراً من دوالي العنب من الاستانة واثينة ووزعها مجاناً على الزراع فغرسوها ونمت ، وفرّق كميات وافرة من بزور الصنوبر وعين حسن بك شقير احد اعضاء مجلس الادارة حينئذٍ ليتولى الاشراف على زرعها لما كان له في ذلك من خبرة ، فزرعت وعاشت ، وتألفً منها بعد حين غابات جميلة منها ما قام بعد حين في عين زحلتا وعيناب وفي جوار بعبدا والحدث ، واكثر من زرع شجر الازدرخت على جوانب الطرق اخصها طريق الحازمية وبقيت تلك الاشجار الى عهد غير بعيد الى جانبي طريق هذه المحلة .

٣ – ولفرنكو باشا فضل في تمهيد طرق العربات منها طريق من الحازمية الى بعبدا وكفرشيما ، وطريق الى عالية تناولها من طريق بيروت دمشق ، وطريق من بتدين الى بعقلين، وطريق من شاطئ البحر الى غزير ، واتمَّ جانباً كبيراً من الطريق التي شقها سلفه داود باشا من بيروت الى بتدين .

٤ – وعُني ايضاً بمد عدة جسور فوق الانهار ناهز عددها عشرين جسراً . ويروى ان جسر الدامور الذي كان قد انشأه داود باشا تهدَّم في اول عهده فاهتم بتجديده وانفق عليه مبلغاً من المال زاد على الف وخمسمئة كيس .

٥ – ووجه عنايةً خاصة الى ترميم قصر بتدين ، وكانت في طابقه الاسفل والى جوانبه قبوات مهدمة اشبه بالقبور فأصلحها وجدد جدرانها ومنجورها ، وحوَّلها الى مآوى للجند ، واستطرد نقب البساتين المحيطة بالقصر ومدَّ اليها مياه الشالوف المجرورة اليه من نهر الصفا ، وأكثر فيها غرس الاشجار المثمرة فاصبحت بعد ذلك جنائن غناء تقر بمنظرها العيون ، كما انه اقام متنزَّهات الى جانب تلك المياه متقنة أخذ الناس يقصدونها للراحة والتسلية .

٦ – ومما تفرَّد به فرنكو باشا في خدمة الصناعة انه اقام في دير القمر مصنعاً للسجّاد واستقدم اليه صناعاً من الماهرين في حياكة هذا الصنف ، وادخل فيه عمالاً وعاملات لبنانيين ليأخذوا هذه الصناعة الهامة عنهم ، ولكن هذا المشروع لم يدم طويلاً لانه مات بموته .

٧ – واراد فرنكو باشا ايجاد التوازن في الموازنة اللبنانية حتى لا تزيد النفقات على الواردات فاصدر امره باسقاط عشرة في المئة من مرتبات الموظفين ورجال الدرك مبتدئاً بمرتبه الخاص .

٨ – وفي تشرين الثاني من سنة ١٨٧٢ جاء الى بيروت الغراندوق نقولا ولي عهد روسية فدعاه فرنكو باشا الى وليمة فاخرة اعدها له في نهر الكلب حضرها معه جم غفير من اركان الحكومتين اللبنانية والبيروتية وذلك تبييضاً لوجه لبنان لدى الدولة الروسية التي كانت احدى الدول الست الموقعة نظامه واعترافاً بما لها على مصالحه من غيرة .

مرضه ووفاته

وفي اول كانون الاول من سنة ١٨٧٢ أصيب فرنكو باشا بمرض القلب ، واخذتْ تنتابه نوب ضيق صدر اضطرته الى مغادرة بتدين الى بيروت والاعتكاف في بيت جدَيّ. واشار عليه الاطباء بالراحة التامة، ولكنه بقي يطالع بنفسه البريد الوارد اليه من الاستانة . ويروى ان خلافاً وقع عهدئذٍ بين الارمن شقَّهم الى حزبين ، وامتد ذلك الخلاف الى من هم منهم في لبنان ، وكانَ خلافهم هنا على دير بزمار ، ورفع الامر الى الاستانة فجعلت تؤيد طوراً هذا الحزب وتارة ذاك ، وتبرق الى المتصرّف بين كل ساعة واختها امراً يناقض الآخر فضاق فرنكو ذرعاً بتلك القضية وكان رقيق الاحساس فاصابته ذات مرة عند تناوله احدى تلك البرقيات نوبة قلبية كانت القاضية عليه وذلك يوم الثلاثاء ١٨ شباط من السنة ١٨٧٣ ولهُ من العمر ٥٩ سنة .

وكان حين وفاته لا يزال مقيماً في بيت يوسف جدَيْ في بيروت ، فأقيم له فيه بعد ظهر الاربعاء ١٩ منه مأتم كبير حضره العظماء والاعيان، وبعد ان صُلّي عليه في كاتدرائية الآباء الكبوشيين دفن في محلة الحازمية عملاً بوصيته ، لانه كان يحب تلك المحلة ، ولا يرتاد سواها كلما شاء النزهة والترويح عن نفسه ، وكانت مدة ولايته اربع سنوات وسبعة اشهر .

وقد اقامت الحكومة في عهد نعوم باشا كما سيجيء قبة من الرخام فوق قبره ، واحاطته بسور له باب حديدي ، وامرت بان تزرع فيه الخمائل والازهار ، وبعد نحو خمس عشرة سنة توفي ولده فؤاد بك الذي قلنا انه جاءَ لبنان مع صهره نعوم باشا زوج شقيقته ماري وعيّن مفتشاً للدرك ودفن في ضريح مجاور لضريح ابيه ، ومن ذلك الحين عرفت تلك المحلة بقبر الباشا ، كما عرفت المحلة القريبة من الباشورة في بيروت بقبر الوالي .

واتخذت بعد حين محلة قبر الباشا مدفناً لكل من يموت في لبنان من المتصرفين او آلهم اخصهم واصا باشا وزوجته وبنتاه .

وفي عهد الانتداب اضطرت الحكومة اللبنانية بسبب تغيير هندسة ما هناك من طرق الى نقل هذه المدافن ومعها مدفن المرحوم فارس الشدياق الذي كان قريباً منها الى بقعة تناوح الطريق غير بعيدة عنها ، مع الاحتفاظ بالرفات والهندسة ووضع كل حجر من حجارتها في موضعه .

وبعد وفاة فرنكو تسلّم زمام المتصرفية الشيخ عيد حاتم رئيس المجلس الاداري وكان الشيخ عيد معروفاً بحنكته ومضاء عزيمته وغزارة فهمه ، منذ تمرس بادارة الشؤون في حكومة قائمقامية النصارى على عهد الامير حيدر ابي اللمع . ومما يؤثر عنه انه كان يقول : « لا يعد الرجل رجلاً الآ اذا اضحك الفاً وابكى الفاً » اي الآ اذا كان معواناً لاصحابه وقهاراً لمن يعاديه .

وكان فرنكو باشا نزيهاً عفيف النفس فمات فقيراً ، وبعد رجوع اسرته الى الاستانة في ايام صدارة اسعد باشا عزم هذا الصدر على أن يعيّن لها معاشاً كافياً ، ولكنه لم يلبث ان عزل قبل ان يفعل ، وولي بعده هذا المنصب رشدي باشا ، والتزمت صدارته خطة الاقتصاد . فلم يعين لها الا الف غرش كل شهر ، وهو مبلغ زهيد لم يكن ليكفيها ما تحتاج اليه الا بالاقتصاد والتقتير ، وكان ذلك مما أورث فقيدها حسن الذكر واستنزال الرحمات على ثراه .

رُسْتم باشَا

١٨٧٣ – ١٨٨٣

هو كونت ايطالي ينتسب الى اسرة مارياني العريقة في الشرق. ولد في فلورنسة من اعمال ايطالية سنة ١٨١٠ وتلقى العلوم واللغات في اشهر جامعات ايطالية وفرنسة وانكلترة. وكان والده من ارباب الثراء، ويروى انه فقد ثروته بسبب كفالة صديق له بدين كبير تقاعد عن ادائه، فاضطر الكونت الى بيع كل ما يملك ودفع المبلغ المطلوب منه وبسبب ذلك لازمهُ من الهمّ والحسرة ما ادّى به الى الموت وهو في معمعان رجولته.

وانتقلت بالفتى مارياني امه الى رومية، وفيها تعرَّفت الى سفير تركيّة وطلبت اليه الاهتمام بابنها الذي كان قد صار في عنفوان شبابه وايجاد عمل له يناسب ما يحرزه من علم او يحمله من شهادات عالية، فاتخذه معاوناً له في السفارة. وبعد مدة نقل هذا السفير الى منصب عال في اسطنبول فانتقل اليها ومعه الشاب ووالدته، وفيها سعى بادخاله في احدى المصالح الحكومية التابعة للسلك الدبلوماسي بعد ان حصل على الجنسية العثمانية ودُعي باسم رستم.

واخذ رستم يتقدم في السلك تقدماً سريعاً بمساعدة السفير، وبما أُوتيه من ذكاء ودراية وحزم، فعُيّن بادئ بدء ترجماناً لنجيب باشا وزير خارجية الدولة، ثم لفؤاد باشا الذي وليه في منصبه. وبعد أن عُيّن فؤاد باشا معتمداً سلطانياً للدولة في بوخارست استصحبه معه اليها فكان خير مُعين له على اداء مهمته.

وحين عاد فؤاد باشا الى الاستانة عيّنهُ اميناً لاسرار وزارة الخارجيّة. وبعد مرور زمن عيّن معتمداً للدولة في تورين، ثم معتمداً سلطانياً ومندوباً مفوّضاً للدولة لدى الحكومة الايطالية في فلورنسة، مسقط رأسه، ومن ثم أخذ يتقلّب في مختلف المناصب العالية في الدولة.

وفي سنة ١٨٧٠ ارسل في مهمة سرّية الى رومية فقضاها على احسن منوال. ومن ثم عُيّن سفيراً للدولة في بطرسبورج. ومعلوم ان سفارة الدولة فيها كانت اخطر سفاراتها

في مختلف البلدان ، فقام بها رستم بك خير قيام ، وأصاب حظوةً لدى القيصر اسكندر الثاني وقرَّبَهُ اليه البرنس غورتشاكوف رئيس وزارة روسية الذائع الصيت في ذلك الحين.

ويحكى ان رستماً حين تلقّى ذات يوم ، وهو في بطرسبورج ، برقية من الباب العالي يُشعره فيها بان الاتفاق قد تمَّ بينه وبين سفراء الدول على تعيينه متصرفاً للبنان اخذ منه الكدر كل مأخذ ، وعزم على ارسال جواب يعتذر فيه بعدم تمكنه من قبول ذلك المنصب ، لاعتقاده انه دونه مقاماً ، وسار قبل ذلك الى البرنس غور تشاكوف يطلعه على ذلك ، وهو متجهّم الوجه ممتقع اللون ، قائلاً : انظر ايها البرنس كيف يلعبون بي ، لقد كنت انتظر منهم الترقية فاذا بهم يعودون بي الى الوراء ، وبسط لهُ البرقية . وما كاد البرنس يتصفحها حتى أخذ يضحك ملء شدقيه وقال : « انك على خطأ يا عزيزي ، فمتصرفية لبنان منصب خطير لا يفضله في الدولة الا منصب الصدارة العظمى ومنصب الخديوية في مصر » وجعل يشرح له تاريخ المتصرفية اللبنانية ، وكان رستم بك كبير الثقة بكلام البرنس ، فأخذ من ذلك الحين يعدّ العدة للسفر الى عاصمة الدولة .

كيف جرى انتخاب رستم لمتصرفية جبل لبنان

اما كيف جرى انتخاب رستم لمتصرفية لبنان فحكايته :

بعد ان اصيب سلفه فرنكو باشا بالمرض الذي ادى الى موته عقد اجتماع في ٢٢ كانون الثاني ١٨٧٣ في الباب العالي بين الصدر الاعظم والسفراء ممثلي الدول الموقعة نظام لبنان اجتمعت فيه كلمتهم على احالة متصرفية لبنان الى عهدة رستم باشا .

وفي ١٩ شباط عقد اجتماع آخر صدر فيه المرسوم القاضي بتعيينه ووجهت اليه رتبة الوزارة مع لقب مشير ، أعلى الالقاب العسكرية في الدولة . وأبلغ رستم الخبر في بطرسبورج فعاد منها بطريق اودسه على ظهر باخرة روسية ووصل الى الاستانة يوم الخميس الواقع في ٢٤ من الشهر المذكور وقابل الصدر الاعظم الذي هنأه بهذا المنصب وتحدَّث اليه عما تعلقه الدولة عليه من آمال في مهمته هذه الخطيرة .

الجوائب تثني على رستم باشا

وعلى اثر هذا التعيين نشرت جريدة الجوائب التي كانت تصدر يومئذٍ في الاستانة لصاحبها فارس الشدياق ، العلامة اللبناني المعروف ، النبأ بكثيرٍ من التفاؤل . قالت :

« ان متصرف لبنان الجديد معروف بجودة الرأي وحسن التدبير ومكارم الاخلاق ، وكان في كل ما وَليَهُ من الامور يبدي الجد والاجتهاد ويخلص السعي . وكان المرحوم عالي باشا والمرحوم فؤاد باشا يودانه ويكرمان مقامه ، ويعتقدان أنه جدير باسنى المراتب وكثيراً ما فوضا اليه مأموريات خطيرة واحالا اليه مشكلات عسيرة ، فكان يقوم بها احسن قيام ، ويوصلها الى ايمن ختام ، وهذا ما يحمل على الرجاء بأنه سيدير متصرفية لبنان احسن ادارة ، ويحقّق آمال الدولة فيه بانتخابها له كما سيحقق آمال اهل الجبل في ان ينالوا في عهده راحةً وامناً وسعادة » ...

انضمام ايطالية الى الدول الخمس

ثم قالت الجوائب في مكان آخر بتاريخ ٣٠ نيسان : « وقّع سفراء الدول ومن جملتهم سفير ايطالية المذكرة المتعلقة بتفويض متصرفية جبل لبنان الى دولتلو رستم باشا. اما مدة المتصرفية فيما يقال الآن فعشر سنين لا ثلاث كما كانت من قبل » .

وصول رستم باشا الى لبنان

وفي يوم الخميس الواقع في اول ايار من سنة ١٨٧٣ توجه رستم باشا الى المابين وودع جلالة السلطان وسافر الى لبنان بطريق بيروت يرافقه كلٌ من الشيخين طالب حبيش ورشيد الخازن . وجرى له في بيروت استقبال حافل ونزل في بيت يوسف جدَيْ نزيل الاستانة في ذلك الحين، ثم انتقل الى بيت محمود الدرويش الذي كان واقعاً الى الجهة الشمالية من بيت هنري فرعون اليوم . ويروى انه زين حديقته بحيوانات مصبَّرة كان قد اصطادها في روسية ايام كان فيها سفيراً للدولة . وكان من بعض مستقبليه حين وصوله نقولا النقاش باسم والي سورية ، وكامل باشا متصرف بيروت ، وقناصل الدول والرؤساء الروحيون واعيان المدينة وبعض اعيان لبنان . (وكانت بيروت يومئذٍ لا تزال متصرفية) .

وجاء لزيارته في بيروت تلاميذ مدارس الطوائف وتلوا بين يديه الخطب والقصائد واناشيد الترحيب ، فسُرَّ بهم غاية السرور ، ورد لهم الزيارة في مدارسهم ، وكان في كل مدرسة يلقي خطاباً يحضّ فيه التلاميذ على الاجتهاد ويحث الاساتذة على الانتباه والتيقّظ .

وفي حزيران غادر رستم باشا بيروت الى بتدين فجرت له في الطريق ولدى وصوله اليها استقبالات غاية في البهاء ، وبعد أن تلي على المستقبلين الفرمان السلطاني القى فيهم

المتصرف خطاباً طلب اليهم فيه الاتفاق واحترام القانون ، متوعداً المخالفين والمتهاونين في اعمالهم من الموظفين باشدّ جزاء .

وانصرف بادئ ذي بدء الى تنظيم الدوائر بعد ان قام بجولة في لبنان اكسبته دراية وخبرة . وبعد ذلك اخذ يقيل بعض الموظفين الذين كان يراهم غير اكفاء ، ويعين في مكانهم من كان يتوسم فيهم المقدرة والنزاهة .

وبقي رستم باشا حاكماً في لبنان عشر سنين وثلاثة اشهر كانت له فيها حسنات ومساوئ سنأتي على ذكر بعضها في اثناء هذه اللمحة .

الفرمان السلطاني بتعيين رستم باشا

وهذه صورة الفرمان السلطاني بتعيين رستم باشا متصرفاً للبنان ، أيت نشره تبياناً للطريقة المشوّشة التي كانت تكتب بها اهم القرارات الرسمية في عهد السلطنة العثمانية مما يبدو لنا اليوم مبتذلا حريًّا بالاستغراب :

« الدستور المكرم ، المشير المفخم ، نظام العالم ، مدبّر امور الجمهور بالفكر الثاقب ، متمم مهام الانام بالرأي الصائب ، مهد بنيان الدولة والاقبال ، ومشيّد اركان السعادة والاجلال ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى ، من متميزي رجال دولتي العلية ، سفير بطرسبورج سابقاً ، الذي وُجّه اليه الآن وأحسن لعهدة استيهاله رتبة الوزارة السامية ، مع احالة وتفويض متصرفية جبل لبنان له ، الحائز والحامل نيشاني المجيدي من الرتبة الاولى ، ونيشاني العثماني من الرتبة الثانية ، وزيري رستم باشا . ادام الله تعالى اجلاله .

حين وصول توقيعي الرفيع الهمايوني هذا اليك ، يكون معلوماً انه لا حاجة الى البيان الآن بانه حسب وقوع وفاة متصرف لبنان نصري فرنكو باشا ، وبحسب ان كافة صنوف تبعتي هم وديعة جناب رب العزة عنـــد خلاقتي الملوكانية فاستحصال اسباب امنيتهم واستكمال رفاهيتهم وراحتهم هو على كل حال من اقدم افكار معدلتي الملوكانية ، وبما ان الاهالي المتوطنين في الجبل المذكور دوام رفاهيتهم وراحتهم هي من الامور المطلوبة والملتزمة عند ملوكانيتي وبما انك يا ايها المشار اليه المتصف بالدراية في المهام فمنك على كل حال اطلب موافقة رضاي المقرون بميامني الملوكانية . فالمأمول انه يظهر منك الخدم الممدوحة تطبيقاً لمناسبات قوانين دولتي العلية العادلة ونظامات الجبل الاساسية .

وبناءً على ان نير توجهاتي الشاهانية في حقك هي من الامور المسلم بها قد صار نهار الاربعا الواقع في ١٥ من شهر ذي الحجة الشريفة سنة ١٢٩٠ (١٨٧٣) بموجب امري هذا الهمايوني المقرون بعنايتي الملوكانية شرح سنوح وصدور ارادتي الملوكانية الناتجة عن عوارفي ومواهبي وعواطفي العلية السلطانية وبالتجديد وجهت واحسنت اليك برتبة الوزارة السامية مع احالة متصرفية جبل لبنان المذكور لعهدة استيهالك ولاجله قد صار اصدار واعطاء امري هذا الجليل من ديواني الهمايوني المتضمن مأموريتك ، فانت ايضاً بحسب مأموريتك ودرايتك يقتضي أن تتوجه الى محل مأموريتك . وان توقي من الخلل النظامات الموضوعة والمؤسسة في حق الجبل المذكور ، وان تحسن ادارة الاهالي المتوطنين تطبيقاً لاحكام النظامات المذكورة ، وأن تسعى على كل حال لاستحصال الرفاه والراحة ، وان تبذل الوسع والمقدرة لاستجلاب الدعوات الخيرية من الجميع لطرفي الاشرف الملوكاني. والحاصل ان خصوصات ضبط وربط المملكة واستكمال راحة الاهالي يجلب سعد رضاي السلطاني ومحظوظيتي الملوكانية . فكلما سعيت وصرفت القدرة باستجلاب الحالات تتجدد دائماً محاسن توجهات مكارم عناياتي الشاهانية نحوك حيث ان دوام المأمورية هو على كل حال منوط بقوة حسن الادارة فتيقن واعلم جزماً بانك كلما توفقت لحسن ادارة المملكة بحسب النظامات المؤسسة تكون دائماً في خدمتك ، وعلى هذا يقتضي أن تبذل وتبرة نقد آثار الاستقامة والدراية بحسب الوسع والطاقة والاحوال اللازم الانهاء عنها يقتضي أن تعرضها الى مقر معدلتي الملوكانية .

تحريراً واشعاراً في اليوم الحادي والعشرين من شهر ذي الحجة الشريفة سنة ١٢٨٩.

نص خطاب رستم باشا

وبعد تلاوة الفرمان في من كان هناك من الجماهير الغفيرة القى رستم باشا فيها الخطاب التالي :

يا ابناء لبنان !

لقد سمعتم ما تلي على مسامعكم من ان سعادة حال تبعة مولانا المعظم المستظلين ظله الوارف هي من اخص الامور الملتزمة عنده ، وكذا مشاهدة الوسائل اللازمة في حصول ازدياد الثروة والعمران الباعثين على رفاه حال الايالة ، فساصرف الهمة لاجراء الاحكام على منهج العدل والحقانية اللذين نتيجتهما ما ذكر . ويسهل اظهار هذا القصد

الخيري اتحادكم معي واخلاص مساعيكم في ما هو منوط بكم حتى اثبت لكم محظوظيتي

امّا من يهمل ايفاء ما يلزمه في مأموريته او يتكاسل فتتوجه عليه مني المسؤولية، كما أن من يخالف قوانين الحكومة في حركاته فستجري عليه المجازاة. وغاية املي في ما ذكر ان اهل الجبل يتركون الشقاق القديم ويتفقون عموماً حتى يتحقّق مطلوب ولي نعمتنا من السعادة وزيادة الثروة والعمران، ونحصل بذلك على رضاه. فنتواطأ على هذا مستعينين بالالطاف الصمدانية. والله الموفق.

اخبار متناقلة عن رستم باشا

وها نحن ذاكرون الاخبار التالية المتناقلة عن رستم باشا للاستزادة مما قدمناه من ترجمة وتبيان اطواره واخلاقه:

العدالة أساس الملك

افتتح رستم باشا حاكميته بالتشديد في منع ذوي النفوذ من التدخل في شؤون القضاء، رعايةً للعدالة، وفي الضرب على أيدي المجرمين دون هوادة. مثال ذلك ما فعله في الحادث التالي:

هاجم ذات يوم رجل من بتاتر احدى قرى الجرد اسمه منصور عواد مدفوعاً من احد المتنفذين في القرية اثنين من اهلها، وأطلق عليهما الرصاص فارداهما قتيلين. واعتقل الجاني وجرت محاكمته في بتدين في عهد رستم باشا، وحاول كثيرون من الزعماء التدخل مع القضاة لاجل تخفيف عقوبته، ولكن حزم رستم باشا جعل القضاة يتهيّبون الموقف، ويرفضون الاصغاء الى اية واسطة، حتى اذا وضح لهم في التحقيق ان القتل حصل عن سابق تصور وتصميم حكموا على القاتل بالموت شنقاً. وفي الحال عُلّق المجرم على المشنقة في ساحة بتدين بحضور رستم باشا نفسه يحفّ به كبار موظفيه.

وقد كان لهذا الحادث اثر عميق في استتباب الامن، ونشر اعلام الراحة في لبنان حتى لم يقع فيه طوال عهد رستم وهو يزيد على عشر سنين الا ثلاث حوادث قتل.

رستم كان مرهوب الجانب

ذلك لان رستم باشا كان يمشي في حكمه على خطة الحزم والعدل وتقديس القانون، فجعله ذلك مرهوب الجانب في السرّ والعلانية في القرب والبعد، دليل ذلك ما رواه ابراهيم الاسود في كتابه «تنوير الاذهان مجلد ١ ص ٥٤» عن اثنين من رعاة الماعز

تخاصما في اعالي احد الجبال وتعاركا وقوي احدهما على الآخر فصرعه ، وقبض على عنقه وهو يقول له : « والله لولا خوفي من رستم باشا لقتلتك » ففي هذا الحادث اوضح دليل على ما كان لهذا الرجل عند اللبنانيين حتى المقيمين منهم بالبراري من هيبة ورهبة، بفضل ما كان بيديه من شدة وحزم في تنفيذ القوانين والاوامر .

رهبة رستم باشا بلغت فلسطين

وفي «اوراق لبنانية» (السنة الثالثة صفحة ١٥١) مقال لمنصور جرداق ذكر فيه رواية عن لسان مواطنه في ظهور الشوير بشاره مشرق والد فارس مشرق المعروف. انه كان مرة في فلسطين في مهمة تجارية جمع من ورائها مبلغاً من المال ولفت نظره وهو في القدس ثلاثة اشخاص من البدو يتبعونه ويراقبونه فاهتم لهم وسأل عنهم فقيل له انهم من قطاع الطرق وهم يدرسون موقفه حتى اذا ترك المدينة وتوسط احد الاودية المقفرة انقضوا عليه وسلبوه دراهمه وربما قتلوه .

حينئذٍ خطر له ان يضللهم لينجو من شرهم فاخذ يسأل على مسمع منهم عن مدينة الخليل الواقعة جنوباً وعن حالة الطريق اليها ليوهمهم ان سفره سيكون في تلك الوجهة الجنوبية حتى اذا تاكد ان اللصوص اقتنعوا بقوله حزم امتعته وسافر شمالاً متجهاً الى لبنان .

ومر اليوم الاول والثاني وكاد ينقضي الثالث دون ان يعترضه احد في طريقه فاعتقد ان اللصوص ضلوا السبيل وعدلوا عن اللحاق به، فشكر الله، وفيما كان يتضرع اليه بان يوصله الى لبنان سالماً سمع صوتاً عالياً يناديه ويأمره بالوقوف وكم كان ذعره عظيماً حينما شاهد فرساناً ثلاثة شاكي السلاح هم اولئك اللصوص يقذفونه بالشتائم لانه خدعهم ويطلبون منه ما معه من مال والا خطفوا روحه .

قال : وكنت احمل دراهمي في كمر تزنرت به واذ رأيت المقاومة ضرباً من الجنون حللته ودفعته لزعيمهم عن يد صاغرة واذ انست انهم سيكتفون بالمال ولن يمسّوني باذى استجمعت شجاعتي وقلت للزعيم : خذه الله لا يبارك لك به انه يحتوي على اربعين ليرة ذهبية ولكني ساسترجعها من متصرفنا رستم باشا ثمانين .

وعندئذٍ رأيت الزعيم يركز رمحه في الارض ويرد لي الكمر وهو يقول : « خذه لعنة الله عليك وعلى متصرفك رستم باشا اذ لم ينقضِ على خروجي من سجن لبنان الا ثلاثة اشهر فقد قضيت فيه مدة ثلاث سنين بدعوى سلب وجرح مواطنكم شاهين ابو صالح...

نعم ان باستطاعة رستم باشا ان يتناولني حيثما كنت ولو اتخذت الغمام مقراً وباستطاعته ان يرد لك مالك مضاعفاً ويميتنا نحن في السجن ».

حادثة شاهين ابو صالح

اما حادثة شاهين هذا فمفادها انه كان راجعاً مرة الى لبنان من تجرة في حوران فانقضّ عليه في السهل ثلاثة من قطاع الطرق فقاومهم ولكنهم تغلبوا عليه وسلبوه دراهمه واثخنوه جراحاً ، وبعد وصوله الى لبنان ، شكا امره الى المتصرف رستم باشا ، وبعد اشهر قليلة طلب شاهين الى مركز المتصرفية لحضور محاكمة قطاع الطرق ، وكانت حكومة دمشق قد اعتقلتهم امتثالاً لامر مشدّد من حكومة الاستانة نزولاً على طلب رستم باشا فحكم عليهم بالسجن وباعادة المال المسلوب مع العطل والضرر والتعويض ، وكان اولئك الثلاثة الذين تعرضوا لشاهين ابو صالح هم انفسهم الذين تعرضوا لبشاره مشرق .

تلك كانت هيبة رستم باشا تجاوزت لبنان ووصلت الى سورية وفلسطين وجعلت اللبناني في عهده معزّزاً منظوراً اليه بلاحظة الاحترام اينما سار .

ابرز اخلاقه واطواره

وكانت ابرز اخلاق رستم الانفة ، والجرأة على مواجهة الحقيقة ، والترفع عن الماديات ، وقطع دابر الرشوة ، والسعي في اجراء العدل ، وتسويد القانون على الرفيع والوضيع ، والحفاظ على حرمة مقامه ، وصيانة حقوق لبنان ، والدفاع عن كرامة اللبنانيين خارج لبنان ، ولا سيما الموظفين منهم ، وفي سبيل ذلك كان يجابه ولاة الترك وقادتهم في جوارنا ، ويلجئهم الى الوقوف من الحكومة اللبنانية موقف الاحترام ، والشعور بمقدرته على عقاب كل من تحدثه نفسه باي تطاول على سلطته وكرامة لبنان .

والى جانب ذلك كان يستسلم احياناً الى الحدّة والنزق والتسرّع والقسوة مما كان يخرج به عن حدود الاعتدال والمنطق في اعماله ، وسنأتي في التالي على طرائف اخبار تكشف لنا دخائله وتعطينا عنه صورة اصيلة تمثل لنا جوهره وحقيقة مكنوناته .

آدابه الخاصة

اما آدابه الخاصة فقد تضاربت فيها الاقوال ، ونحن لا نتعرض الا لما كان منها ذا صلة بسياسة البلاد . كان بعض اللبنانيين ينسبون قسوته وفظاظة طباعه وضيق صدره الى عزوبته ووحدته في بيته ، ولذلك قام منهم من طلبوا من الدولة ان تنتقي لهم دائماً

متصرفين متزوجين ، بحجة ان الحاكم المتزوج يكون اكثر اتزاناً وارحب صدراً واوفر عطفاً وشفقةً على الرعية ، ولا سيما على اولئك الذين تدفعهم احياناً اسباب اضطرارية الى مخالفة القانون فلا ينهال عليهم الحاكم بالشتائم والكرباج كما كان يفعل رستم مع كثير من هؤلاء .

رستم باشا كان متزوجاً مطلقاً

والحقيقة ان رستم باشا لم يكن في الاصل عازباً بل كان قد تزوج في اول شبابه، ولكن حدة مزاجه حالت دون اتفاقه مع زوجته فهجرها قبل مجيئه الى لبنان . ولا يعرف شيء عن الظروف التي حدته على تبني الشاب الفرنسي مورل بك ، الذي عينه رئيساً للقلم الاجنبي بعد وصوله .

ويحكى ان هذا الشاب حاول استثمار نفوذه لدى رستم وان يكون له ما كان كوبليان لواصا، ولكن ذلك المتصرف الحازم عرف ان يقطع عليه الطريق ، ويردعه بشدة عن التوغل بعيداً في انحرافه ، ولذلك حادثة طريفة هي التالية :

تفصيل حادثة مورل بك

روى المرحوم ابراهيم الاسود في كتابه تاريخ الاذهان (الجزء الرابع صفحة ١١٩) هذه الحادثة قال : « من الادلة على حب رستم باشا للانفراد بالسلطة هو انه كان متبنّياً شاباً اسمه مورل بك، فلما عيّن متصرفاً عيّنه رئيساً للقلم الاجنبي ، وعيّن غطاس اللبكي كاتباً في القلم المذكور ، فحصلت صداقة متينة بين مورل بك وغطاس ادّت الى ترقية هذا الاخير الى رئاسة القلم العربي ، وهي ترقية صادفت محلها لان غطاساً كان مزداناً بحلية العلم والمعرفة الواسعة .

« وكان اذ ذاك الامير امين ابي اللمع المعروف بسمو مكانته رئيساً لمجلس الادارة، ولكن لم تكن له المنزلة التي كان يصبو اليها لدى رستم باشا ، لأن غطاساً لم يكن من مريديه بل من حزب نسيبه ومزاحمه على المنصب الامير يوسف علي ابي اللمع وكان يحمل مورل بك على الوقوف حاجزاً دون امانيه. واذ تحقق للامير امين ذلك اخذ ينتهز الفرصة للايقاع بمورل بك .

« وقد عرّف بعد التحري والبحث ان مورل بك كان يتقبل بواسطة غطاس هدايا قيّمة من بعض اصحاب الدعاوى كقطع اثرية وما شاكل وان البريد كان يحمل اليه

كل يوم عشرات الرسائل من مختلف الناس ، فوشى به الى رستم باشا قائلاً : ان مورل بك وغطاس اللبكي قد القيا عليك ظلاً كثيفاً ، واصبح مكتب مورل بك محطاً لرحال اللبنانيين ، ويخشى ان يكون سبباً لتسويد صحيفته ولكي نكون على بينة من ذلك كاف احد امنائك مراقبة اعماله ومُرْ مدير البريد بأن يأتيك يومياً بالرسائل التي ترد اليه .

« فاذعن المتصرف لهذا القول وكان سنتئذ مركز المتصرفية الشتوي في قرية حدث بيروت ، وكان مكتب رستم باشا في دار عبد الله الشدياق فيها ، فاتفق ان ذهبت اليه يوماً لاقدم له اوراقاً رسمية بصفة كوني رئيساً لدائرة قلم الجزاء الاستئنافية فوجدت عنده كثيرين من رؤساء الدوائر واقفين امامه يحملون اوراقهم ليقدموها له فوقفت معهم واذا برستم يلتفت الينا ويأمرنا بأن نظل في مواقفنا .

« ثم استدعى مورل بك وبحضوره فضّ ما كان لديه حينئذ من الرسائل التي كانت قد وردت اليه في البريد وبعد ان اطلع على ما تضمنته من المخاطبات استشاط غضباً عليه وشتمه وطرده من القاعة وحاول ضربه بمسطرة كانت امامه على المنضدة واخيراً اعلن امامنا استياءه من مورل بك وكان ذلك سبباً لايقافه عند حده ومنعه من التدخل مع الموظفين ومع اصحاب المصالح في غير المعاملات الرسميّة وعلى قاعدة الانصاف والعدالة وقد ادّى ذلك الى خمول ذكره وتفرق الناس من حوله لانهم عرفوا بفقدانه ما كان له من حظوة عند رستم باشا » .

فمن هذا الخبر يُعرف ان رستماً على مساوئه كان له كثير من الحسنات والمزايا .

حفاظه على كرامة اللبناني خارج لبنان

ومما يذكر عن رستم باشا بالشكر عن حفاظه على كرامة اللبناني خارج لبنان :

قيل انه حينما كان يوجّه بعض الموظفين اللبنانيين الى حلب لاستيفاء الخمسة آلاف كيس التي كانت الدولة تعهدت في البروتوكول الدولي الموضوع سنة ١٨٦٤ بادائها للحكومة اللبنانية لتغطية نفقاتها من مال تلك الولاية كان يصحبهم بجنود لبنانيين يحافظون على حياتهم وكرامتهم في ذهابهم وايابهم ، ويسهّلون لهم مهمتهم ، ويسلمهم الى الولاة من اصحابه كتابات يوصيهم فيها بهم خيراً ويطلب منهم السهر على راحتهم ، معلناً لهم ان اي مسّ ينالهم يعتبره كأنه ماساً بشخصه .

حادثة احمد آغا بكباشي الضبطية في بيروت

ومما يروى عنه من هذا النوع انـــه كان مرة قادماً من بيروت الى مركز الحكومة الشتوي في الحدث ، فصادف في طريقه بكباشياً من جيش الدولة عهد اليه في رئاسة الضبطيه في المدينة اسمه احمد آغا ، يكيل الشتائم للشيخ خطار حبيش من موظفي الحكومة في لبنان ، ومن احد بيوتاته الكريمة ، فثارت حفيظته لهذا المشهد ، وفي حال وصوله الى المكتب أمر بان تقام الدعوى على احمد آغا وارسل له ورقة جلب ، واذ لم يحضر شدّد في طلبه من ابراهيم باشا متصرف بيروت ، واغضى متصرف بيروت عن ارساله ، فأنهى رستم باشا الامر الى دمشق اذ كانت بيروت تابعة لها في ذلك الحين ، واذ رأى تلكؤاً من دمشق ابرق الى اسطنبول ، واذ ذاك صدرت الاوامر العليا بتسليم احمد آغا وكان مركز الحكومة يومئذ قد انتقل الى بتدين فسيق الآغا الى هناك وفحصت قضيته بأن استجوب مراراً وهو موقوف ، وحكم عليه بالسجن ثلاثة ايام ثم ترك وشأنه .

وقد فعل رستم باشا ذلك حفاظاً على كرامة اللبناني وحرمة موظفيه ، ومنع اية مطاولة عليهم .

رستم يحتل سراية بيروت

والحادث التالي اهم دليل على عصبية رستم وجرأته وعدله وغيرته على كرامة لبنان:

من اخبار المرحوم سليم باز ان شاباً من بيروت اسمه سليم الشامي ، كان تاجر ثلج صيفي يذخره ايام الشتاء في اقبية ظهر البيدر على عادة تلك الايام ليستغلّه في ايام الصيف .

وخطر له في احدى السنين أن يقضي أشهر الصيف في عين سعادة ، وهناك رأى ابنة جميلة غرّها بالمال فخطفها وهرب بها الى بيروت وسكنا معاً في محلة البسطة .

فقامت المنطقة وقعدت لهذا الحادث ولجأ اهل البنت الى المطران يوسف الدبس ، وهذا رفع الامر الى رستم باشا فكتب رستم الى متصرف بيروت مراراً يطلب اليه اعادة البنت المخطوفة الى اهلها ، ولكن المتصرف لم يأبه لطلبه واجاب انه لم يعثر للبنت على اثر .

وفي ذات يوم طلب رستم باشا سليم بك الطرابلسي ميرآلاي الجند اللبناني وأمره بان يجمع كل من عنده من جنود فرساناً ومشاة ، ويسير بهم الى بيروت ، واعطاه غلافاً

مختوماً لا يفضه الا بعد وصوله الى محلة قبر شمون وحين فتح الميرآلاي الكتاب وجد فيه امراً باحتلال دار الحكومة في بيروت الى ان يؤتى اليه بالبنت المذكورة والشاب معها.

فصدع القائد بالامر واحتل السراية التي كانت يومئذ الى جانب الجامع الكبير، واخذ يطلب طعاماً لجنوده وعلفاً لخيله وكان اولئك الجنود اكثر من ثلاثمئة بينهم مئة فارس ومعهم احصنتهم.

ولم يلبث الميرآلاي أن قابل المتصرف وافهمه بصراحة انه سيظل محتلاً السراية الى ان تسلم اليه البنت ومعها خاطفها سليم الشامي ايضاً، فما كان من المتصرف الا أن نزل على ارادة سليم بك وجاء اليه بالبنت مكتوفة اليدين. اما سليم الشامي فقد ربطوه بذيل حصان من خيول الفرسان، واقتادوه ماشياً الى بتدين وما ان وصلوها حتى خرج رستم هائجاً وانهال على الفريقين ضرباً بالكرباج وحبس سليم الشامي والفتاة الهاربة اعادها الى ابيها وقال له: «عليك ان تعتني بتربية بنتك!».

فاهتزت لهذا الحادث الاقطار الشامية برمتها واعتزّ اللبنانيون على جيرانهم كما كانوا يعتزون في ايامهم القديمة (تاريخ لبنان العام ص ٨٠٤).

رستم كان يريد الكمال في الموظف

ومما يروى عن رستم باشا انه كان يريد الكمال في موظفيه، فاذا رأى في احدهم اية هفوة انزل فيه عقاباً. قيل: «انه عزل مرةً كاتبين من محكمة الشوف لانهما وضعا ملفاً كبيراً لاحدى القضايا في غلاف صغير فحين فتحه واراد اعادة الملف اليه تمزّق».

«وانه اوقف مرةً بكباشياً عن العمل ثمانية اشهر لانه سمح لاحد الجناة بلثم يده، وكانت حجته في ذلك ان اليد التي تحمل الفرمان السلطاني لا يجوز ان تلمسها يد مجرم.» (لأن البكباشي كان يُعيَّن بفرمان).

والتقى مرة وهو آتٍ من بيته في بيروت الى الحدث بجندي لبناني في محلّة فرن الشباك لم يقف ويؤدي له التحية العسكريّة فامر بطرده.

وشاهد مرةً اخرى جندياً من فرقة الفرسان كان يعرفه ذاهباً الى بيروت بلباسه المدني ودون رخصة من رئيسه وفقاً لامر كان قد أصدره بهذا الشأن، فكان نصيبه الطرد بعد ان سجنه بضعة ايام.

عزله قاضياً لأنه رآه يأتي عملاً عده محقّراً للوظيفة

ومما روي عن رستم باشا انه مرة كان قادماً على عربته من بيروت الى مركز الحكومة الشتوي ، واذ بلغ مفرق الحازمية لمح رئيس محكمة المركز الذي كان يعرفه شخصياً يستوقف مكارياً بغّالا ويمتطي ظهر بغله فوق الحمل ، متجهاً عليه الى مكان وظيفته بعد ان نقده اجرته . فغضب المتصرف عليه لعدّه عمله معرّضاً اياه لازدراء المارة ، وقد يكون بينهم نفر من المتداعين الذين سيمثلون لديه في المحكمة بعد ساعات . وما هو ان بلغ مكتبه في المركز حتى اتخذ بعزل ذلك القاضي قراراً معلّلاً بكونه بعمله لم يقم وزناً لكرامته ، وعرّض القضاء للامتهان والحقارة .

قصة الحكم على رستم باشا

هي قصة تدعو الى الاستغراب لم يذكر مثلها عن اي حاكم آخر من حكام لبنان في مختلف عهوده ، فصلتها في كتابي «الشيخ بشاره الخوري الفقيه» (ص ١٥٦) فليراجعها فيه من شاء ، ولم يسعني هنا الا الاشارة اليها لاستيفاء وصف ما كان عليه هذا الرجل المترجم له رستم باشا الذي يدور عليه هذا البحث من فائق الاحترام للعدالة والقانون .

حين جاء رستم باشا لبنان كان الاقطاعيون من امراء ومشايخ لا يزال لهم شأنهم بين العامة فيه، حتى لقد كان بعضهم يرونهم فوق القانون فشاء رستم نزع ذلك الوهم من اذهان هؤلاء بالحادث التالي :

صفع رستم باشا ذات يوم سائق عربته مدّعياً بانه تأخر عن موعد ضربه له ، في حين لم يكن قد ضرب له اي موعد ، وغمره بالسباب والاهانات ، ثم امره امراً جازماً بان يذهب الى المحكمة ويقيم عليه دعوى بالضرب والاهانة ، ثم امر القاضي بان يحقق في الدعوى ويحكم فيها كما يحقق ويحكم في دعاوى سائر الناس وقصده من ذلك افهام اللبنانيين ان القانون لا يمكن ان يكبر عليه كبير اياً كان .

ولم يسع الجميع الا الاذعان لامره وسير بالدعوى في بتدين كما شاء المتصرّف... تمنّع المشكو عليه عن الحضور في الجلسة الاولى فجاء به جنديان في الجلسة الثانية ، وبعد استجوابه اقرّ بالاعتداء فحكم عليه القاضي بالتوقيف في مقره بالقصر ثماني واربعين ساعة وبدفع غرامة مالية للسائق المعتدى عليه قدرها خمس ليرات عثمانية ذهباً .

وفي الحال نفذ المتصرف الحكم في نفسه فنقد السائق المبلغ وانزوى في غرفته طوال

ثماني واربعين ساعة ، وأقيم على بابها جنديان يمنعان اياً كان من الدخول عليه الى ان انتهت مدة العقوبة .

هذه القصة على منوال آخر

وهناك من رووا هذا الحادث على نحو آخر من هذا قالوا :

« امر رستم باشا ذات يوم حاجبه بان يخبر الحوذي ان يأتي بالمركبة الساعة الثانية فلم يأتِ بها الا في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة .

« واذ راى الباشا ان الحوذي لم يتقيد بالموعد المضروب تناول سوطاً وانهال عليه بالضرب . وحاول الحوذي عبثاً ان يبرهن للباشا عن مجيئه في الاجل المعيَّن وان ساعة دولته مسبقة .

« وبعد ان دخل المتصرف داره وتأكد من ان ساعته غير مضبوطة ، وانه افترى على الحوذي ، ندم على ما بدر منه ، وأمره بان يشكوه الى المحكمة فأبى الحوذي ذلك ، ولكن المتصرف الحَّ عليه بصورة اضطرته الى الاذعان .

« واذ ترددت المحكمة في الامر هددها بالعزل والعقوبة . ومن ثم حكمت عليه كما اراد بالسجن ساعة في غرفته فدخلها وبقي فيها ساعة والخفير واقف على بابها كما لو كان واقفاً على باب السجن .

« ومهما يكن من امر فلباب القصة في الشكلين واحد . وكان هدف المتصرف منها نبيلاً معروفاً ولم يخفَ اللبنانيين ما اراده لهم فيه من امثولةٍ وعبرة » .

رستم باشا يشتري بندقية صياد

وهذا حادث آخر في تقديس رستم باشا للقانون وقع في بيت قنصل انكلترة في عاليه :

ذكر الرواة ان هذا المتصرف على اثر وصوله الى لبنان اصدر امرًا مشدَّدًا يمنع حمل السلاح واطلاق العيارات النارية في مختلف المناسبات، متوعداً المخالفين بعقوبات صارمة .

وحدث في فصل الصيف من تلك السنة ان دُعي المتصرف لتناول الغداء على مائدة قنصل انكلترة المصطاف في عاليه ، فقبل الدعوة واجتمع عند وصوله الى بيت القنصل جمهور كبير من الاهلين للترحيب به والحفاوة بمقدمه بالاهازيج على العادة الجارية عهدئذٍ في لبنان .

وكان يسكن في جوار بيت القنصل شاب ماهر في الصيد طلب اليه خدم البيت ان يصطاد لهم بضعة حجال لاعدادها بين الوان الطعام المعد للغداء فلبى الصياد الطلب واقتنص ما تيسّر له وعاد فسلم الطيور للخدم.

وفيما كان يهم بالعودة وصل المتصرف بموكبه الحافل والقوم محتشدون لاستقباله فاندس الصياد ما بينهم ينظر الى الاحتفال وفي كتفه بندقيته. وحانت من المتصرف التفاتة اليه فلمح البندقية في كتفه فأمر بضبطها منه ونُفّذ الامر دون ابطاء.

واتصل الخبر بالخدم فابلغوا القنصل انهم هم الذين سألوا الشاب اصطياد الطيور للوليمة وطلبوا منه التوسط لدى المتصرف في ان تعاد اليه بندقيته، ونزل القنصل عند رغبة خدمه ولم يلبث ان كلّم المتصرف بشأنها، وكانت النتيجة ان استدعى المتصرف الشاب اليه وسأله: «كم هو ثمن بندقيتك»؟ اجاب: «خمس عشرة ليرة عثمانية ذهباً» بينا كان ثمنها الصحيح لا يزيد عن بضع ليرات، فمدّ الباشا في الحال يده الى جيبه ونقده ما طلب كمالاً وتماماً وبقيت البندقية مضبوطة فذهب الرجل مسروراً وسُرَّ لسروره القنصل ومن في بيته من المستقبلين والاتباع، لما رأوه في بادرة المتصرف من تعويض على الصياد ارضاهم وارضاه، ومن صيانةٍ للاوامر التي كان قد اصدرها ولم يكن من المناسب لكرامته ان يكون هو باعادته البندقية اول العاملين على نقضها.

وظل اللبنانيون عهداً طويلاً يذكرون ذلك الحادث ويتندرون به متخذين منه امثولة في وجوب احترام الحاكم للقانون كما يفرض احترامه على المحكوم سواء بسواء.

بونجور مسيو رستم

وروى الدكتور شاكر الخوري في كتابه «مجمع المسرات» (ص ٣١٣) عن رستم باشا الحادث التالي الذي رأينا ذكره على سبيل التفكهة ولانه يكشف اللثام عن بعض اطوار هذا الرجل الفذ قال الدكتور:

كانت امرأة ارملة قبيحة الوجه جداً شائبة الشعر سمراء اللون سمرة غامقة، في وجهها آثار جدري، نحيفة الجسم غليظة الروح، فيها كل الصفات المستكرهة التي تنفّر الانسان منها، ولها ولد شقي وقع في يد الحكومة لانه تخاصم مع صاحب مقهى في الحازمية واستطال عليه بالضرب.

فاتت ذات يوم الى مركز الحكومة (في الحدث) ترجو من أحد المأمورين التوسط لدى اولياء الامر للافراج عن ولدها فنصحها الرجل بان تقدم استدعاء لدولته وان تحضر معها فتاة تعرف الفرنسية فتكلمه بشأن ولدها مسترحمةً الصفح عنه .

وكانت لهذه الارملة جارة تلقت علومها بمدرسة اليتامى في اللعازرية . ولا تعرف من الفرنسية الا النزر اليسير ، فوق جهلها العبارات المصطلح عليها من هذه اللغة في مخاطبة ذوي الشأن . فاستكتبت الاستدعاء احد منظمي العرائض ، واستصحبت الفتاة الى الحدث ، ووقفتا امام دار الحكومة في بيت عبد الله الشدياق ، حتى وصلت عربة دولته ، ونزل هو منها فتقدَّمت منه الجارة مسلّمة عليه بالفرنسية كما تسلم على مثيل لها قائلة له : « بونجور مسيو رستم » فلمّا سمع هذا القول والتفت ورأى قباحة منظر رفيقتها أخذ منه الغضب كل مأخذ ، ومزَّق العريضة وامر بطرد المرأتين ظانّاً انهما قصدتا تحقيره بذلك السلام .

ولما عادت والدة الغلام سألها الذي اشار عليها بتقديم العريضة عما كانت النتيجة فاخبرته عما جرى دامعة العين ... اما هو فلم يقوَ على ضبط نفسه من الضحك ولامها على انتقائها فتاة من هذا النوع لمخاطبة الباشا .

حديقة وجسر بجوار الحازمية

ولم يكن لرستم أسرة يروح معها عن نفسه في اوقات فراغه ، فأنشأ له حديقة بجوار الحازمية على ضفة جدول صغير وجعلها مجتمعاً للناس رجالاً ونساء من الطبقة العالية ، وكان يبعث اليها عصارى كل يوم احد بموسيقى الدرك اللبناني لتشنيف آذان المجتمعين بالحانها الشجية . وقد أمر بألا يؤذن بالدخول اليها الا لمن يأتون باللباس اللائق وعلى الخصوص من غير لابسي القنابيز . واذ لم يكن هناك من جسر على النهر أمر بان يبنى جسر على نفقة الحكومة بلغت نفقاته في تلك الايام خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهباً . واكثر من كان يجالسهم هناك شلة من السيدات الجميلات في مقدمتهن زوجة صديقه عبد الله باشا الانكليزي ومن السادة المعروفين بالوجاهة والثروة .

ويبدو ان تلك الحديقة كانت ملكاً خاصاً للباشا ، لأنه عند انتهاء مدته وتأهبه لمغادرة لبنان وهبها مع ملحقاتها لصديقته زوجة عبد الله باشا ، وكان الاجدر به تركها للحكومة اللبنانية التي كانت تدفع من خزانتها كل اجور متعهديها وتكاليف العناية بها والمحافظة عليها .

انشاءات رستم باشا

وانهمك رستم باشا في لبنان بشؤون الامن والعدل ومحاربة الرشوة وصيانة كرامة لبنان وتوطيد سلطته ومحاربة خصومه ولم يلتفت الا قليلاً لمسائل الانشاء والتعليم والتعمير والانماء الاقتصادي والزراعي . ومع ذلك فقد قال عنه ابراهيم الاسود انه قام حول هذه المواضيع بالاعمال الآتية :

اولاً : انشأ ٧٢ مدرسة حكوميّة في امهات القرى فاستمرت عـدة سنين تنشر العلوم والمعارف بين فتيان تلك القرى وفتياتها .

ثانياً : اقام جسوراً عديدة على الانهار اهمها الجسر المعروف باسمه « جسر الباشا » فوق نهر المخّاضة على مقربة من الحازمية ، وكان بقنطرة واحدة كبيرة وقد كتب عليه اسمه والتاريخ الذي بني فيه وقد جرفت الامطار هذا الجسر بعد ان اعطى اسمه المنطقة المحيطة به التي ما زالت تعرف حتى اليوم باسم « محلة جسر الباشا » .

ثالثاً : مدّ في لبنان في اثناء متصرفيته ستين الف متر من طرق العربات .

رابعاً : انشأ كثيراً من المخافر توطيداً للراحة وتأميناً لابناء السبيل .

فرار محبوسين من سجن بتدين

وفي اواخر نيسان من سنة ١٨٧٦ نقب بعض المحبوسين في سجن بتدين حائطين من حيطان السجن وفيما كانوا يقومون ليلاً بالهرب انتبه لهم الخفراء وكان سبعة منهم قد قفزوا من فوق السور الخارجي فكسر احدهم رجله واستمر في مكانه فاعتقل واعتقل معه اثنان من الاخرين ونجا الاربعة . وقد تأثر رستم باشا أبلغ تأثر لهذا الحادث يقع في ايامـه وامر بتعقب الفارين وحرّر الى القائمقامين بوجوب البحث عنهم في كل مكان ، والمساعدة على اعتقالهم . اما الخفراء فطرد البكباشي رئيسهم مع اثنين من معاونيه وقضى بوضع الآخرين في السجن في مكان الذين لجأوا الى الفرار وبترميم الجدران المنقوبة وبتعيين خفراء جدد يبالغون في الانتباه ويتعظون بالذين سبقوهم .

بناء سجن جديد

وقد حفز الحادث السابق رستم باشا الى شراء دار الامير خليل غير البعيدة عن القصر وتحويلها الى سجن قويّ الاركان بعد ان عهد الى المهندسَين السيدَين يوسف الياس ولويس لورانزلو في وضع تصاميمه . وقد زيدت بعد حين على هذا السجن اصلاحات

جديدة جعلته من المنعة والمتانة بمكان رفيع ، حتى لقد اتخذته الحكومة الحاضرة من عهد الانتداب قلعةً لايواء السجناء المحكوم عليهم بالمؤبّد او بآجال طويلة الامد .

اجمال حسنات رستم وسيئاته

قلنا : وقد كانت لرستم باشا حسناته وسيّآته مما نحن مجملوه في الكلمة التالية :

من حسناته ما استشفّهُ القارئ الذكي من خلال ما قدمناه : الحزم . الترصُّن . الحفاظ على حرمة القانون . الاهتمام الجدّي بصون حقوق لبنان . منع اي تطاول على كرامة اللبناني خارج لبنان حتى اصبح اللبنانيون في عهده اينما ذهبوا منظوراً اليهم بلاحظة الاحترام . ومما عرف عنه عفّةُ اليد فلم يسمع قط عنه انه قبل رشوةً من اي انسان طوال المدة التي صرفها في لبنان كما انه قطع دابر الرشوة في دوائر الحكومة فلم يسمع قط بوقوع اي حادث من نوعها في ايامه .

ومن اخص سيئاته :

وازاء هذه الحسنات كانت له مساوئ منها حدة المزاج ، وسرعة الغضب ، ومعاملة موظفيه بقسوة على اقل هفوة والتمادي في الحقد والاثرة وحب التسلط والخروج في العقوبة عن حد الاعتدال الى ما يجعلها انتقاماً ، وحين جاء لبنان كان مجرّداً عن الحزبيات والاغراض ، ولكنه بعد ان اقام فيه الى ان اختلف مع المطران بطرس البستاني اختلافه المشهور ، الذي سنعنى بتفصيله في هذه الترجمة ، انغمس في الحزبية الى ما فوق اذنيه ، وكان يكفي ان يقال له ان فلاناً من حزب المطران او ممن لهم بالمطران اية علاقة ، ليبادر حالا الى الانتقام منه ، اما بالعزل ان كان موظفاً ، واما باقامة دعوى خنفشارية عليه ، ان كان غير موظف .

يروى ان واشياً نقل اليه مرةً ان في جبيل رجلاً يجاهر بتشيعه للمطران ويقوم بتختيم العرائض ضد الباشا ، فارسل اليه حالاً فرقة من الدرك يقودها الضابط ملحم بك ابو شقرا اعتقلته بتهمة مختلقة هي تهريب البارود وجرته الى المركز المتصرفي فتحمل بتلك التهمة الجائرة خسائر جسيمة وعذابات فادحة اليمة في حين هو بريء لا ذنبَ له الا حبّه للمطران .

سيدة لبنانية تغلق بابها في وجهه

ومما اطال الالسن عليه تلك الاجتماعات التي ذكرنا سابقاً انه كان يتسامح بعقدها تحت رعايته في الحديقة التي انشأها بجوار الحازمية ، وكانت تضم فريقاً من السيدات اللواتي كن يحطن به ويتدللن عليه مفسحات المجال للقال والقيل بحقه .

وحدث ان تلك الاجتماعات عرفته الى سيدة لبنانية امتازت بجمالها وآدابها وعلو مقامها ، فأخذ يزورها في منزلها مظهرًا الاعجاب بمواهبها ، فكانت هي لا تحدثه الا بمنتهى الرصانة والحشمة ، اخيرًا وقد رأته يكثر الترداد عليها فلئلا تثار حولها الظنون اخذت تقابله ببرودة ثم أمرت خدامها اخيرًا باقفال الباب في وجهه حين يفد بعد القول له « ان الست غير موجودة » .

وقد كان لعملها ذاك دوي بعيد ولا سيما عند خصومه الذين جسّموه بما رشّوا عليه من الفلفل والبهار ، وابلغوه الى الباب العالي متخذين منه وسيلة لتسويد صحيفته والمطالبة بعدم التجديد له بعد نهاية مدته .

رستم باشا مجموعة متناقضات

تلك حسنات رستم وسيئاته التي جعلت منه مجموعة متناقضات ، لقد كان من جهةٍ مثال النزاهة ومضاء العزيمة والذكاء والغيرة على لبنان واخلاق بنيه، فانه مثلاً الى جانبِ ما كان يجري في حديقته ، أصدر بلاغاً الى القائمقامين في ايار سنة ١٨٧٤ أمر فيه بمنع اختلاط الرجال بالنساء في معامل الحرير وبردع الفتيات اللبنانيات عن الذهاب للشغل في معامل الحرير الكائنة في بيروت ، لما كان فيها عهدئذٍ من خطر على آدابهن وعاداتهن القروية الطاهرة ، ولئلا اذا عدن الى قراهن ينشرن فيها الفَساد الذي يكن قد اكتسبنه في اقامتهن بعيدات عن اهلهن .

ومن جهة ثانية كان يلام على استسلامه للحدة والنزق والرهبة والبطش وانتقامه ممن يخاصمه ، والى التدخل اخيرًا في شؤون القضاء من مثل عفوه عمن تذنّبهم المحاكم ، وسجنه من تعلن براءتهم ، وتسرّعه احياناً في فصل الامور بدافع الميل دون ما تروٍّ ولا تمحيص ، على ان حسناته ، مهما قيل فيه ، كانت ترجح على سيّآته . ولولا خلافه مع المطران وتصلبه في نفيه وحصول ما ادّى اليه ذلك الحادث من شجون لكان خير حاكم عرفه لبنان في ذلك العهد .

رستم باشا والمطران بطرس البستاني

اما وقد اسهبنا الكلام في من كان رستم باشا فيدعونا مقتضى الحال وتكامل الموضوع الى نشر ما تصل اليه يدنا من ترجمة المطران بطرس البستاني ، وذكر اوصافه ومميزاته اشباعاً للبحث واطلاعاً للقراء على ما كان كلا الرجلين مع تفصيل للخلاف الذي وقع بينهما وقد وعدنا بحسر اللثام عنه ، لأنه كاد يكون اهم حدث بين احداث لبنان في عهد رستم ، بل بين احداث العهد المتصرفي بطوله .

رجل لبنان الاوحد

لقد كان المطران بطرس البستاني، بشهادة رستم باشا خصمه ، رجل لبنان الاوحد الكامل الرجولة . وهذه الشهادة اداها رستم بعد مغادرته لبنان وقد سئل ذات يوم عمن عرفهم من رجالات لبنان فقال : « ليس في لبنان الا رجل ونصف رجل » قيل له : « ومن هما » ؟ قال : « الرجل هو المطران بطرس البستاني ، ونصف الرجل هو الامير مصطفى ارسلان » .

وقد شاعت كلمته تلك في البلاد ، وما زال اكثر اللبنانيين يتناقلونها عن لسانه حتى اليوم .

حارس النظام

ومن اخص ما اتصف به المطران بطرس الجرأة والاباء والتجرد وصدق الوطنية وحبه للنزاهة والعدل . وكان في كرسيه الى جانب المركز الحكومي للبنان بمثابة حارس للنظام ، ومنبّه للمسؤولين الى مجانبة كل تجاوز على الحق ، ومخالفة لمصلحة الوطن ، فيأتمر الجميع بأمره ، ولا يردون له طلباً . وقد سعى بما كان له من نفوذ ادبي في منع المظالم عن كثيرين ، ومن ثم اصبح مقصداً لكل مظلوم ، ومهرعاً للبنانيين جميعاً ، ينزلون في ساحه مستجيرين به لصون حقوقهم وحفظ ما لبلادهم من امتيازات .

ولعل ذلك الخلاف ذرَّ قرنه بينه وبين رستم بسبب ما كان يأتيه هذا بنزقه وحدة طباعه من مغايرات نبّهه اليها المطران فلم يجد منه الا اعراضاً ، ومن ثم اخذ الخلاف بينهما يكبر ويتفاقم ، الى ان وصل الى ما وصل اليه من جسامة .

مولده ونشأته

والمطران بطرس البستاني من بساتنة الدبية ، ابن الخوري يوسف نادر شقيق المطران عبد الله البستاني . أبصر النور فيها في ٢٩ كانون الاول من سنة ١٨١٩ ودُعي شبلي ومن ثمّ نشأ في بيئة المكارم والنبل والفضيلة والتقوى ، وحصَّل في مدرسة القرية مبادئ العربية والسريانية والخط والحساب بنباهة اتصلت بعمه المطران عبد الله البستانيّ سلفه في مطرانية صور وصيدا ، فاستدعاه اليه وأدخله في مدرسة كان قد انشأها في مشموشة لتثقيف ناشئة الابرشية .

الكاهن

وبعد سنتين اظهر فيهما شبلي تفوّقاً في التحصيل أدخله المطران عبد الله مدرسة عين ورقة احسن واشهر مدارس لبنان في ذلك الحين ، فأتقن فيها اللغات العربية والسريانية واللاتينية والايطالية والمنطق واللاهوت والفلسفة والحق القانوني وعلمي الشرع والفرائض، وفي سنة ١٨٤٢ رُقّي الى درجة الكهنوت باسم بطرس وأقيم استاذًا اول لمدرسة مشموشة. واتصل خبره بالبطريرك بولس مسعد فاستدعاه اليه واتخذه اميناً لاسرار البطريركية من سنة ١٨٤٥ حتى السنة ١٨٥٦ ، وقد اكسبه هذا المركز خبرةً واسعة وعرّفه الى كثيرين من رجالات البلاد ، وجعل الناس يلهجون بالثناء على جميل اوصافه .

المطران

وحين ناهز المطران عبد الله الثمانين طلب من البطريرك الخوري بطرس ليعاونه في تدبير شؤون ابرشيته الواسعة ، ثم سعى في رسامته مطراناً على عكا في ٢٨ ايلول من سنة ١٨٥٦ وأفرد له قسماً من الابرشية يهتمّ به ، ثم بعد بضع سنين امعن فيه الهرم فتخلّى له عن الابرشية كلها على أن يسوسها بالوكالة ، وبعد وفاته سنة ١٨٦٦ اصبح لها المطران الشرعي ونشط الى خدمتها بكل ما أوتيه من سمو مدارك وعلو همة ومضاء عزيمة .

وكانت باكورة اعماله نقل كرسي الابرشية من حيث كان في محله القديم وهو المكان المعروف حتى اليوم بالانطش ، في بتدين ، الى الدار التي كانت مصيفاً للامير بشير شهابي الكبير المعروفة بالمقصّف ، بعد ان اشتراها بماله الخاص ورممها على شكل زادها رونقاً ووفر فيها اسباب المتعة والراحة .

ثم اشترى من السيدة حسنجهان ارملة الامير القناة الموصلة الماء من عين زحلته الى بتدين ، واقتنى بعد ذلك املاكاً واسعة وعني بتجديدها فأصبح ريعها يقوم بحاجات الكرسي .

واقام في بتدين مدرسة لتعليم اولاد الابرشية عيّن لادارتها رفيقه في مدرسة عين ورقة الخوري يعقوب الحاصباني ، وكان من طلبتها الدكتور شاكر الخوري والخوري يوسف البستاني كاتم اسرار المطران يوسف الدبس الشهيران .

سفره الى رومة وباريس والاستانة

وفي سنة ١٨٦٧ سافر البطريرك بولس مسعد الى رومية وباريس والاستانة فاستصحبه معه وحظي برفقته بمقابلة البابا بيوس التاسع ، والامبراطور نابليون الثالث ، والسلطان عبد العزيز ، ولقي لديهم كل رعاية ، وانعم عليه السلطان بالوسام المجيدي من الصنف الثالث .

وفي سنة ١٨٧٠ عقد في رومية مجمع عام للبحث في تحديد العصمة فوجهت اليه البطريركية المارونية وفداً يمثل الطائفة عهدت برئاسته الى المطران بطرس ، وهناك بعد ان حضر جميع جلسات المجمع مشمولاً برعاية خاصة بين اساقفة الشرق والغرب ، قابل الحبر الاعظم ولقي لديه كل اكرام .

مقامه الرفيع في لبنان

ومضى المطران بطرس في حياته الاسقفية يؤاسي الارامل والايتام ، ويحسن الى البؤساء ، ويصالح المتضاغنين ، ويهتمّ بكل ما فيه خير مواطنيه دون اي فارق بين طائفة واخرى ، فكان دينهُ له ولربه ، اما مساعيه الخيرية فكانت لكل اللبنانيين على السواء ، متحملاً في سبيل خدمتهم المشاقّ ، وبذلك علقت به القلوب وارتفع مقامه في الاذهان ، واجمعت على حبه واحترامه الملل اللبنانية على اختلاف مذاهبها ، حتى روي عن الشيخ محمد الحوت عين الامة الاسلامية في زمانه انه قال : « لو كان عندنا عشرة في لبنان من امثال المطران بطرس لعاش اللبنانيون جميعهم في امان وهناء » وهي كلمة حق ما يزال يردّدها كل من عرف ذلك الاسقف الجليل حتى اليوم .

وكانت اخص مزايا المطران الصدق والصراحة فكان اذا قال قولا وثق الناس بقوله وثوقهم بالآيات البينات ، لا يعرف الرثاء ولا المحاباة ولا المداورة ، وكان امدّ الناس ساعداً

الى الضعيف الحال الكسير الجناح ، وله من وجه آخر نفس شماء لا تصبر على جور ، ولا تتهيب كبيرًا ، ولا تخشى حاكماً او اميرًا .

الخلاف بينه وبين رستم باشا

هذا هو الرجل الذي استعداه رستم باشا والهاه استعداؤه اياه عن القيام بخدمة لبنان على وجه مثالي كان ينتظر من حاكم مثله مزدان بكثير من المؤهلات .

ومما يؤسف له ان ذلك الاستعداء كان منشأ لخلاف مرير ، ابتدأ بين الرجلين الكبيرين ، وبعد ان استفحل امتدّ من كلّ منهما الى من له من جماهير الانصار والمؤيدين ، حتى كاد يعمّ لبنان باسره ويثير فيه ضجة من الاضطراب والقلق بعيدة الصدى ، كادت تجعل جانباً كبيرًا من عهد رستم عهدًا مليئاً بالتحديات والمخاصمات والفتن لم يجن منه هذا الوطن الا الخسائر والاضرار .

من اسباب ذلك الخلاف

ولا شيء يجلو حقيقة ذلك الخلاف الذي شجر بين رستم باشا والمطران كالآثار الخطية الباقية من ذلك العهد اخصها منشورات الصحف وفيها صور العرائض التي رفعها الخصوم الى المراجع العليا وقد ضمنوها كل ما كانوا يقرّفونه به من اخطاء .

وقفنا على الكثير من هذه المنشورات في مجموعات الصحف الصادرة في ذلك العهد كالبشير والجنة وحديقة الاخبار وثمرات الفنون ولسان الحال والجوائب فرأيناها خير اداة يسبر بها غور الموضوع رغم ان رأيها في الخلاف كان متبايناً تباين مذاهب اصحابها ونزعاتهم الحزبية ، فان حديقة الاخبار كانت مثلاً بتأثير اسكندر بك التويني الترجمان الاول للمتصرفية تؤيد الباشا وتدافع عنه وتنحت من اثلة معارضيه وتصوّرهم بصورة المفسدين المتحاملين على الساطة ، فيما كان غيرها بوسائل اخرى يؤيد جانبهم وينحي باللائمة على الحكومة . وهذا يشعرنا بان بلادنا كانت امس كما هي اليوم تفرقها المنازع الطائفية والاهواء الحزبية والنفعية وتفسد عليها كل حركة اصلاح وتمنعها من اجماع الكلمة على امر لها فيه خير وصلاح . وبذلك قد اضاعت عليها في مراحل التاريخ فرصاً ثمينة للارتقاء والازدهار يصعب تعويضها .

اجتماعات وعرائض

بدأ هذا الخلاف بين رستم ومعارضيه يذرّ قرنه حيال السنة الثالثة بعد وصوله وظلّ يتفاقم الى ان استهلّت السنة الخامسة له وهي ١٨٧٨ وفيها تنتهي الدورة الاولى لمنصبه. وكان خصومه ينتظرون هذا الموعد ليرفعوا عليه الشكاوى الى المراجع العليا. علّ هذه تستبدله بسواه فتريحهم منه وتخلص البلاد مما كانت تتخبط فيه من توتر .

ومن ثم جمعوا صفوفهم ووضعوا عرائض ضمنوها شكاياتهم وجعلوا كلاً منها باسم منطقة من المناطق وكلفوا ثقاتهم من الاهلين الطواف بها على القرى وتذييلها بالاختام او التواقيع . وقد كانت الاختام في تلك الايام اكثر استعمالاً بسبب غالبية الاميين .

ولم يلبث جواسيس رستم ان طيروا اليه خبر العرائض فاصدر امره باعتقال حامليها وضبطها منهم . وقد جرّ بعضهم الى السجون .

ومن ثم رُئي ايكال تلك المهمة الى بعض الكهنة لان نظام لبنان الاساسي خصّهم بالحصانة من ملاحقة الحكام واناط مسؤولياتهم برؤسائهم الروحيين وكان بين هؤلاء كاهن قريتنا رويسة النعمان المرحوم الخوري مارون سعاده تلميذ عين ورقة والوكيل الاسقفي زمناً في المنطقة على ايام المطران يوسف الدبس والمعروف بجرأته وهيكله الجبّاري والمرحوم الخوري ابراهيم كيوان كاهن رعية الفريديس القريبة من الباروك المعروف « براعي الحصان » وكاهن آخر من عين زحلتا وآخر من جزين غاب عني اسماهما .

لجنة ديرية

وتألفت لجنة من دير القمر جعلت مركز اقامتها واعمالها بيروت لادارة تلك الحركة ومنها شاب اسمه شاكر زيدان افرام البستاني فاخذت تتصل بالقناصل وترفع العرائض الى مراجعها ولكن رستم باشا تمكن من اعتقال اعضاء هذه اللجنة واقتادهم اولاً الى الحدث مركز الحكومة الشتوي ثم الى بتدين المركز الصيفي وطلب من المجلس محاكمتهم ولكنهم برئوا واطلق سراحهم .

اما الكهنة فكان رستم باشا يرغي ويزبد عليهم وقد اعلن مراراً رغبته في اصدار الاوامر باحضارهم احياء او امواتاً ، ولكن معاونيه حذّروه من مغبّة ذلك واشاروا عليه بشكايتهم الى البطريرك بولس مسعد واتهامهم بتعكير الامن ، ففعل واستدعى البطريرك الكهنة الى بكركي واستوقفهم هناك اسبوعاً ثم تركوا وشأنهم .

صور من عرائض الجانبين :

وقد حان لنا بعد هذه المقدمة ان ننشر صوراً من تلك المنشورات التي كان يذيعها صحفيو ذلك العصر كما كانت ترسل اليهم من الجانبين المتنازعين ، وان نعلق عليها الضروري من الشروح تقريباً لما نراه منها بعيد المنال ، ملتزمين ازاء ذلك التجرد التام عن التحيّز الى هذا او ذاك ، وحصر الاهتمام فقط في كشف النقاب عن الحقيقة التاريخية .

قالت جريدة الجنة لصاحبها المرحوم سليم بطرس البستاني ، في اواسط ايار من سنة ١٨٧٨ تحت عنوان :

عريضة مديريتي الشوفين

« علمنا مما كتب الينا ان الطوائف المسيحية من مديريتي الشوفين في لبنان كتبوا عرضحالات ضد رستم باشا باسم دولتنا العلية والدول الخمس ضمنوها تشكيات تشابه التي ذكرنا ، في جنات ماضية ، ان اهالي لبنان قد قاموا بها وهذا اهم ما تضمنته من الامور غير الشخصية :

« ١ — يفرغ دولة المتصرف جهده في نزع قوة نظامات لبنان وتقييد حرية المجالس وصرف المهمولات في سبل يدعون انها غير لازمة مع انها كانت تطرح من مال لبنان .

« ٢ — نقل المركز من محل الى محل مع فقر الجبل والابتعاد عن المركز الاصلي الذي نشأ عنه قلق في العام الماضي واخراج بعض العساكر اللبنانية الى خارج لبنان وصرفه ثمانية اشهر في بيروت وقد بلغنا ايضاً ان هذا العرضحال تقدم الى محلاته وان فيه ١٥٠ ختماً » .

عرائض مديريات العرقوب

« وقد بلغنا ايضاً ان اهالي العرقوب قد ختموا عرضحالات باسم فخامة الوكيل الاول والدول المشتركة بوضع نظام لبنان وارسلوها مع معتمدين الى بيروت ليصير تقديمها الى محلاتها ولم نقف على تلك العرضحالات ولكننا سمعنا ان فيها اختام اكثر المختارين وشيوخ قرى العرقوب وبعض الوجوه من الطوائف المسيحية .

« وقد سمعنا ان اهم تلك التشكيات متعلق بما يدعيه اصحاب الاختام وخلاصته :

« ١ – اخلال دولة المتصرف بنظام لبنان الاصلي مثلاً قد قالوا ان مال الماعز وغيره المعروف بالمهمولات من العادة ان يطرح من السبعة آلاف كيس ثم يوزع المال على اصحاب الاملاك بمعرفة مجلس الادارة لئلا يحمّل الجبل اكثر من ماله المربوط الذي تضاعف دفعة واحدة للقيام بادارته الحالية وانه في المدة المتأخرة لم يجر ذلك بل صرفه فضلاً عن المال المربوط .

« ٢ – مخالفته للنظام الذي لا ذكر فيه لدائرة حقوقية ودائرة جنائية ومع ذلك قسم مجلس المحاكمة الى الدائرتين المذكورتين لزيادة المصاريف » .

عرائض المواد العشر

وبالعموم قسم الشاكون تشكياتهم الى عشر مواد هي هذه :

« ١ : تغيير مجلس المحاكمة الكبير اسماً وهيئةً فنشأ عن ذلك زيادة في المصاريف.

« ٢ : تغيير اكثر الاعضاء العارفين ووضع غيرهم في مكانهم وذلك لاجل ارهاب الجدد لازدياد التسلط عليهم .

« ٣ : ضبط حرية المجالس وعدم اجراء شيء بدون ان يعرض على المتصرف قبل التسوية فيحدث فيه المتصرف التغييرات التي يرومها ثم يرده على مجلسه لتبييضه وختمه.

« ٤ : ابطال محامي الدعاوى المعينين في نظام لبنان ومنع توكيل الرجال العارفين بالشرائع في الدعاوى فنشأ عن ذلك ضياع الحقوق حتى البسيطة .

« ٥ : منع استماع بعض دعاوى بدون معرفة المجالس والمحاكم وصدور امره باستماع دعاوى بعد ان يكون قد صدر حكم بها وجرت احكامها وفاتت مدة استئنافها واطلاق المسجونين بحكم وسجن الناس بدون حكم .

« ٦ : ان الاجراءات ناشئة عن غايات .

« ٧ : اهانة الذين يكرههم وايقاع الخسارة عليهم .

« ٨ : القذف بالغير واهانة المأمورين واهالي لبنان عموماً .

« ٩ : القاء الفتن بين الطوائف .

« ١٠ : تهمات شخصية متعددة متنوعة رأينا اغفال ذكرها ... »

تكثير عرضحالات الشكر

« وقد بلغنا ايضاً ان الدروز من الحزب اليزبكي جادون بكتابة عرضحالات يشكرون فيها رستم باشا . وقد وعدت غزير بنصيب من المركز سنوياً على ان تكتب هي ومجاورها عرضحالات تشكر . كما ان الهمة مبذولة لتكثير مثل هذه العرضحالات » (ملخص عن جريدة « الجنة » التي كانت تصدر في ذلك الحين عدد ٨٠٦ وما قبله) .

عريضة باسم القناصل

وقد وزعت نسخ عديدة من هذه العرائض ذات المواد العشر على القرى ، وبعد توقيعها رفعت الى الصدارة العظمى وسفراء الدول الست الضامنة نظام لبنان في عاصمة السلطنة وخُصّت ست عرائض غيرها بقناصل هذه الدول الستة الموجودين في بيروت وهذا ما جاء فيها :

الى القنصلية العامة ... الفخيمة

المعروض : لا بد ان سعادتكم صرتم عالمين بالحالة السيئة التي نحن فيها من جراء تصرفات دولة متصرفنا رستم باشا . فانه متصرف بنا باستبداد غير مراع للشرائع والنظام الذي تكرمت به دولتنا العلية ودولتكم الفخيمة . وقد وصل به الامر الى امساك حرية المجلس حتى اصبح لديه نظير مكتب . ولا بد طرق مسامعكم انه قد عزل من مدة دائرتين كاملتين دون محاكمة او اثبات ذنب مهم على احد ، ليمكن العبودية لارادته في من خلفهم . وكثيراً ما يظهر التغرض لقوم دون آخرين . ويجتهد في قسمة الطوائف على بعضها . وقد اخذ ولا يزال آخذاً في مشروعات مكلفة للبلاد ، ولا نفع منها في الاحوال الحاضرة الضيقة . وقد تعاطى في مال مهمولات الجبل على ايثاره مع انها كانت تحسم من اصل ميري الجبل وحسمها في هذه الاحوال الزم من الماضي . ولا يخفى على نيرتكم لهوه عن اشغال مأموريته بتركها اياماً وهو مقيم في بيروت . ومنا تشكيات اخرى لا يسعنا الامر تفصيلها ... ولذلك نحن مكلفون البعض منا بتقديم عريضتنا هذه لسعادتكم وايضاح حقيقة الواقع بكاملها راجين من معاليكم قبول تشكياتنا وابلاغها الى دولتكم الفخيمة للنظر في حالتنا السيئة لئلا نضطر الى ازعاج سرّ دولتنا العلية ودولتكم الفخيمة مع وجودنا في تمام السكينة والخضوع والممنونية لتفضلات دولتنا العلية من اجل

ما سُنّ لنا من النظام الذي يريد دولته ان يعدمنا لذة التمتع به وذلك بسيئاته المملوءة اخطاراً واضراراً وجعله ايانا بحالة استعباد مزخرف. والامر لحضرتكم افندم».

«في ١٠ ايار ١٨٧٨»

تعليقاتنا على ما تقدم

فالحاصل من هذه النصوص ان المعارضين لرستم كانوا يشكون من امور اهمها «امساك حرية المجالس» وكلمة «المجالس» تستدعي ايضاحاً لانها كانت تشمل في اول عهده:

اولاً ــ المجلس الاداري

كان يؤلف من اثني عشر عضواً ينتخبهم شيوخ الصلح عن الطوائف والاقضية ليكونوا الى جانب المتصرف في قاعدة الحكم وقد أسندت الى هذا المجلس ثلاث صفات:

١ صفة الوزارة اذ كان ينفذ الشرائع ويمنح الامتيازات ويحدث المشروعات ويضرب الضرائب ويسيطر على المالية.

٢ صفة مجلس النواب لان اعضاءه كانت تنتخبهم الامة بانابة مشايخ الصلح عنها.

٣ مجلس الشورى لان النظام كان يقضي باستشارته في الامور الادارية.

ولكن المتصرف سيطر عليه وجعله كجثة مسجاة لا حياة فيها ولا يرجى منها نفع.

ثانياً ــ مجلس القضاء

هو مجلس المحاكمة الكبير أُنشئ في المركز المتصرفي للفصل في الجنايات والمخالفات وقد كان يؤلف من ستة قضاة بينهم المتصرف على اساس طائفي ويلحق بهم ستة من وكلاء الدعاوى بحسبان واحد لكل طائفة.

ثالثاً ــ مجالس فرعية من نوعه في الاقضية:

كان كل منها يؤلف من قاضٍ وعضو ينصبهما المتصرف ومن ستة وكلاء دعاوى يعين كل منهم من طائفة من طوائف الجبل الست: الموارنة. الدروز. الروم الارثوذكس. الروم الكاثوليك. السنيين. الشيعيين.

هذه المجالس الغاها رستم باشا وعزل موظفيها برمتهم وشكل بدلاً منها في مركز الحكومة دائرتين الواحدة للجزاء والاخرى للحقوق، كل منها مؤلف من رئيس وستة اعضاء،

وفي كل من مراكز الاقضية دائرة واحدة ذات رئيس وعضوين ، وجاء الى هذه الدوائر بموظفين جدد بعد ان سرح وكلاء الدعاوى الى بيوتهم وبذلك ارتكب مخالفة لأهم بنود النظام وجعل للحكام الاداريين نفوذًا وسلطاناً على المحاكم ازالا استقلالها وحريتها ، وقطع ارزاق القضاة والمحامين المسرحين ، ولم يكن هؤلاء ممن يستهان بهم . ونرجح انهم هم الذين اثاروا الخواطر عليه ونظموا تلك الحركة ضده خصوصاً لانهم كانوا اعرف من غيرهم من مواضع الضعف فيه .

مال المهمولات

اما مال المهمولات فهو المال الذي كان يجبى رسوماً غير مقررة مثل رسوم الماعز والاغنام والصيد وضريبة الطرق والارض المعروفة بالبكاليك وعوائد شركة حصر التبغ والتنباك ،فكان المجلس الاداري قبل رستم باشا يطرح مجموع هذه الرسوم سنوياً من الضريبة المحددة المطروحة على الاهلين وقيمتها سبعة آلاف كيس ، والكيس خمسمئة غرش فيخف عبئها عنهم . ولا يخفى انهم كانوا عهدئذٍ بحالة الفقر المدقع ، فلما جاء رستم امر باستيفاء المال المحدد برمته من الاهالي وجعل ينفقّ مال المهمولات على ايثاره في وجوه لا فائدة منها ، فكان ذلك مما ادّى الى تكثير خصومه .

لتنقل المركز واقامة المتصرف في بيروت

وكان رستم باشا ينقل مركز الحكومة في الشتاء تارة الى بعبدا وطوراً الى الحدث . وفكر مرة بنقله الى جونيه او غزير وهذا الانتقال كل سنة مرتين للاصطياف والاشتاء كان يحمل الموظفين وفريقاً من الاهالي خسائر باهظة فضلاً عن صرفه الموظفين زمناً عن الاهتمام بالشؤون العامة الى ما يؤمن راحتهم في المسكن الجديد الذي ينتقلون اليه ، وهكذا كان اللبنانيون يؤثرون لو اتخذت الحكومة مراكز ثابتة لاقامتها ولكن انتسخ ذلك الامل لما اقيمت سراي بعبدا في عهدي واصا ونعوم وجعلت مركزًا شتوياً رسمياً لدوائر الحكومة.

اما اقامة المتصرف في بيروت فقد كانت من الغرابة بمكان اذ لم يسمع ان حاكم بلاد يقيم في ارض غير تابعة لحكومته . وقد ظل اللبنانيون زمناً طويلاً يحتجون على ذلك وكانت حجتهم ان وجود المتصرف بين قوم غير لبنانيين يبعد ذهنه في شيء كثير عن مصلحة لبنان بتأثير المحيط فيه ، مهما كان بعيد النظر قوي الارادة .

الدفاع عن رستم

اما موظفو رستم وقد كان لهم انصارهم فلم يلبثوا ان هبّوا للدفاع عنه بعرائض مقابلة رفعوها الى المراجع العليا وامتدحوا فيها اجراءاته وبذلك انقسم اللبنانيون على انفسهم شأنهم في اكثر اعمالهم لذلك لم تثمر تلك الحركة الا القلاقل والاضرار .

ومما نشره هؤلاء في الصحف دفاعاً عن رستم مقال في « ثمرات الفنون » هذا ما جاء فيه :

«كنا ترددنا في التعرض للامور الجارية بين صاحب الدولة رستم باشا متصرف لبنان الافخم وبين اهالي دير القمر (؟) وترجح عندنا السكوت على ذلك مع التأسف مما حصل حتى رأينا في عدد ٨٠٦ من الجنة نشر شيء بذلك الموضوع يشتمل على عشر مواد انتقدوها على دولة المتصرف نرى بعضه محاسن لدولته وبعضه غير صحيح بحسب ما علمنا من اخبار الجبل الذي هو غير بعيد عنا . فرأينا ان نبدي بعض ملاحظات لذلك اظهاراً للحق وان كان مرًا في ذوق كثيرين ، لاعتراض مرضى الاغراض الذين لا يستطيبون الطعم مهما كان لذيذاً .

« ان ما صنعه الباشا بجعل مجلس المحاكمة الكبير دائرتين للحقوق والجنايات وجعل كل دائرة مستقلة باحكامها اولى مما كان في مدة سلفه من جعل مجلس الجنايات غير مستقل باعماله ، بل كان بهيئة مستنطقين لا غير ، مما لم يكن به كبير فائـــدة مع اهمية الجنايات وكثرتها ، فلا جرم ان ذلك العمل كان مستحقاً للمدح والثناء .

«اما تبديل بعض اعضاء المجلس بغيرهم ، فلكثرة التشكي على المبدلين بعضهم بمخالفة الاكثرية في كثير من المواد ، بناء على التعصب والتصحّب مما يُعدّ انكاره لشهرته وتواتره محض مكابرة فجرى ذلك التبديل طبق المطلوب الحسن اذا لم نقل انه واجب .

« ومن ذلك دعوى التسلط على المجالس والاطلاع على تسويد المضابط فانه دليل التيقظ والاهتمام بقضايا الاهالي حتى لا يراعي الاعضاء خاطر احد ولا يحسن ان يكون المأمور الاول أمّعةً تحت سلطة بعض اعضاء المجالس مما يضيع به كثير من الحقوق.

« اما ابطال هيئة المحامين فهو عين الصواب اذ لم يكن فيهم شيء من الفائدة الا لانفسهم باخذ المعاش وهم في بيوتهم وقد جعلوا الوكالة تجارةً لربحهم واضاعة الحقوق فان كثيرين منهم يقلبون الحقائق بالتقارير الكاذبة ويخترعون صوراً تزويرية لابطال الحق

بالدفع الى ما لا نهاية له ، مما سال من شره السيل وصب على العالم البلاء والويل . وهكذا ان ما اجراه دولة المتصرف بهذا الخصوص قد اثنى عليه الحاضر والبادي وهو من الحسنات بمكان .

« اما نسبة اجراءاته الى الغايات فلا نظن وقوعها اذ لا غاية له الا اجراء الامور في محورها ووقوف كل انسان عند حدّه والمساواة بين الامير والفلاح خلافاً لما كان يجري عليه اسلافه .

« اما ما قيل عن انه يهين من يكرهه ، ويوقع به الخسارة ، ويحتقر المأمورين خصوصاً واهالي جبل لبنان عموماً ، ويلقي الفتن بين الطوائف ، عدا التهمات الشخصية المتنوعة ، فان جميع هذه المواد لا نظن وقوعها من دولة المتصرف المتيقظ لمأموريته القائم باعبائها بنفسه غير مراعٍ خاطر احد لا يكون في جهة الحق غير ان ارضاء الجميع يتعذر .

« ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبه »

مثال آخر من عرائض الشكر

وهذا مثال آخر من عرائض الشكر التي رفعها انصار رستم باشا الى المراجع الايجابيّة ، ممتدحين فيها اعماله . والعريضة هذه قدّمها موقعوها من اهالي مديرية القاطع في المتن ، وعلى نحوهم درج آخرون من مختلف المديريات :

« معروض العبودية الى جانب مقام ولي ملتنا الباب العالي دامت له المفاخر والمعالي .

« يعرض هؤلاء العبيد اننا اذ نحن متمتعون بالراحة والسكينة والتآلف في ظل ظليل الحضرة السلطانية ايد الله اقتدارها وبعناية واهتمام حضرة صاحب الدولة متصرفنا المفخّم ، أخذ بعض اشخاص ممن اعتادوا القاء الفتن يوسوسون في صدور من يرون فيه الانقياد لاغوائهم ، فحملوا عريضة تشكي يقصدون بها تنفيذ مطامع واغراض خصوصيّة على أنهم قد افكوا بها ، قصد التنديد بدولة المتصرف المشار اليه ، الذي قام باعباء امورنا منذ تولّى المتصرفية حتى الآن ، عاملاً بالعزم والحزم ، صارفاً قصارى الجهد في كل ما فيه راحة ورفاهية الاهلين ، وأجرى الامور على محورها الصحيح ضمن دائرة

الشريعة والعدل ، وفقاً للرضى العالي ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، حتى صارت شهرة عدله اوضح من أن تتبين .

« ولما كان صنيع هؤلاء المرجفين مع قلة عددهم مما لا يجمل السكوت عنه ، لئلا ننسب الى نكران الجميل وجحد الاحسان ، فقد تجاسرنا على تقديم عرض حال عبوديتنا هذا ، رافضين بموجبه كل ما اتوا به من الازعام التي بالواقع لم يكن ادنى برهان على صحتها ، بل هي مخالفة للحقيقة والصواب . مع اننا نحن عبيدكم اللبنانيين معترفون بما لدولة متصرفنا المشار اليه من المآثر الحسنى وما له من الاهتمام والسعي في انجاح اعمالنا ، والاهتمام بامورنا ، واجراء مصالحنا على محور العدل والانصاف ، الامور التي لا توافق مشرب اصحاب الاغراض الخصوصية الذين من دأبهم الفتن والقلاقل وحب المداخلات .

« وحيث ان عملهم هذا يخدّش وجه السكينة العامة ، ويشوش راحة الجمهور ، ويعطي سبيلاً لمقاومة الحكومة ، تجاسرنا ببسط عريضة العبودية التي نصرّح بها بصدق امتناننا لدولة متصرفنا المشار اليه ، منكرين بموجبها على اولئك الاشخاص ما سوّلته لهم اميالهم ومطامعهم المضادة لرأي الجمهور والصوت العام اللاهج بجميل الثناء على عدالة وحقانية ومساعي دولته الحسنة التي مهّدت لنا سبيل العمران والتقدم .

«هذا ما ينطق به لسان حال عبيدكم ، سائلين الله سبحانه وتعالى ان يؤيد ويخلد سرير السلطنة الشاهانية مدى الدوران ، ويحفظ شريف وجود ذاتكم الفخيمة للدوام .

وبكل الاحوال الامر والفرمان لمن له الامر افندم .

التواقيع :

«حنا شمعا — الياس سمعان شمعا — خليل يوسف شمعا — يوسف الخوري جرجس — قبلان ابو خالد — فارس نصر شمعا — جبرائيل زلزل — عبد الله يزبك — سليمان عبد الله معتوق — عبد الله معتوق — درويش الياس الحبشي — الياس حاتم بو حاتم »

« اهالي مديرية القاطع
من قضاء المتن التابعة متصرفية لبنان »

فمن هذه الشكايات والردود عليها يستخلص القارئ صورةً لحالة انقسام لبنان في ذلك العصر والاسباب التي ادت الى الخلاف بين الباشا والمطران مما يمكن ان نأخذ عنه درساً مفيداً في ايامنا هذه .

ذلك الخلاف في مرويات الحويك

وللاستزادة من جلاء ذلك الخلاف الذي كان لهُ صداه البعيد رأيت أن أضيف الى ما قدمت بعض ما دونه الخوري ابراهيم حرفوش بشأنه في كتابه «ترجمة الحويك» (ابتداء من صفحة ٧٦ الى صفحة ١١٧) وذلك نقلاً عن روايات هذا البطريرك الكبير الذي كان شاهد عيان لتلك الحوادث واضطر الى معالجتها بنفسه لأنه كان في ابّانها كاهناً في شرخ الشباب ومن بعض امناء السر المعتمد عليهم للبطريرك بولس مسعد في بكركي، وعلى ذلك يمكن عدّه مصدر ثقة لكل ما جرى بذلك الشأن، تستقى منه أخبارُهُ على آكد حال واصح منوال، قال بشأن ذلك الخلاف:

«كان رستم باشا في بدء امره على اتم وفاق مع البطريركية. وفي سنة ١٨٧٤ جاء يقضي فصل الشتاء في غزير فوفد عليه البطريرك مسعد زائرًا بصحبة المطارنة الحاج والمريض والبستاني والدبس، فاستقبلهم بالترحاب، ودعا بالقهوة فشربوا، ثم نهض الباشا ودخل غرفته ثم خرج يحمل غليوناً قدمه هديةً للدبس وهو يقول: «ان لي اثنين من المطارين احدهما للشتاء وهو سيادة الدبس، والآخر للصيف وهو سيادة البستاني».

تحول الحب الى بغض

وتابع الخوري ابراهيم الكلام قال: «وبعد ان مر سنتان ونيف على هذا الحادث، تغيرت الحال وتعكرت كاس الولاء بين الباشا والمطرانين، وتحوّل ما كان بينهما من حب الى بغض، ومن صداقة الى عداوة، وكان من اخص اسباب هذا التحول:

«١ً — كان البستاني والدبس من انصار يوسف بك كرم ويعملان على ارجاعه الى لبنان، وكان رستم من الدّ خصومه، ولا يتردّد عن الاساءة الى كل من كان يظنه من مريديه.

«٢ً — وجاءت حادثة الرهبان البلديين المشهور امرها سنة ١٨٧٤ عاملاً على ابعاد شقة الجفاء بين رستم والمطرانين، وذلك على اثر زيارة قام بها الباشا لشمالي لبنان وحلّ ذات يوم في دار اسعد بك كرم في اهدن، وهناك قيل له ان خلافاً وقع بين الرهبان السابق ذكرهم على اثر مجمع شقّهم حزبين، وابى الحزب الخاسر الخضوع للحزب الفائز، فاستدعى رستم اليه فريقاً من الخاسرين من دير قزحيا وعنّفهم على تمرّدهم بكلام جارح، وهدّدهم، فثاروا عليه، وضربوه بزنانيرهم الجلدية، وعندئذٍ استدعى فرقةً من الجند اعتقلتهم جميعاً وساقتهم مكبلين بالحديد الى سجن بتدين وهم بملابسهم

الرهبانية ، واتصل ذلك بالمطرانين فطلبا من الباشا تحويلهم الى المحكمة البطريركية عملاً بالمادة ١٧ من بروتوكول لبنان ، حتى اذا حكمت عليهم ينفذ فيهم مآل الحكم ويعرّون من الملابس الاكليريكية فابى الباشا استجابة طلبهما وشدّد في اعنات الرهبان المسجونين ، وقد اشار بضربهم تحقيراً مما كان له أسوأ اثر في المطرانين وفي كثيرين من الغيارى على كرامة الطائفة ورجال دينها .

« ٣ً – حاول الباشا ادخال ضريبة الطوابع الى لبنان فكان المطرانان وفئة كبيرة من انصارهما في مقدمة من وقفوا في وجهه وحالوا دون تنفيذ ما حاوله حفاظاً على مصلحة اللبنانيين وبروتوكول لبنان .

البستاني والدبس يعملان معاً على عزل المتصرف

وفي الترجمة نفسها (ص ٧٦) تصريح للخوري الياس الحويك (البطريرك بعدئذ) حول تصميم المطرانين البستاني والدبس على العمل معاً لعزل رستم باشا مما جاء فيه :

« في ذات يوم وفد المطران الدبس على البطريرك بولس مسعد وهو في مدرسة عين ورقة يودعه لمناسبة انتقاله الى الديمان ، وبعد ان قابله في خلوة ، دخل عليَّ في غرفتي وجعل يقصّ علي اخبار خلافه والبستاني مع الباشا ، وأن هذا الخلاف وصل الى حد ضاق له صدراهما وعيل صبراهما عن احتماله ، وانهما قررا اخيراً اثارة الخواطر عليه والسعي في عزله وقايةً للبلاد من شره ، الى ان قال :

« ولكني ارى الباشا معززَ الجانب يسنده في اسطنبول الصدر الاعظم علي باشا ، ووزير الخارجية فؤاد باشا ، ويعضده في بيروت قنصلا فرنسة وانكلترة والقاصد الرسولي (لودوڤيكس بيافي) .. قلت : « يا صاحب السيادة اذا كان الحال على هذا المنوال فانت والبستاني من يضافركما وعلى من تستندان ؟ » قال بلهجة من يجسّ نبضاً : « على البطريرك » .

اجبت : « انا واثق ان البطريرك ان لم يكن عليكما فلن يكون معكما ، لأنه مضطرّ بحكم منصبه الى مراعاة ذوي المقامات الرسمية والباشا منهم » .

واستطرد الدبس : « ووراءنا الطائفة » .

قلت : « وما الطائفة يا سيدي ؟! اتظن ان بوقرياقس وبوقبريانس يعملان لكما مصلحة وتظفران منهما باية فائدة ؟ »

وتابع الحويك كلامه قائلاً : « ثم انهلت عليه باللوم وانذرته بسوء المصير وبما سيحلّ به وبالبستاني من ارزاء فيما اذا بقيا مصرّين على عنادهما » .

ولكن المطران لم يزدد الاّ اغتراراً بما له وللبستاني من نفوذ وسيطرة .

ثم قام من عندي فقابل المطران يوحنا الحاج (البطريرك بعدئذٍ) في مقره بسيدة الحقلة وكاشفه بما ينويه فنهاه عن هذه المجازفة ولكنه لم يقتنع وخرج من لدنه وهو مصرّ على رأيه في محاربة الباشا .

البستاني والدبس يعودان الى بكركي

ويواصل الحويك تصريحاته بهذا الشأن لمؤلف ترجمته الخوري ابراهيم حرفوش . وهذا ما جاء منها في الصفحة ٧٨ :

وبقيت الحال كذلك الى السنة المقبلة حين اتى البستاني والدبس بكركي في اسبوع المرفع ، وكنت يومئذٍ متغيباً ازورُ أهلي ، ولما عدت قصّ عليَّ البطريرك (مسعد) ما كان منه ومنهما من شدة استيائهما من الباشا ، وانهما قد وطّدا النفس على عزله من منصبه ، ولكن البطريرك استنكر خطتهما وقال لهما : « لا ارضى هذا الامر ولا هو من رأيي وقد عرفتم كراهتي له في الظروف الحاضرة » .

ومما قاله لهما بالحرف : « انا لا اخاف على الدبس لانه قريب مني فأجيرُهُ وحولَه قناصل يلجأ اليهم فيعينوه ، ولكن قلبي على البستاني لأنه مفرد في كرسيه » . فأجابه البستاني فوراً : « انا آمن منه » يريد موقفي آمن من موقف الدبس ، فخُيّل الى البطريرك أنه قال : « انا آمن منك » اي من البطريرك فساءته العبارة فأضمرها واسرّها في نفسه وسكت .

شكوى المطرانين

وغادر المطرانان بكركي لا يلويان عن عزمهما ، وكتب الدبس عريضةً رفعها الى الصدارة العظمى ينال فيها من رستم قائلاً : « انه تمادى في الظلم والغشم والسير بغير حق » ووقعها البستاني ، واغابيوس مطران بيروت الملكي ، ويوسف جعجع مطران قبرس، بعد ان زاره الدبس والح عليه بتوقيعها . اما الصدارة فعلى ما يغلب الظن قد اعادت الى رستم تلك العريضة التي كانت سبباً في زيادة امتعاضه واذكاء جذوة الكره في قلبه ، ولا سيما للبستاني المقيم على مقربةٍ منه .

شكوى رستم

ولم يقف رستم مكتوف اليدين بل بادر الى رفع عريضة الى الاستانه يتهم فيها المطرانين باقلاق الراحة والعمل على اثارة الخواطر بين الدروز والنصارى واعادة عهد الـ ١٨٦٠ ، وان المطران بطرس يملأ كرسيه بالاسلحة لاجل تلك الغاية ، وكانت الشكوى بالعربية والتركية محررة بخط اسكندر الحداد وعند السيد داود ذيب نعمة من دير القمر نسخة منها بشهادة المرحوم مخايل عيد البستاني المعروف بصدقه[1] .

عرائض الاهلين ومكافحة منظميها

ورأى رستم ان عرائض الشكوى منه يكاد يتوالى وصولها يومياً من اكثر انحاء لبنان الى الوكيل الاول اي رئيس مجلس الادارة ، والى قناصل الدول وسفرائها والصدارة العظمى ، وكان منظمو تلك العرائض والساعون في تختيمها ورفعها الى المراجع العليا فريق من اعيان البلاد المناصرين للمطرانين يتقدمهم عدد ممن اشرنا اليهم سابقاً من الكهنة فهبَّ رستم لمكافحتهم ، وأصدر امراً باعتقال المدنيين منهم فاعتقلوا وسجنوا بعد نزع العرائض منهم. اما الكهنة الذين كان يحميهم النظام فقد كان يكتفي بالشكوى عليهم الى السيد البطريرك متهماً اياهم بالفساد واقلاق الامن والراحة

تبرئة المطرانين

وكما وجد رستم من يدافع عنه ويبرئه مما قُرِّف به ، كذلك قام من اللبنانيين من يكتب الى الجوائب مدافعاً عن الاسقفين مؤيداً براءتهما ، من ذلك رسالة مؤرخة في ٥ جمادى الاخرى من سنة ١٢٩٥ هـ (عدد ٩٣٠) هذا اهم ما جاء فيها :

« ان الحالة التي يتخبط فيها لبنان لم يكن سببها المطرانان الدبس والبستاني ، ولكن المتصرف الذي لم يحسن التنظيمات ، وهو ما يحملني على القول انه لو كان للمتصرف

---

(١) حاشية : لخصت ترجمة الحويك اسباب ذلك الخلاف بالامور التالية :

١ – كان البستاني والدبس وجمجع وفريفر يعملون على إعادة يوسف بك كرم الى لبنان فلما رأى ان مساعي كرم واصحابه قد اخفقت في الاستانة عمد الى الاساءة الى كل من كان يظنه من انصار كرم والمطارين في مقدمتهم .

٢ – جاءت حادثة الرهبان البلديين المقدم ذكرها سبباً في ازدياد الفتور بين رستم والمطارين .

٣ – محاولة الباشا إدخال ضريبة الطوابع الى لبنان .

٤ – شكواه على البستاني انه ملأ كرسيه بالأسلحة لاجل إثارة الفتنة بين النصارى والدروز .

دراية في احوال الجبل ومعرفة اطوار اهله لكان امكنه ازالة ما وقع وادامة صلة الائتلاف بينهما وبينه .

« ان المطرانين الدبس والبستاني من خيرة الاساقفة فضيلةً وعلماً ووطنيةً ، فلا يمكن ان يكونا سبباً في الخلاف القائم مع رجل كرستم عرف بحدته وقسوة طباعه ... ولعلهما جاءاه بنصيحةٍ ابى قبولها واسمعهما ما أبعدهما عن مجلسه وكان ما كان من امر ذلك الخلاف » .

اخيراً يسدّد رستم باشا ضربته

اخيرًا اخذ رستم باشا يستدعي اليه اعوانه ويعقد معهم الجلسات السرية يبحثون فيها عن الدواء الناجع لكبت تلك الحملة عليه ، وبعد تقليب مختلف الآراء قرروا السعي لدى الصدارة العظمى والسفراء والقناصل في ابعاد المطرانين البستاني والدبس ثم آثروا الاقتصار على ابعاد البستاني وحده مؤكدين للباشا ان ضربة البستاني تكفي وحدها للقضاء على تلك الحركة القائمة ضده القضاء المبرم .

قنصل فرنسة ضد المطران بطرس

ومن ثم أخذ رستم يطوف على القناصل ويبين لهم ان الحركة في لبنان مصدرها بعض الاساقفة الرامين الى خلق البلبلة في الصفوف طمعاً بان يؤدي ذلك الى استعادة يوسف بك كرم من منفاه ، وتسليمه ازمة الحكم . وقد كان المسيو تريكو قنصل فرنسة عهدئذ في بيروت من اشد خصوم كرم ، فوثق بما قيل له وانحاز الى جانب الباشا وزاده نفوراً من المطران بطرس أنه قدم مرةً الى بتدين لزيارة الباشا فلم يشترك المطران في استقباله، ولا نزل للسلام عليه ، وفي هذا قال مكاتب الجوائب في لبنان :

« في خلال هذا الخلاف بين الباشا والمطران سار قنصل فرنسة الى بتدين فلم يتوجه المطران بطرس لزيارته ، فظن القنصل ان ذلك يهين شرفه وشرف دولته وسكان فرنسة اجمعين ، فمن ذلك اليوم جعل القنصل هذا الامر سبباً لخراب السياسة التي اسستها فرنسة في لبنان منذ زمن طويل » .

وكان قد جاء في مقدمة للجريدة على رسالة مكاتب الجوائب اللبناني هذه ، الكلام التالي :

فليعلم متصرف لبنان : انه مهما كان بينه وبين قنصل فرنسة في بيروت من الصلة لقضاء مآربه الخصوصية ، فان نفوذ فرنسة الآن وتدخلها في امور الشرق قد تقلصا

وفاتها تلك الحمية التي كانت تستفزها للمحاماة عن المسيحيين الكاثوليك في سورية ولبنان . اما ما كان من قنصل فرنسة هذه المرة فانه يدل على انه يحسب فرنسة الآن كما كانت قبل حوادث سنة ١٨٧١ ، لانه هاج على بعض رؤساء الموارنة بغير سبب موجب ، وخصوصاً على المطران بطرس البستاني ، لانه لما ذهب الى بتدين في شهر سبتمبر من السنة الماضية لم يتوجه المطران لزيارته ، فكأنه حقد عليه ورقمه لذلك في دفتر الجناة الذين يستوجبون الانتقام ، ولكن من درس مسلك عمال فرنسة في الخارج ولا سيما في بيروت وتونس فلا يستغرب ما عمله عاملها في بيروت ، فان جميع عمالها تعلموا في مدرسة واحدة من كتاب واحد . وفي الجملة فان احوال الجبل صارت الآن محفوفة بالخطر » .

وبعد ان رأى رستم باشا ان قنصل فرنسة السند الاقوى لاساقفة الموارنة اصبح في جانبه ، راح ينشد اناشيد الظفر ، ولم يلبث ان استمال اليه قنصل انكلترة المستر ألدردج. وقد جاء في جريدة الجنة الصادرة في اول جمادى الاخرى من سنة ١٢٩٥ :

« ان المستر ألدردج هذا سافر الى الشوف وجزين واتصل ببعض اعيان الدروز ثم اجتمع الى بعض المعارضين من النصارى وطلب منهم الكف عن تقديم العرائض فلم يذعنوا له . وقد نسب تصلبهم في ذلك الى اغراءات مطرانهم» لعمري ان هذا الاستنتاج فاسد .

وبعد عودة القنصل الى بيروت وموافقته على نفي المطران ، كتب في ذلك الى سفيره ، وتقول الجوائب : « انه فعل ذلك ارضاء للدروز من خصوم المطران » . وحذا القناصل الاربعة الاخرون حذو قنصلي فرنسة وانكلترة وكتبوا في ذلك الى سفرائهم ايضاً.

حادثة تريكو في ترجمة الحويك

وذكرت حادثة تريكو وما نجم عنها ترجمة الحويك في الصفحة ٧٩ وما بعدها قالت:

« وزاد الطين بلة اعراض البستاني عن زيارة القنصل الفرنسي المدعو تريكو لدن جاء ذات يوم بتدين لزيارة الباشا ، وبعد عودة القنصل أبرق الى البطريرك بما معناه : « اتيت بتدين فلم يحفل بي البستاني فاصارحكم باني قطعت معه كل علاقة رسميّة وشبه رسميّة » .

وبعد مدة امّ تريكو باريس مستخلفاً في بيروت المسيو غيز مدة غيابه ، وهناك عمل ما في وسعه لحمل الوزارة الخارجية على الاقتناع بوجوب ابعاد البستاني عن لبنان ،

وكتبت الوزارة الى سفيرها في الاستانة بهذا الشأن ، فجاء السفير الصدارة العظمى مرغياً مزبداً طالباً اقصاء البستاني عن لبنان ، قائلاً : « انه لا يتحمل تبعة ما يحدث ان لم يتداركوا الامر » فاوغر بذلك صدر وزير الخارجية التركي، وللحال اصدر امراً برقياً الى رستم باشا بوجوب نفي المطران .

موقف البطريرك والمطارين

واتم رستم باشا مساعيه هذه تحت طي الكتمان الشديد ، على ان الخبر لم يلبث ان تسرب الى بعض المطارين فعقدوا اجتماعاً في بكركي اقروا فيه شن حملة على المتصرف، ومناصرة المطران بطرس ، ولكن البطريرك بولس مسعد رأى غير رأيهم وجزم بوجوب مسالمة المتصرف ومناصرته على الاصلاح ، ولم يصدق ان هناك سعياً في نفي المطران يوافق عليه قنصل فرنسة .

وما ان تفرق المطارين حتى جاء بكركي اسكندر بك التويني والياس ابي زينون موفدين من رستم باشا بمهمة « تداولتها الالسن كثيراً وكثرت حولها الاشاعات ولم تعرف حقيقتها ، ولكنها لا تخرج عن مسألة العرائض والمطران » وكان البطريرك يتلقى كل مدة رسالة من مسيو تريكو يطلب اليه فيها ارجاع المطران بطرس عن سياسة العرائض ، فيكتب في ذلك الى المطران وهذا ينفض يده من تلك السياسة ، قائلاً : « ان الاهلين هم الذين ينظمونها فلم يستحسن هو منعهم عنها كما انه لم يفكر في اغرائهم عليها » .

على ان الباشا ظل يلحف بدفع القنصل والقنصل يلحف بمكاتبة البطريرك الى ان اقعده عن مناصرة المطران كما صرح بذلك مراسل الجوائب قال :

« كان قنصل فرنسة يقول للبطريرك لا يليق بمقام فرنسة ان يخالف الموارنة سياستها ما دامت فرنسة نائمة ، وبذلك اقعده عن السعي الجدي في مساعدة المطران والحؤول دون الافتئات عليه » .

وقال في مكان آخر من الرسالة نفسها :

« ابدى البطريرك اعراضاً عن مساندة المطرانين البستاني والدبس .

«اولاً : مراعاة لخاطر القنصل الذي كان يطلب من المطران تأييد الباشا في اعماله، ولكنه لم يفعل .

« ثانياً : اشفاقاً من عودة يوسف بك كرم .

« ثالثاً : لانه من صدر الخلاف وقف من المطارين موقفاً معارضاً وكان يحث الناس على شكر دولة المتصرف ، بدلاً من اجتهاده على الاقل في التأليف بين المتنافرين. والدليل على ان فعله هذا لم يوافق ظروف الحال تجديد اهل لبنان الجنوبي شكواهم ، فعاملهم المتصرف بالجبر والشدة وبجن مشايخ قراهم ووافق البطريرك وقنصل فرنسة على تلك الاعمال المنكرة » .

وقد عقد البطريرك والمطارين اجتماعاً آخر في بكركي لدرس تلك الاحداث على ضوء المصلحة العامة ، ولما درى الاهلون باجتماعهم قدموا لهم عريضة يلقون فيها : « مسؤولية العواقب على المتسبب » اي رستم باشا ومن ناصروه » .

وظل البطريرك مجاراةً لقنصل فرنسة يقف في وجه المطارين المستائين من الحالة، وازاء تساهله واصرار رستم تقدمت كتابات الى اسطنبول بوجوب نفي المطران بطرس موافقاً عليها من القناصل ومرفقة برسالة من البطريرك الارثوذكسي « يمتدح فيها عدالة المتصرف وامتنان الناس من نزاهته » في حين ان واقع الحال كان يبين بداهةً ان الممتنين في البلاد لم يكونوا الا الموظفين واهل بيوتهم ، وبعض اصحاب الغايات والمآرب ولا سيما من اعداء الموارنة وحسادهم . وما هو ان مرت ايام حتى ورد الجواب بالموافقة موقعاً من جلالة السلطان نفسه ، فاشعر به للحال قنصل فرنسة وطلب منه ان يفاوض في امره البطريرك الماروني، كيما يكون تنفيذه عن يده ، ولكن البطريرك ما كان لينتظر مثل هذه المباغتة ، ولم يلبث ان اظهر انكاره لامر لم يكن يتصور وقوعه فوجه للحال رسولاً الى المطران بطرس يخبره بالامر ، ويطلب منه الحضور الى بكركي دون امهال لتلافي امر النفي ، ولكن المطران كان يعلم ان العيون مبثوثة حوله ، فآثر البقاء في كرسيه ، مسلماً امره الى الله ، واجاب البطريرك : « بانه سيذهب الى بكركي حين تسمح له الفرصة » .

كانت غاية البطريرك من دعوة المطران الى بكركي وضعه في حرز حريز تعجز عن الوصول اليه جنود رستم ، ولكن دعوته تلك جاءت متأخرة ، وكان ابعاد المطران بطرس في عهده نقطة سوداء في تاريخه تؤذن بتردده وغمض عينيه عما يجري حوله، حتى لقد اخذه رستم باشا على حين غرة .

اما قنصل فرنسة فلم يتضح له غلطه وخروجه على تقاليد دولته الا بعد ان قضي الامر وتوالت عليه كتب اللوم من رؤسائه واصدقاء فرنسة الخلص .

للائمة جندي يحيطون بكرسي المطران

وفي يوم الجمعة ٣١ ايار من السنة ١٨٧٨ وصل الامر البرقي من اسطنبول، يصدع بنفي سيادة المطران بطرس الى القدس الشريف، فتلقاه رستم باشا بارتياح، وصمم على تنفيذه فوراً. وكان قنصل فرنسة قد عرف بالامر قبل وصوله، وقد شاء ان يتلافى ما ارتكبه من الغلط بمجاراة رستم فيه، فجعل يسعى في ان يكون التنفيذ على يد البطريركية المارونية كما كان يقضي بذلك نظام لبنان في نصّه عن عقاب الاكليروس من رؤسائهم فيما اذا اتوا ذنباً، وكاتب في ذلك البطريرك والمتصرف، ولكن البطريرك قعد عن عمل الواجب تردداً وعجزاً، اما المتصرف فقد صمم على ان يكون التنفيذ بواسطة الجند شفاء لغلة حقده ومجاراةً لما كان ينزع اليه من ارهاب خصومه واتيانهم ببرهان جديد على قوته وبطشه.

وما ان غابت شمس ذلك النهار، حتى صدرت اوامر الباشا الى «عزتلو سليم بك الطرابلسي اميرآلاي بك جندرمة لبنان وعزتلو موناسترسكي بك قومندان الدراغون» بان يذهبا الى بتدين ويطوقا كرسي المطران بقوةٍ كافيةٍ من الجند ويقوما بانفاذ امر النفي بكل احتياط ودقة.

امر الباب العالي على الرأس والعين

وفيما كان ذلك الاسقف القديس المتقد غيرةً على اتيان ما فيه الخير لرعيته ووطنه نائماً خليّ البال في فراشه، بين قبضة من اتباعه لا حول لها ولا طول، كان نحو ١٤٠ دركياً من الرجالة اللبنانيين، و ١٥٠ من فرسان الدراغون، كاملي العدة والعدد، يحيطون بكرسيه، وقد اتخذوا لهم المتاريس وارتسمت امامهم من ضمائرهم اشباح ترعبهم وتجعلهم يحسبون للامر الف حساب. وها نحن نترك لجريدة الجنة الصادرة على اثر ذلك الحادث ان تصفهُ لنا نقلاً عن لسان شاهد عيان قالت:

« استيقظ احد الموجودين في الكرسي باكراً فرأى بعض جنود الدراغون ورجال الجندرمة اللبنانيين منتشرين في الخارج، فظنّ في بادئ الامر انهم جاءوا ذلك المكان لغرضٍ لا علاقة له بالمطران، واتجه الى الباب الخارجي المفتوح فرأى كثيرين منهم حوله، فسأل ضابطاً عن سبب احاطتهم بالمكان فقال: « اننا آتون بطلب المطران » فخاف الرجل وقال: « ليس هو هنا فقد ذهب الى بكركي ».

«وكان غبطة البطريرك قد كتب الى نيافته (المطران) طالباً منه الحضور الى بكركي للنظر في امر مهمّ لم يصرّح به، فاجاب انه ذاهب ونشأ هذا الطلب عن مخابرة قنصلوس

فرنسة لغبطته ، بان يدعو المطران بطرس الى بكركي ، لانه صار التصميم على ان يجري الامر بالابعاد – الذي كان ينتظر وروده – بواسطة غبطته ، اذ من الاصول كما لا يخفى ان لا يكون اجراء امور كهذه الا بواسطة البطريرك .

« قال الضابط : « اننا لم نره في الطريق » . فقال الرجل : « بلى » ثم دخل وايقظ المطران واخبره فقال له المطران بدون اقل ارتباك : « ادعُ الضابطَ الى قاعة الجلوس وسأجتمع به بعد برهة قصيرة » .

وكان الضابط هذا سليم بك الطرابلسي قائد الدرك اللبناني لذلك العهد ويقال انه دخل القاعة مع زميله موناسترسكي بك يحملان سيفيهما وكانت عادة سليم بك ان يترك سيفه خارجاً مع تابعيه كلما جاء لزيارة الكرسي تجلّـةً واحتراماً ، واصلح المطران هندامه وخفّ الى القاعة ليرى ما الداعي لتلك الزيارة الباكرة واذا بسليم باك يبلغه الامر وسيفه في يده ، فآلمت تلك الحركة الاسقف الجليل اكثر مما آلمه الامر بالنفي . وقد روى لي كثيرون ان المطران بقي طوال حياته يذكر تلك الوقفة لسليم بك بالعتب المرير ، لأنه من دير القمر جارة بتدين ومن ابناء الابرشية والطائفة .

اما موناسترسكي بك فلم يبدِ المطران اي عتب عليه لانه غريب . وقد قيل « العتب على قدر الامل » .

ولنعد الآن الى رواية الجنة عن نفي المطران قالت :

«وسأل المطران الضباط عن سبب مجيئهم فقالوا: «انه قد وردت اوامر من الباب العالي بابعاده » قال : «اروني الامر» ، فناوله اياه الضابط ، فقرأه وقال : « انني اطيع ، امر الباب العالي على الرأس والعين » .

قساوة رستم

وبعد ان فكّر المطران قليلاً قال للضابط : « ان القدس تبعد كثيراً عن هذا المكان ، ولا بدّ لي من وقتٍ لتهيئة ثيابي وترتيب اشغالي ، فاطلب لذلك امهالي ثلثة ايام على الاقل لاهيئْ عدة السفر » .

قال الضابط : « انني أمرت بانفاذ الامر حالاً ولا سبيل لي الى المخالفة » .

قال المطران : « لا بأس من ان تستأذن رئيسك » .

ارسل الضابط تلغرافاً الى رستم باشا قال فيه ان المطران يطلب المهلة ولم يلبث الجواب ان ورده بالنفي والسفر حالاً .

ثم قال المطران: «انني شيخ والحرّ شديد في السواحل الجنوبية والطريق بعيدة شاقة فاطلب ان يسمح لي بالذهاب بحراً» .

فاستأذن الضابط برقياً بذلك دولة المتصرف ، ولكنه لم يسمح » .

منشور المطران

وتابعت الجنة كلامها عن حادث ابعاد المطران قالت : « ظهر امتعاض طفيف على نيافة المطران عند ورود الجواب ، ولكنّه ما عتّم ان استعاد رواقه وتأنّيه واستسلامه الى ارادة الله، وطاب طعام الافطار فتناوله هادئ البال بينما كان كهنته وشمامسته يبكون وينحبون ويطلبون منه السماح لهم بان يرافقوه لمشاركته في مشقات ابعاده الكثيرة ، ولكنّه ابى ان يجيب طلبهم ، ثم أمر بان يرافقه منهم واحد لا غير ، وبعد ان أنهى طعامه جلس الى منضدته فكتب الى غبطة البطريرك محتجاً على ابعاده دون محاكمة مبرئاً نفسه من الذنب الملصق به ، وعندئذ قال له الضابط : « ان قرى الابرشية في هياج ، وان تأخر نيافته عن السير فقد يقع بين الاهالي والجند ما لا تحمد عقباه » . ولتلافي ذلك أخذ طرساً وكتب الى ابناء ابرشيته منشوراً يطلب اليهم فيه الاخلاد الى السكينة وهو التالي نصّه :

« الى ابنائنا الاعزاء المحترمين في ابرشية صور وصيدا .

« بلغنا انه حصل عندكم كدر من مشاهدتكم احاطة عسكر الدراغون والعسكر اللبناني بكرسينا ، فنخبركم ان ذلك ما كان الا لكي يخبرونا عن صدور الامر السامي بابعادنا عن كرسينا . فنحن امتثلنا الامر اذ ان من الفروض الواجبة على ذمتنا الرضوخ والخضوع لاوامر دولتنا العليّة ، التي كما أمرت بابعادنا عن كرسينا مدةً ما ستأمر برجوعنا عند تحققها براءتنا ، ولذلك يلزم ان لا تتكدروا بل كونوا بحال الهدوء والسكينة وكل الذين يسألونكم عن ذلك اخبروهم ما ذكر وكونوا انتم وهم بالسكينة والاطمئنان . والبركة الالهية تشملكم .

بطرس البستاني
مطران صور وصيدا

بتدين في اول حزيران ١٨٧٨

وبعد ان انهى المطران منشوره دفعه الى نائبه ليعنى باذاعته على رعايا الابرشية .

وفي الوقت نفسه وجّه رسلاً مخلصين الى الديريين وغيرهم من سكان الابرشية يحذرهم

من اي هياج وينذرهم بسوء المصير فيما اذا قاموا بحركة لانه كان عارفاً ان الباشا واقف لهم بالمرصاد فيأتي عملهم برهاناً قاطعاً على تحقيق وشاياته فانقادوا للنصيحة خاضعين .

رستم ينتف شعر لحيته وشاربيه

ومما كان يتناقله الديريون عن ذلك الحادث ان رستماً حين وجه الجند الى بتدين لاعتقال المطران وابعاده ، وكان لا يزال في الحدث مقره الشتوي ، ذهب بنفسه الى بيت التلغراف وأخذ كل بضع دقائق يخاطب بتدين ويستفسر عما حدث ولما رأى ان لا سلاح في المطرانية وان المطران سافر بكل هدوء ودون مقاومة أخذ ينتف شعر لحيته وشاربيه غيظاً لانه كان يأمل ان تحدث مقاومة واضطرابات تثبت التهم التي وجهها الى المطران غير ان تعقل ذلك الحبر احبط مساعيه وخططه وكذب ما كان يدعيه في معاريضه . ومن ثم تحفـَّز المطران للرحيل فالتف ابناؤه حوله يتبركون بلثم يديه وهم يشهقون بالبكاء فاوصاهم بالصبر والاتكال على الله فاحص القلوب ونصير الابرياء .

وبعد ذلك خرج مع رئيس الجند ماشياً من باب الجنينة مجتازًا طريقاً قصيرة لا تسلكها الخيل وامر خادمه ان يوافيه بالفرس الى الطريق السلطانية ، وهناك امتطاها .

وسافر يرافقه خادمه ، وسار الفرسان وراءه على بعد قليل عنه ، ونام ليلة السبت الاحد في صيدا .

وفي اليوم الثاني واصل طريقه الى صور فوصل اليها منهكاً من التعب ، ثم توقف في عكا لما ناله من وعثاء الطريق . وفي مساء السبت ٨ منه وصل الى نابلس . وقد كان يُستقبل في كل مكان يمرّ ويحلّ فيه بالتجلة والاكرام ، ويهرع الناس افواجاً للحفاوة به ، وقد عامله الفرسان الذين رافقوه بالكثير من العناية والرعاية ، حسب منطوق الامر الصادر اليهم من عاصمة الخلافة .

خبر النفي في ترجمة الحويك

وجاء خبر النفي في ترجمة الحويك موجزًا بالنص التالي :

« وانفذ الباب العالي امرًا بنفي المطران الى القدس ، فأوفد رستم اسكندر التويني الى البطريرك يبلغه ذلك ، وبعث سليم طرابلسي الى المطران بطرس يأمره بالمسير الى القدس فاظهر المطران حكمةً وتعقلاً في ذلك الموقف الحرج ، اذ وجـَّه رسلاً مخلصين انسلوا بين الديريين وغيرهم وحذّروهم من اية مظاهرة ، وانذروهم بسوء العاقبة فيما اذا اتوا بحركة ،

فان الباشا واقف لهم بالمرصاد ، فيأتي عملهم برهاناً قاطعاً على تحقيق وشاياته فانقادوا للنصيحة خاضعين .

«وغادر البستاني كرسيه تواكبه فرقة من الدراغون حتى القدس . وقدم له الفارس الشهير يوسف فرنسيس الحاصباني (من القليعة) فرساً يركبه وصحبه بنفسه في سفره ساهرًا على اسباب راحته ، فكان لا يفتأ يذكر له هذا الجميل طوال حياته » .

تفاصيل السفر الى القدس لمكاتب قدسي

اما تفاصيل ما وقع للمطران بطرس في طريقه الى القدس محل منفاه فقد حفظها لنا بالتفصيل رجل قدسي لاتيني اسمه يوحنا خليل في رسالة طويلة وجهها الى جريدة البشير مؤرخة في ٢٣ حزيران سنة ١٨٧٨ قال فيها :

من نابلس الى جفنه

استقبل سيادة المطران بطرس البستاني في نابلس بمزيد الاكرام اذ خرج لملاقاته حضرة الاب انطون رزق خوري اللاتينيين مع بعض الجنود . فنزل في دير الرسالة اللاتينية وصباح اليوم العاشر من الجاري (حزيران) خرج من نابلس وبرفقته حضرة الاب المذكور متوجهاً الى القدس ، وبات ذاك الليل في جفنه في الدير المختص بالرسالة اللاتينية .

وصوله الى القدس

ولما بلغ غبطة بطريركنا فنشنسيوس براكو الخبر عن قرب وصول سيادة المطران الماروني أعد له منزلاً لائقاً في دار بطريركيته ليقينه بان الحكومة المحلية لا تعارض في ذلك – وبالحق لم يمانع وكيل الحكومة في بادئ الامر (اذ كان المتصرف غائباً في غزّه) نزول سيادته في دار البطريركية اللاتينية الا اننا لا ندري ما كان الداعي فيما بعد لتغيير رأيه (وكيل الحكومة) اذ ارسل يقول انه لا يقدر على اعطاء الاذن بنزوله في دار البطريرك اللاتيني .

فسئل بان يسمح على الاقل بنزوله في دير حضرة الآباء الفرنسيسكانيين فاذن في البداية ولكن فيما بعد رفض .

فطلب اليه مرة ثالثة هل من اشكال في قبوله بدار كازانوفا فاجاب لا ، لان هذا المقام منزل لجميع الاجانب ، ولكنه اشترط قيام الحرس على باب كازانوفا نهارًا وليلاً فلما كان الدير المذكور قائماً تحت حراسة فرنسة لم يسمح باقامة الحراس على بابه .

وفي هذه الاثناء ابلغ وكيل الحكومة ان خمسة او ستة من اعيان البلد منهم الاب انطونيوس مرقس الرئيس الروحي للكاثوليك في مجلس القدس يتقدمون لكفالة سيادة المطران بطرس ويطلبون له الحرية للنزول حيثما يشاء ، ثم لم يبقَ واحد من جميع كاثوليك القدس الا عرض نفسه لكفالة سيادة المذكور ، ومع ذلك لم يقبل الوكيل رجاء احد في هذا الصدد اذ تعلل بان الاوامر الصادرة بهذا الخصوص مشدّدة للغاية فيقتضي ان يسلم الاسقف رأساً لحكومة القدس ويقوم تحت الضغط الشديد .

مغايرة الأوامر

اخيرًا لكي يتملص الوكيل من الارتباك قال: ان هذا الامر لم يعد متعلقاً به بل ان التلغراف ابلغ اوامر الباب العالي الى رئيس الضابطة وقد كلف انفاذها ومن ثم فمن يريد من الآن وصاعدًا ان يتعاطى امرًا بخصوص المطران بطرس ينبغي ان يتعاطاه مع الرئيس المذكور . فغاظ ذلك جميع الكاثوليك وظهر فيما بعد انه مغاير للاوامر الصريحة اذ عرف ان المتصرف قد بعث برسالة برقية من غزه الى وكيله قبل وصول سيادة المطران الى القدس يعرفه فيها ان المطران البستاني أبعد عن كرسيه ابعادًا بسيطاً ، وعينت مدينة القدس لسكناه فله ان ينزل حيثما يشاء على انه اذا اراد الخروج من المدينة فعليه تعريف الحكومة لكي تصحبه ببعض الخيالة .

اما رئيس الضابطة المكلف قبول المطران بطرس وتدبير منزله في القدس فكان يهتم بارساله رأساً حال وصوله الى سراي الحكومة وكان قد عين لنزوله مخدعاً صغيراً زريًّا في مدخل السراي ولكنه غير رأيه وعمد الى ان ينزله في مخدع يسكنه ترجمان الباشا في النهار ولئن كان هذا المخدع احسن من الاول الا انه لم يزل غير لائق لمنزل مثل السيد الجليل المطران بطرس .

اهتمام بطريرك اللاتين ومدير البنك العثماني بالمطران

اخيرًا عمل غبطة السيد براكو كل جهده لدى الحكومة حتى نال منها اذناً بانزال سيادته في مسكن يليق بمقامه ومن ثم أعد له مع مدير البنك العثماني منزلاً لائقاً .

ففي اثناء هذه المحاورات كان سيادة المطران بطرس يبات ليل الاثنين باكرام في جفنة ، ويوم الثلاثة الواقع في ١١ الجاري توجه الى القدس برفقة خوارنة اللاتين وفي يقينه انه لا يحرم هناك تلك الحرية التي اعطيها في جميع الاماكن التي نزل فيها على طريقه .

وكان وصوله الى القدس في ١١ الجاري بعد غروب الشمس وعلى غير معرفة غبطة بطريرك اللاتين حيث لم يكن يظن انه يصل في مثل تلك الساعة .

منعه من النزول في دار البطريركية

وكان رئيس الضابطة ذاك المساء قبل وصول سيادته الى القدس بعث بعض رجاله الى مسافة من المدينة واقام غيرهم على باب الخليل لكي يمنع المطران من الدخول بذلك الباب لئلا ينزل في دار البطريركية اللاتينية .

فلما وصل سيادته الى القدس توجه الى باب الخليل قصداً للنزول في دار البطريركية اللاتينية ، لكنه قد تعجب كل العجب لما رأى الضابطة القائمين هناك اوقفوه ومسكوا بمقود فرسه ومنعوه واتباعه جميعهم من الدخول بباب الخليل بقولهم انهم مأمورون بادخاله من باب العمود واستياقه الى محل أعدّ لنزوله فالتفت حينئذٍ سيادة المطران بطرس الى ضابطة لبنان الذين كانوا برفقته وسألهم هل وصلت اوامر خصوصية من حكومة لبنان بألا يسمحوا له بالنزول حيث يشاء في القدس . اجابوه كلا بل انهم تعجبوا كيف ان حكومة القدس قضت بحرمانه الحرية وبان يعامل مثل هذه المعاملة . ولما كان سيادته مسلماً اموره لله في كل احواله ومطيعاً لاوامر الحكومة اطاع ايضاً هذه المرة بدون ادنى مقاومة وسلم نفسه للضابطة ليقودوه حيث يشاؤون .

فلما وصل الى باب العمود وجد رئيس الضابطة هناك ينتظره مع جمهور من الضابطة فاستاقوه رأساً الى المحل المعين له . ولما لم يكن في بال غبطة بطريرك اللاتين ان سيادته يصل القدس ذاك المساء لم يوجه احداً لاستقباله على انه قد امر بان يعد له مخدع ولكنه كان غير مفروش بعد ان كان ينتظر غبطته ان يكسوه بما يلزم من المفروشات صباح اليوم التالي .

المطران يجلس على الارض افرط العياء !

وعليه لما وصلوا بسيادته الى ذاك المحل ووجدوه مقفلاً ذهب البعض الى غبطة البطريرك يخبرونه بوصول سيادته ويفتشون عن مفاتيح المحل ويأتون ببعض اثاث لائق بايواء سيادته تلك الليلة . وكان سيادته قد نزل عن متن جواده معيياً من السفر فجلس على الحضيض بباب المحل حتى بادر البعض واتوه بكرسي من حانوت قريب .

وفي تلك الاثناء تقدم احد اعيان الطائفة اللاتينية الخواجه جميل البنّا المقيم بدار مجاورة وطلب من رئيس الضابطة ان يأذنه بايواء الاسقف في داره الى ان توجد المفاتيح

ويعد ما يلزم من الاثاث فاذنه فذهب سيادته مع اتباعه الى دار الخواجه المذكور الذي أعد له عشاء لائقاً وكان يرغب في ان سيادته يبيت تلك الليلة في داره لكن رئيس الضابطة اعلن انه لا يقدر ان يسمح بذلك الا بشرط ان جنود الحكومة يبيتون ايضاً في مخدع المطران نفسه فلم يتم الامر اذ كان المحل ضيقاً وفيه اولاد ونساء.

وهكذا ايضاً الخواجه اسعد الخياط من اعيان القدس من الطائفة المارونية ومن ابناء ابرشية سيادة المطران بطرس ترجّى ان يؤذن له في انزال سيادته اقله تلك الليلة في داره فلم يؤذن له الا بشرط ان اثنين من الضابطة ينامان في مخدع سيادته.

المطران يصبر صبر الكرام

ومن ثم التزم سيادته ان يصبر على هذه الحال ويقضي ذاك الليل في المحل المعين لاقامته بدون ان يتيسر اعداد كل ما يلزم ويليق بشأنه لان الوقت كان ليلاً.

فامر رئيس الضابطة ضباطه بان يرقدوا في مخدع المطران نفسه اما غبطة بطريرك اللاتين فارسل اثنين من كهنته لملازمة سيادته اجلالاً للمقام الاسقفي فرقدا معه تلك الليلة في مخدعه ولم يفارقه قط كهنة غبطته طالما اقام في تلك الدار. ولم يبارح جند الحكومة ايضاً شخص سيادته مريدين ان يلازموه حيثما يذهب حتى حينما أتى يقدس في كرسي غبطته دخل الضابطة معه الى الكنيسة. ولكن أوعز اليهم بالخروج والقيام خارج الباب.

الفرج بعد الضيق

فتكدر الجميع من هذه المعاملة التي جرت على هذا الاسقف الجليل ليس فقط لان المتصرف قد ارسل بالتلغراف من غزه كما تقدم القول بان يسمح له بالنزول حيثما يشاء لان سيادته قد ادّى أتم الطاعة لاوامر الحكومة وتحمل بصبر عجيب اتعاب السفر كما شهد ضابطة لبنان الكرام الاودّاء الذين شيعوه حتى الى القدس الشريف متعجبين من تصرفه المبني على الحكمة، بل لان مثل هذه المعاملة جاءت مغايرةً لقوانين ونظام الحكومة التي لا تأمر بمثل هذا التشديد على من أبعد ابعادًا بسيطاً من مسكنه كسيادة المطران الذي نحن في صدده.

ولكن الحمد لله لم تطل هذه المعاملة العنيفة، بل انه على اثر التلغرافات التي ارسلها غبطة بطريركنا وقيام الحجة من سيادة المطران بطرس نفسه وعلى اثر الاجوبة المرضية

والاوامر التي وردت من الاستانة وبيروت وغزّه اطلقت الحرية لسيادته بالسكنى حيثما يشاء داخل اسوار مدينة القدس . والآن سيادته مقيم منذ عشرة ايام في دار بطريركيتنا اللاتينية محفوفاً بالاعتبار والاكرام مشروح الخاطر راتعاً بالصحة الكاملة مسلماً امره لله مترجياً بان العناية الالهية لا تبطئ في ان تقضي بارجاعه الى كرسيه . حفظه الله .

الداعي
يوحنا خليل

المطران يصف حوادث نفيه

ووجه المطران البستاني جواباً الى الخوري الياس الحويك (البطريرك) عن القدس بتاريخ ١٣ حزيران ١٨٧٨ يصف فيه حادث النفي بالنص التالي قال :

« وصل تحريركم رقم ٦ الجاري (حزيران) بوصولنا الى القدس يوم الثلثا ١١ منه . سرنا اعلام سلامتكم وشكرنا المولى لانه انقذ لبنان من خراب كانت العملية المتخذة لابعادنا اصلاً لاتمامه ، سواء اكان عن مؤامرة سابقة وقصد ، ام عن عدم تبصر وحب مفرط للانتقام ، وبالاكثر لاننا نجد ذاتنا ابرياء امام الله .

نطلب من الله ان لا يتم من جانب قدس الاخوان الذين حضروا عندكم شيء فيه ادنى ذل ، وان يكن لاجلنا ، لئلا يكمل العار ، ويقيننا بحكمتهم انهم يتنزهون عن ذلك.

نحن بكل صحة نازلون في دار مخصوصة تحت محافظة صارمة من الضابطة ليلاً ونهاراً. تتبعنا الى الكنيسة لكن بأدب ولياقة ، ولم نزل نبحث عن مصدر الامر بذلك .

نأمل ان تتجه هذه البوليتيكا غير العادلة الى العدل عند انكشاف الحقيقة . سفرنا الآن نظن انه غير ملائم قبل ان نكشف عن الحقيقة او بالاحرى يكشفها غيرنا ممن لهم الاطلاع الكافي عليها . هذا ما اقتضى ابداؤه آملين الخ ... »

وفي طيه هذه الشقة

« يوم السبت اول حزيران وجدنا كرسينا باكراً جداً محاطاً بمئتي جندي من الدراكون والعسكر اللبناني بالسلاح ، ثم دخلوا الكرسي وتفهمنا انه صادر امر دولة رستم باشا بناء على امرٍ سامٍ بابعادنا من لبنان الى القدس ، لأننا اصحاب تحريك وقلق ، فاجبنا على الفور اننا طائعون بالتمام لاوامر دولتنا ، واذ فهمنا ان اهالي دير القمر وبقية نصارى الجبرة

قلقوا لهذه المناظر ، حررنا لهم ما يقتضي ، وان هذه اوامر دولتنا ، واننا متممونها كما يجب علينا فسكن قلقهم .

ثم تفهمنا من بكباشي الدراكون انه مأمور ان يأخذنا طوعاً او جبرًا ، فأجبنا اننا سبقنا واطعنا ولا لزوم للجبر . ثم فهمنا بتحقيق ان متصرف لبنان أمر بتفريق الجبخانة على الجنود المرقومين قبل ارسالهم ، وصدر امره للاربعمئة الذين في مركز بتدين بمساعدتهم عند الاقتضاء ، وارسل الامير مصطفى الى بعقلين فأوقف الدروز على سلاحهم لمساعدة الجنود عند اللزوم ، ودولته (رستم) ارفق الجنود بجبخانة علاوة على التي تفرقت عليهم.

وبعد ان هيأنا بعض لوازم السفر ، قمنا حالاً تحت محافظة المئتين المرقومين التامة ، وبعد سفر ساعة ونصف وبعض دقائق وصل لنا كتابة من دولته بها يرشدنا لنطيع اوامر دولتنا .

وفي آخر النهار وصلنا الى البرامية قرب صيدا وبتنا هناك تحت المحافظة التامة . وفي الغد ساقونا تحت محافظة ستة واربعين خيالاً ، ثلاثة من العسكر اللبناني والباقون من الدراكون الى صور . المحافظة صارمة لكنها بلياقة وهيئتها مهينة بحد ذاتها ، ومرّة ، ولكن كان يحلّي مرارتها ما كان يبديه الشعب المسيحي واكليروسه من الملاقاة والاكرام، واظهار احساسات التكدر .

ففي صور قد أظهر ذلك سيادة المطران اثناسيوس واكليروسه وشعبه بالتمام . وفي عكا الاكليروس اللاتيني وباقي الشعب المسيحي واكليروسه . ومثل ذلك في شفا عمر والناصرة .

اما اكليروس البطريركية الاورشليمية وشعبه في نابلس وجفنة ورام الله والقدس الشريف مع رئيس عام الرهبان الفرنسيسكان ورهبانه فلا نقدر ان نعبّر بالكفاءة عن الغيرة الفريدة التي شملنا بها غبطة السيد البطريرك منصور براكّو ، فان اكليروسه جميعه وشعبه عدا شعائر التكريم والاعتبار التي قدموها لنا، واحساسات التأثير التي اظهروها، فقد خدمونا بكل نوع كأنهم معينون لذلك .

اما من جهة مأموري دولتنا العلية فلم نشاهد منهم من صور الى القدس شيئاً يسوؤنا بل كنا نشاهد عند الاقتضاء الالتفات اللازم .

هذا بالاختصار ونختم كلامنا بالشكر للعناية الالهية التي ازالت عن لبنان خطر الخراب الذي ظهرت علاماته من الطريقة التي اتخذها دولة رستم باشا في اتمام ابعادنا

منه، حين كان يكفينا لاتمام امر دولتنا ان يتضح لنا بنوع بسيط، وبدون هذا الاحتفال المخطر الظاهر مثل الشمس، ولو حاول اي كان انكاره.»

صدى نفي المطران في البلاد

وكان لنفي المطران بطرس صدى بعيد في البلاد، لأن خبره انتشر للحال في كل مكان بسرعة البرق، فقابلته الاكثرية الساحقة من الاهالي بالنقمة والاستنكار، وقام اهالي دير القمر وجزين والجرد والغرب والشحار وغيرهم باقفال كنائسهم وانزال اجراسها وطرد كهنتها وأضربوا عن الصلاة، وجاهروا بأنهم لن يعودوا عن اضرابهم الا اذا رُدَّ المطران الى كرسيه، وسافر فريق من الكهنة المطرودين الى بكركي يشكون امرهم، فطيَّب البطريرك خاطرهم ووعدهم بالسعي في الافراج عن المطران، وطلب اليهم العود الى قراهم لتسكين ما فيها من هياج وطمأنة الرعايا.

تظاهرات لها معناها

وفي مساء الاحد ٩ حزيران اي بعد سفر المطران بعشرة ايام أشاع بعضهم ان المطران عاد من منفاه، فقامت التظاهرات السارة في كل مكان، ولا سيما في قرى ابرشية صيدا، مثل دير القمر وجزين والشوفين وبعض قرى الجرد، وأشعلت النيران على سطوح الكنائس والمنازل، وقُرعت الاجراس، ودوَّى صوت البارود عراضةً، وارتفعت الاهازيج، والخبر لم يكن صحيحاً ولكن المقصود منه كان افهام رستم باشا كم كان للمطران من قدر في البلاد. وقد روى المقربون منه ان تلك التظاهرة شغلت باله وحسب لها الف حساب، وبثَّ العيون والارصاد ليعرف اسبابها، واذ جاءه بها موظفوه اصدر اوامره بمنع تكرارها.

ولم يطل الأمر حتى سرت بين الجمهور اشاعة اخرى مفادها: «ان المتصرف قد طُلب الى الاستانة ليؤدي حساباً عما سببه في لبنان من قلاقل» وعندئذ لمَّ انصار المطران شملهم، وعوَّلوا على المضي في معارضة رستم الى ان يرحل عنهم فتتخفَّ من بينهم تلك العراقيل المشؤومة التي كان هو سببها المباشر بحدَّته وتسرّعه وشكاسة اخلاقه.

ماذا فعل البطريرك والمطارين

ورأى البطريرك بعد فوات الاوان ان في نفي المطران بطرس ضربةً اليمة للطائفة ومساساً شديداً في الامتيازات الاكليريكية فصمَّم على تلافي الامر. ودعا اليه المطارين

الى بكركي واخذوا يوالون الجلسات دون ان يهتدوا الى رأي يؤملهم بالخروج من تلك المحنة .

وهنا نعود الى ما روته ترجمة الحويك حول هذا الاجتماع في الصفحة ٨١ بلسان الخوري الياس الحويك (البطريرك بعد حين) قالت ما ملخّصه :

« واجتمع معظم المطارنة على اثر هذه الحادثة وتداولوا مليًّا عند البطريرك ، ولم تسفر مداولتهم عن نتيجة فعّالة ، والتقيت صدفةً في الرواق باحدهم فسألتُه : « ماذا عملتم ؟ » قال : « لم نعمل شيئاً حتى الآن » حينئذٍ صحت باعلى صوتي : « يا لخيبة الامل ! امّا ان تعملوا او ارجعوا الى كراسيكم لانّ اجتماعكم هنا وترددكم عن اتخاذ رأي فيه سداد وكرامة لاذلّ لنا من مصيبتنا بنفي المطران » ، وشعرت ان كلامي كان ذا تأثير شديد في المخاطب وللحال رأيته يعود مسرعاً الى البطريرك ويجتمع واياه بالمطارنة وتمّ الرأي في ذلك الاجتماع على ايفاد مطرانين الى بيروت يحتجان لدى اولياء الشأن على هذا العمل المنكر .

« ووقع الاختيار على المطرانين الحاج والدحداح ، فقابلا الباشا (الحاكم التركي) وقناصل الدول واحتجا بشدّة على ما جرى ، ولكن ظهر ان ذلك الاحتجاج قد أخفق او سيخفق ، فشقّ الامر علينا وقررت البطريركية رفع عرائض تظلّم الى رومية وباريس والاستانة تلتمس فيها اوبة المطران بطرس الى كرسيه وأخذت انا على نفسي كتابتها مستعيناً بالدحداح (المطران) ، فكنا نتساءل ونتداول ونتكاتف في الكتابة بالايطاليـة والفرنسية والعربية وبعد توقيع الامضاءات على العرائض كنا نرسلها في الحال الى من نيطت الآمال برفدهم » .

«وقضى الخوري الياس الحويك سواد الليل وبياض النهار في القيام بتلك المهمة ووجّه رسلاً الى اعيان الطائفة في الشمال وصافيتا والقطر المصري وسائر الجهات يطلب منهم توقيع تلك العرائض فترسل الى محل الايجاب .

« ومن ثمّ اخذت الوفود من ابرشية صيدا وغيرها من الابرشيات تصل وتحتج لدى البطريرك ، وكان آنئذٍ في مدرسة مار عبدا هرهريا . ولما كانوا ينحون باللائمة عليه كنت اقف ناقدًا اقوالهم ، مبرهناً على ان البطريرك لم تكن له يد فيما جرى ، ولا كان من رأيه بل كان كارهاً له .

عريضة من الدروز

« ثم قلت لهم : « هذا لا يفيدكم فدعوه وخذوا ما هو اهم لكم واجدى» . قالوا : «وما ذاك ؟» قلت للشوفيين والمتنيين : «تذهبون الى مواطنيكم وجيرانكم الدروز وتطلبون منهم تسطير عريضة ترسلونها الى الاستانة مفادها : ان لا حركة ولا شغب بين الدروز والنصارى وانهم ينزهون المطران عما نسبه اليه خصومه » .

« وقد عملوا بما طلبت وسطّرت العريضة ووقعها فريق من الدروز في مقدمتهم عائلة الشيخ رافع عبد الصمد . وبعد مدة قرأتها مترجمة الى الفرنسية في احدى الصحف » .

ويختم الحويك ذكرياته عن هذه الحادثة فيقول : « وهكذا كانت كتاباتنا تشغل المراكز الايجابية في الاستانة وباريس وورومية وبيروت وغيرها وها نحن ننشر مسطرة من بعض تلك الكتابات » :

عريضة البطريرك الى الصدارة العظمى

وهذا نص العريضة المرفوعة بهذا الشأن الى الصدارة العثمانية العظمى بعد ورود البرقية بنفي البستاني :

« حضرة صاحب الابهة دولتلو افندم ...

« انه لمشهور لدى الجميع ما لطائفتنا المارونيّة في كل زمان من كمال الامانــة بعبوديتها لجانب حضرة ولية نعمتنا الدولة العلية صانها رب البرية ، كما ومثابرتنا نحن دائماً على الاهتمام بان تكون طائفتنا هذه بأجمعها ثابتة على قدم الطاعة والخضوع لاوامرها ، عائشة تحت ظلّ حمايتها ، ومواصلة معنا تقديم الادعية الخيرية للحق سبحانه بحفظ شريف وجود ذات سلطاننا الاعظم ومليكنا الافخم السلطان عبد الحميد خان نصره العزيز الرحمن وبتأييد سرير سلطنته بمزيد العز والتأييد الى انقضاء الدوران .

« وفيما نحن وطائفتنا واثقون من المراحم الشاهانية بدوام شمولنا بتعطفاتها السنية ، وان نبقى متمتعين بانعاماتها واحساناتها الملوكية ، الأ رأينا ذواتنا في هذه الاثناء قد ضربنا ضربةً قاسية خلافاً لثقتنا ، وذلك بصدور الامر السامي تلغرافياً من طرف الباب العالي بابعاد عبدكم المطران بطرس البستاني مطران صور وصيدا من مركز ابرشيته الواقع في جنوبي لبنان الى القدس الشريف . وهذا الامر قد جاء اجراؤه بهيئة مهينة محقّرة للغاية.

اذ أرسل المطران المذكور من مركزه الى القدس الشريف برّاً وهو في سن الشيخوخة محاطاً بجانب من الانفار العسكرية كمرتكب جرائم فظيعة .

« وقد تم ذلك جميعه على وهم انه مباشر اموراً تشوّش الراحة العمومية ، وتوقع الفتنة بين الاهالي في الجهة الجنوبية من لبنان ، حال كون هذا الوهم هو مجرّد تهمة بحق المطران المذكور خالية من الصحة . وقد تصوّرت عليه دون سؤاله رسمياً عنها ، بسبب تقديم بعض اهالي لبنان من مذاهب مختلفة تشكيات الى الباب العالي من جراء بعض اجراءات يقولون انها جرت عليهم بخلاف القانون والنظام ، مع انه في معرض هذه التشكيات لم يبدُ منه اي عمل يوقع الخلل بالراحة العمومية او يحدث فتنةً بين الاهالي .

« فابعاد المطران المذكور من كرسيه على الوجه المسطور لمجرد التهمة المنوّه بها دون سؤاله رسمياً عنها قبل ان يتعامل بما تعامل به من القساوة قد شقّ جداً على الجميع من اي مذهب كانوا وجعلهم في تلبك افكار وقلق جسيم . وقد بذلنا غاية الجهد في تمهيد افكارهم وتسكين قلقهم بوعدنا لهم اننا نتقدم بالرجاء لساحة مكارمكم لكي يصدر امركم بارجاع هذا المطران الى كرسيه مبرراً معززاً .

« والآن بناء على ما لنا من الثقة بعدالة ومراحم الدولة العلية نتخذ الجرأة لان نظهر لمهابتكم ما حاق بنا وبجميع عبيدكم ابناء طائفتنا المارونية من عظم الاهانة وانكسار الخاطر بسبب وقوع هذا الحادث الخارق العادة . وفي الوقت نفسه نسترحم من مكارم فخامتكم ان ترمقوا عريضة عبوديتنا هذه بعين الاستمالة والتعطف متنازلين الى صدور الامر السامي بارجاع المطران المذكور بكرامة الى مركزه في لبنان الذي صار سحبُهُ منه باحتقار وبتعويض الاهانة التي حصلت له وبشخصه لنا ولكافة عبيدكم ابناء طائفتنا .

« هذا ما نلتمسه من عدالة ومراحم فخامتكم ونحن باسطون اكفّ الضراعة والابتهال لدى الملك المتعال بحفظ شريف وجود مهابتكم بمزيد العز والاقبال مدى الاحقاب والاجيال افندم » .

بكركي لبنان في ١٩ حزيران ١٨٧٨

بولس بطرس
بطريرك الطائفة المارونية

نص العريضة المرفوعة الى رئاسة جمهورية فرنسة

« المعروض لمقام رئاسة دولة الجمهورية الفرنساوية العالي شانها :

« ان التاريخ القديم والحديث يوضح ما هي علاقات الموارنة بفرنسة من زمن لا يعرف بدؤه حتى ايامنا هذه ونقدر نضمّن ذلك عبارة وجيزة هي : « تعلق الموارنة الدائم بفرنسة الدائمة للموارنة » .

فالاكليروس الماروني بما انه حافظ التقاليد الطائفية قد كان دائماً منهّجاً ومحافظاً لشعائر الممنونية ايضاً والتعلق غير المنفك بفرنسة .

« فهذا الاكليروس الذي تجعله حالته مسؤولاً بنوع ما عن الرفاهية الزمنية للشعوب المستودعة الى رعايته الروحية يحتاج الى التمتع ببعض انعامات لا يمكنه بدونها ان يتم ما هو مفروض عليه بذلك .

« ولهذا كل ما يحدث من انثلام لاعتبار الاساقفة يكون ضربةً مميتةً لسعادة خرافهم وسعادتهم .

« في هذه الاثناء حدث حادث من هذا النوع يصعب التعبير عنه كما ينبغي بالنظر الى الاسباب التي افترضت له والى النتائج الضارة الصادرة عنه . وقد تمّ في هذه الايام الاخيرة لسوء البخت بواسطة نائب قنصلاتو جنرال دولة فرنسة (الذي بدونه لم يكن ممكناً ان يتم) ضد احد اخواننا المطران بطرس البستاني مطران صور وصيدا : وهو نفي هذا المطران الجليل بهيئة محقّرة من كرسيه في لبنان الى اورشليم بامر من الباب العالي سانده قنصل انكلترة ونائب قنصلاتو جنرال دولة فرنسة .

« فكل ما صار الادعاء به على المطران المذكور هو افتراض غير صحيح قد صار اختلاقه عليه فنسب اليه انه مباشر مشروعاً قد يمكن ان يحدث فتنةً بين الموارنة والدروز .

« اما السبب الحقيقي لما أجري ضد المطران فكان الرغبة في تحويل النظر عن تشكيات قدمها بعض اللبنانيين من كل مذهب للباب العالي ولسفارات الدول الكافلة في القسطنطينية بواسطة قناصلهم في بيروت ضد شخص متصرف لبنان الذي كانوا يتشكون منه كمستبد بالساطة . فقد صار تجسيم خطر الخصام حيث لم يكن محل للتوهم منه .

« وقد صار اغراء نائب قنصلاتو فرنسة لكي يطلب بالحاح من السفارة ان تتوسط باستحصال امر بسرعة ابعاد المطران المذكور عن كرسيه الكائن جنوبي لبنان فعمل ذلك دون ان يخبر المطران ولا البطريرك عن مقصد كهذا ، ولكن بعد ان كان خطا هذه الخطوة ارسل ترجمانه الى البطريرك ليعلمه بما عمل ، وانه حرر بعد ذلك تلغرافيًّا الى السفارة لكي توقف الامر المطلوب وانه اذا كان البطريرك يستدعي اليه المطران بطرس البستاني فكل شيء ينتهي .

« فالبطريرك طلب حالاً المطران الذي جاوب بانه سيحضر في اليوم الثاني ولكن في ذلك اليوم نفسه الذي كان عتيدًا ان يقوم فيه بسفره وجد كرسيه محاطاً من قبل الصبح ببعض فرق من العساكر كان المتصرف قد ارسلها ليلاً لتجري امر الباب العالي. وكان ترجمان القنصل وقتئذ ما يزال باقياً عند البطريرك ينتظر وصول المطران ليرجع فيعطي جواباً للقنصل عن تمّام غاية ارساليته .

« والهيئة التي أبعد فيها المطران بطرس من كرسيه كانت مستغربة جدًا ومحقرة للغاية. اذ انه أحيط كرسيه ليلاً بنحو مئة عسكري دراغون وبعدد اوفر من العسكر اللبناني من كل مذهب . وفي الصباح اقتاده هؤلاء الجنود دون ان يعطى الوقت الضروري لاعداد اهبة السفر وليعلن على ابرشيته التدابير التي لا بد منها في مثل هذا الظرف . طلب مهلة ثلاثة ايام لهذه الغاية فرفض طلبه بقسوة . التمس ان يكون سفره بحرًا لينجو من الحر الشديد والتعب المضني في سفرٍ طويل على طرق رديئة الامر الذي كان مليئاً بالخطر على حياته فلم يحصل على شيء بل أجبر على الرغم من شيخوخته ووهن قوته وضعف جسمه ان يسافر برًا في طرق مقفرة ترافقه فرقة من الدراغون كما لو كان رئيس لصوص قتلة سفاكي دماء .

« هذه الهيئة التي صار اجراؤها نحو مطران ماروني مثل سيادة البستاني لم يرَ من استحسنها غير نائب قنصلاتو فرنسة . ان القنصل الانكليزي نفسه قد اعلن للبعض منا انه لم يستحسن تلك الهيئة ، واكّد انه لم يكن له فيها مداخلة وتكلّم باقي القناصل على هذا النحو مؤكدين ان تدخلهم في شؤون لبنان ثانوي ، وانهم تاركو العمل فيه لقنصلي فرنسة وانكلترة .

« فالذي صار اجراؤه للنجاة من اضطرابات في البلاد كما صار الادعاء كان وحده كافياً لاحداث فتنة فيها لانه ليس الموارنة فحسب بل كثيرون من غير الطوائف

ايضاً اعتبروه عملاً مكروهاً قادرًا على التسبب بحدوث غوائل ضارة للغاية .

اما الموارنة خاصة الذين اهينوا بشخص مطرانهم فقد كانوا قاموا بمظاهرات خطرة عنيفة لو لم يكن المطران نفسه قد تدارك الامر واستعمل الحلم الى آخر حدوده بأن كتب منشورات اوصى فيها الجميع بالاخلاد الى الهدوء . ولكن ذلك لم يمنع طائفتنا بكاملها ونحن روساؤها من أن نشعر جميعاً اننا مهانون اهانة عظيمة من هذا العمل الذي اجري نحونا خاصة لما افترض فيه من نسبة العصيان لواحد من اخواننا يمكنه ان يصمنا بمثل ما وصم به وبسبب عدم الثقة بنا ويعدمنا ذلك النفوذ العائد بالفائدة على اهالي لبنان جميعاً دون تمييز بين اي اصل ومذهب .

« غير ان ما يوئلمنا بالاكثر هو ان ممثل فرنسة يسجل تخطئة وهمية لمطران ماروني ويسبب ضررًا باهظاً لكل الموارنة خصوصاً لاولئك القاطنين في البلدان الجبلية المشتتين بين اناس من مختلف العقائد والذهنيات يحكمون في الشوئون على الظواهر ومنهم الذين يقطنون المقاطعات التي مرّ فيها البستاني في طريقه الى منفاه وهم من ابناء رعيته .

« لهذا جئنا ايها الرئيس السامي الشأن نلتجئ الى عدالتكم ومكارمكم راجين منكم ان تتعطفوا وتنظروا بعين الاعتبار الى الحالة التي اوجدتنا فيها دسائس الخصوم المستندة الى فعل خالٍ من الانتباه قام به نائب قنصلاتو فرنسة وان تتنازلوا لأخذ التدابير اللازمة لتعويض الضرر الذي حصل لنا جميعاً ولارجاع كرامة المطران الذي كان ضحية بريئة وذلك بتوسطكم في ارجاعه بشرف الى كرسيه الذي اخذ منه بهيئة زريئة .

هذا ما نرجوه من مكارمكم ونحن متكلون على حمايتكم القديرة فيما اننا بكل احترام واعتبار ساميين لنا الشرف بان نكون دائماً من اخلص الاصدقاء والاتباع ... »

التواقيع

البطريرك والمطارين والاعيان

عريضة الى المجمع المقدس

وهذه ترجمة عريضة رفعها البطريرك والمطارين والاعيان الى رئيس المجمع المقدس في رومية وهاك ملخصها :

« ايها السيد الكلي النيافة

« انه ولا بد عند بلوغ كتابتنا هذه الى نيافتكم تكونون قد علمتم بطرائق مختلفة خبر نفي المطران بطرس البستاني مطران صور وصيدا من كرسيه الكائن في جنوبي لبنان الى اورشليم بأمر من الباب العالي » .

وهنا تصف العريضة كيف تم حادث النفي باسبابه ومقدماته ونتائجه وفقاً لما جاء عنه في صفحات سابقة فاهملناه اجتناباً للتكرار وانتقلنا الى ما رأيناه جديداً في العريضة وهو التالي :

« ومن هذا ترون نيافتكم الى اين تقذفنا القواذف والى اية حال يروم ان يوصلنا روح العصر (المضاد للاكليروس) فنحن قد قدمنا للباب العالي عريضة تتضمن عتاباً لطيفاً ومن هنا بيّنا براءة المطران من التهم المنسوبة اليه ، والتمسنا دليلاً على الاقناع بصدق عبوديتنا ان يصير ارجاع المطران الى كرسيه بكرامة ، كما اخذ منه باهانة ، دون محاكمة ولا سؤال ، وقدمنا ايضاً كتابة الى باريس عن يد صاحب النيافة رئيس اساقفتها الكردينال كيبر لرئيس الجمهورية الفرنسية المرشال مكماهون الذي اوضحنا له فيها ان ممثل دولته قد أجرى نحونا دون صواب عملاً سيئاً خدم به غايات غير غايات دولته والتمسنا منه اصلاح هذا الضرر الجسيم .

« بقي علينا الآن أن نقدم الرجاء لنيافتكم ولو لم يكن للرجاء من حاجة بان تنعطفوا باتخاذ هذه المسألة باهمية كبرى لانه على ما نرى اذا لم يصر اتخاذ التدابير اللازمة لملافاتها باسرع ما يمكن لا يبعد ان يكون لها من الغوائل والمضاعفات ما يوصل الى دمار الاكليروس الكاثوليكي ليس فقط في لبنان بل وفي كل سورية ايضاً (على الاقل).

« ومما يخطر في بالنا انه اذا توفق الحصول على رذل عملية الباشا ونائب قنصلاتو فرنسة بهذا الحادث الصادر خاصة بسعيهما وعلى ارجاع البستاني بكرامة الى كرسيه فتكون صارت ملافاة كل شيء في الحال والاستقبال لمدة طويلة . وقد يفيدنا للتوصل الى هذه الغاية ابداء المساعدة من لدن الكرسي الرسولي لنا في القسطنطينية وفي باريس ، ولكن بما اننا لا نريد ان نقدم مشورات بل ان نلتمس المساعدة فنترك كل شيء الى ما تستصوب اجراءه حكمة نيافتكم السامية مما يلائم للغاية .

« فبمزيد الاهابة والاحترام نتشرف بأن نعلن ذواتنا اخلص الابناء واصدق الداعين لنيافتكم بالتأييد » . (التواقيع)

احتجاج الأهلين

وهذه صورة احتجاج رفعه كثيرون من اهالي القرى الى قناصل الدول الكافلة في بيروت والى سفاراتها في الاستانة :

« المعروض لسعادتكم من اهالي ...

« ما خفي علم سعادتكم كيف ان جمهوراً عديداً منا قدموا تشكيات عنهم بالاصالة وعنا بالوكالة لجانب هذه القنصلاتات ولسفاراتها وللباب العالي بطريقة رسمية قانونية لا تشويش فيها للراحة ولا خلل بل بموجب ما يسمح به النظام لكل فرد من الرعية .

« وقد اطلعتم سعادتكم على هذه التشكيات وما يسندها من البينات الراهنة والحوادث المشهورة وبينما كنا منتظرين الاصغاء من طرفكم وجانب السفارات والباب العالي الى تشكياتنا هذه العادلة والتحقيق عليها وعلى بيناتها مراعاةً للحق، وكانت خواطرنا مطمئنة على اننا في هذا العصر عصر التمدن والحرية نقدر ان نرفع تشكياتنا ضد ولاة امورنا الى السلطات العليا دون اختشاء من ازدياد الجور علينا من قبل الوالي المتشكين منه الآ وبلغنا الخبر بأن دولة متصرفنا رستم باشا قد صوّر عملنا القانوني حركة فساد وعصيان وحمل الاعتقاد بهذا التصور البعض من مصافكم الجليل فحرر واياهم الى الباب العالي طالباً اجراء القصاص على سيادة المطران بطرس البستاني احد مطارين طائفتنا الاجلاء موهماً انه السبب الوحيد لما صار ضد دولته وان ما حدث حتى الآن من ذلك انما هو فتنة تستوجب المؤاخذة .

« وانه بناء على هذا الالتماس المستند الى اوهام فارغة قد استحصل دولته امراً سامياً من جانب الباب العالي باجراء القصاص على سيادة المطران بطرس المشار اليه ، بابعاده من مركز مطرانيته ، الامر الذي اوغر صدورنا وصدور ابناء الطائفة المارونية باسرها .

« اولاً : لانه مبني على اوهام لا اصل لها .

« ثانياً : لان التشكي من دولته صادر من جمهورنا ولا حاجة لان ينسب الى سيادته

« ثالثاً : لانه لم يسبق لعمل دولته هذا من مثيل في الجور والجسارة على مطارين طائفتنا الاجلاء الذين ساعدوا دائماً الحكومة في اشغالها في كل ما فيه راحة الجبل وسرور دولتنا العلية . ومن ثم فقد اقبلنا الآن بعريضتنا هذه لسعادتكم مقدمين بها احتجاجنا على عمل دولته المنوّه به ومعاً ندرّك كل ما يحدث من الآن وصاعداً في الجبل من

الفتن والخصومات وغوائلها على عاتق دولته الذي اوصله بغيه الى ما لم نكن بانتظاره ولم نسمع به من قبل.

« وها اننا نحن المتشكين من تصرفات دولته الظالمة التي اعدمتنا الحرية الممنوحة لنا من مراحم دولتنا العلية بتأييد دولتكم الفخيمة ، فاذا كانت تشكياتنا صوابية فنحن غير عاصين على اوامر الحكومة العادلة وليس لرؤسائنا الروحيين مدخل معنا في هذه الامور

هذا ما نحتج به وندرك غوائله على عاتق متصرفنا رستم باشا تجاه سعادتكم وتجاه سفراء دولتكم الفخيمة مسترحمين ان تنعطفوا بانقاذنا من المهالك التي يظهر ان افكار دولته متجهة الى ايقاعنا فيها لا محالة ونختم... التواقيع

برقية الاهالي الى الصدارة والسفارات

وهذه صورة برقية رفعها كثيرون من اهالي القرى اللبنانية بالعربية والفرنسية الى الصدارة العظمى وسفارات الدول الكافلة في الاستانة يشكون فيها رستماً. وهذا نصها :

« استبداد رستم باشا اوجب التشكيات منا نحن اهالي...

« ان ثقتنا بعدالة دولتنا والدول الكافلة نظام لبنان جرأتنا على تقديمها . رستم باشا منعها بوسائل قمعية واستحصل تشكرات بعضهم بالجبر الادبي وبدسائس موظفيه تحويلاً لمسؤولية استبداده. وملاشاةً لمفعول التشكيات اخترع توهماً خطر الفتنة ونسبه الى المنسنيور بستاني . فطلب واستحصل ابعاده . هذا التصرف كسر خاطر اكثرية اللبنانيين ، وان هيئة اجراء الابعاد المستغربة اوقعت البلاد في خطر . نسترحم من عدل دولتنا والدول الكافلة اتخاذ اعراضنا بالاعتبار ووقاية البلاد من اليأس والدمار » . التواقيع

صدى نفي المطران في صحافة ذلك العصر

ولقد كان لخبر نفي المطران في صحف لبنان لذلك العصر اصداء متباينة اذ كانت كل صحيفة تقابله وتعلّق عليه بما يتلاءم مع ميل صاحبها وخطته وما كان له من مربح ومصلحة كما هي حالة بعض صحفنا في هذا العصر. وها نحن نأخذ عما وقع بين يدينا منها بعض مقاطع تساعدنا على الاستزادة من جلاء ما يحيط بذلك الحادث من ملابسات ومتناقضات ولو من باب الغالبية والتقريب :

في جريدة الجوائب

فما قالت جريدة الجوائب بتاريخ ٢٥ جمادى الاخرة ١٢٩٥ :

« كنا نظن ان لحضرة دولتلو رستم باشا متصرف لبنان حذقاً ومهارةً في المصالح السياسية وبذلك يتمكن من اتخاذ الوسائل اللازمة لازالة الشغب في الجبل ، ولمراعاة مطالب اهله ، والتمسك بمضمون المعاهدة التي تكلف الباب العالي اجراءها .. فتبيّن الآن انه لم يراع هذا الاصل فانه عوضاً عن اجابة مطلوب الاهالي عمد الى تنفيرهم وكسر خاطرهم والقاء الوحشة ما بينهم ولكن يمكن الاعتذار عنه بانه طلياني الاصل يجهل لغة اهل الجبل وعاداتهم واطوارهم ، فلم يمكنه احسان معاملتهم ...

« واذا بقي الباشا المومأ اليه على هذا المسلك الذي سلكه فسيضطر والحالة هذه الى واحدٍ من امرين : اما ان يوقع في الجبل فتنةً عظيمة ، واماّ ان يستعفي من مأموريته ، وعندنا ان الامر الثاني اليق بحاله وانفع لاستقباله » .

الى ان نشرت عن لسان مكاتب لها من بيروت ممن يوثق بكلامهم على حدّ رأيها قالت :

« والدليل على ان فعل المتصرف لم يوافق ظروف الاحوال هو ان اهل جنوبي لبنان عادوا الى تجديد شكواهم من المتصرف ، فعمد الى معاملتهم بالجبر ، وبجن بعض مشايخهم ، ثم طلب من الباب العالي نفي المطران بطرس البستاني ووافق على ذلك سفير فرنسة (الحاقد عليه لانه لم يأتِ لزيارته حين وفد الى بتدين) ونائب رئيس مجلس الادارة (لانه موظف) وقنصل انكلترة ارضاء لبعض الدروز عملاً بسياسة دولته، وأبلغ القنصل الفرنسي البطريرك امر النفي ووجوب اناطته بعهدته فابى وارسل يطلب المطران بنية ازالة الجفاء بينه وبين المتصرف ، وهو ما كان يجب ان يعمله من مبدإ هذا الامر ، واذا بتلغراف يرد من الباب العالي يتضمن الامر بالنفي . وللحال صار تنفيذه ... ومسؤولية هذه المحنة تعود على البطريرك ، اذ كان من واجبه اجراء الصلح بين المتصرف والمطران قبل ان تفوت الفرصة ... اما تصرف المطران بطرس حين تبلغه الامر فقد كان على غاية القصد اذ كان في امكانه عمل ما يخلّ بالراحة ، ولكنه لم يفعل وبذل جهده في منع اي فساد وله الفضل في ذلك .

« اما الباب العالي فلا يصحّ لومه على نفي المطران ، وان كان عمله مخالفاً للاصول ، ولم يعهد له نظير في سالف الدهور ، لأنه لم يأمر بذلك الا بناء على انهاء المتصرف وقنصلي فرنسة وانكلتره وموافقة بطريرك الروم ...

« والحاصل ان جميع الموارنة يظهرون أسفهم على ما جرى وعلى تسامح بطريركهم فيه ... والظاهر ان هذه الحادثة اقلقت المتصرف بدليل ما يقال عن انه عازم على السفر الى اوربة لكونه يرى ان بقاءه في الجبل سيجر عليه عراقيل عظيمة ومشاكل كثيرة مشؤومة » .

وقالت بتاريخ ٦ آب ١٨٧٨ (لمكاتب) :

« ما زال الاستياء من نفي المطران بطرس البستاني الى القدس يزداد تفاقماً . وقد نشط رؤساء الموارنة واعيانهم الى رفع عرائض الاحتجاج الى الدولة العثمانية وممثلي الدول الكافلة . والمقول ان البطريرك كتب اخيراً بهذا الشأن عريضة الى المرشال مكماهون رئيس جمهورية فرنسة يعرب له فيها عما كان لنفي المطران من اثر سيئ في نفوذ فرنسة صديقة الموارنة ومحامية الكثلكة في الشرق .

« ووجه البطريرك لوماً الى السيد تريكو قنصل فرنسة في بيروت لانه هو الذي سهل ذلك النفي ، في تسرعه بموافقة الباشا عليه ، عاملاً في ذلك ضد سياسة دولته ومتسبّباً في تنفير قلوب الموارنة منها » .

انحراف الموارنة الى روسية

وجاء الى الجوائب في رسالة بالتاريخ نفسه عن لبنان :

« ان الموارنة لشدّة استيائهم من موقف السيد تريكو قنصل فرنسة في بيروت عن نفي المطران بطرس انحرفوا عن فرنسة التي كانوا يرجون منها الحماية وأخذوا يميلون الى روسية. ولهذا جرت مفاوضات ومكاتبات بين كثيرين من اعيانهم واركان الروس في سان بطرسبورج فارسلت دولة روسية الى البرنس ليبانوف سفيرها في اسطنبول مأمورية سريّة كثر التكهن حولها ولم يُعرف كنهها حتى الآن ... » .

وعلقت الجوائب على هذه الرسالة بالعبارات التالية قالت :

« اننا نتأسف على كون الباب العالي لم يمكنه ان يصلح بين اللبنانيين ومتصرفهم في حين انهم اخلصوا ولاءهم للدولة في الحرب الاخيرة (بينها وبين روسية) اذ كان يمكنهم ان يحدثوا شغباً واضطراباً لو فتحوا آذانهم لسماع من كان يعدهم ويمنيهم من الخارج ولكنهم لم يفعلوا .

« اما ما فعلته فرنسة هذه المرة فسيقلّل من نفوذها بين الموارنة لا سيما والانكليز الآن على بعد بضع ساعات من شطوط لبنان ، ويعملون كثيراً لاجتذاب مسيحييه اليهم

« ان اللبنانيين هم اكثر الناس ذكاءً وكدّاً واجتهاداً ، ويضمرون للسلطان اخلص الولاء وعندهم اسم السلطان عبد الحميد مقدس محترم (كذا) ولا يخفى عليهم ان لمولانا حسن مقصد نحوهم ، ومن الواجب العلم ان قرب الانكليز من بيروت (كانوا يومئذ في مصر وقبرس) يوجب على الباب العالي الاهتمام باجراء الاصلاحات المرومة في لبنان التي نراها في مقدمة الامور الواجب عليه الاهتمام بها » .

في ثمرات الفنون

وقالت جريدة ثمرات الفنون بتاريخ ١٨ جمادى الاخرة ١٢٩٥ ما يلي :

« بلغنا انه صدر امر من لدن الباب العالي بابعاد حضرة المطران بطرس البستاني مطران صيدا وصور وجانب من لبنان ، الى جهة القدس الشريف ، بناء على ما تحقق عنه من انه المسبب للتشكي في انحاء الجبل ضد الحكومة ، بما اوشك ان يذهب بالراحة التي يتمتع بها اهاليه ، ويحسدهم عليه الجار .

« ففي مساء الجمعة الماضي توجهت فرقة من عساكر الدراغون مع فرقة من العساكر اللبنانية الى بيت الدين حيث يقيم حضرة المطران المومأ اليه وذهبوا به الى صيدا رأساً ، ومنها الى صور حيث تعب من الطريق ، وكان ذلك بكل سكون لان الاكثرين موثرون بقاء الراحة التي يتمتعون بها على كل شيء ، ولا يلتفتون الى وساوس أولي الاغراض الذين هم اقل من القليل ، لذلك حبطت مساعيهم ولم يصلوا الى غايتهم لعدم نجاح مبادئهم

« وقد طلبت حكومة الجبل من حكومة بيروت بعض رجال معينين من اهالي لبنان فارسل من وجد منهم الى مركز لبنان فصار توقيفهم لاجل المحاكمة واجراء عقابهم » .

في لسان الحال

وقالت جريدة لسان الحال في التاريخ نفسه :

« بلغنا من اخبار لبنان انه ورد امرنامة تلغرافياً من مقام الصدارة العظمى بابعاد حضرة المطران بطرس البستاني من لبنان الى القدس الشريف ، وارجاع اللبنانيين وكلاء دير القمر الى لبنان .

فارسل دولة رستم باشا ثلاث فرق لبنانية وفرقة من الدراغون تحت رئاسة عزتلو سليم بك الطرابلسي الى بيت الدين مركز حضرته وبلغه جناب البك مأموريته فسار الى القدس الشريف برًا ومعه بعض العسكر.

« والقت ضابطة بيروت القبض على بعض وكلاء اللبنانيين وارسلوا الى الحدث مركز متصرفية لبنان الشتوي فاودعوا السجن. اما مأمورية عزتلو اسكندر بك التويني لدى غبطة بطريرك الطائفة المارونية ومأمورية جناب الياس افندي ابي زينون فلم نتحقق امرها. وقد تداولتها الالسن كثيراً وشاعت عنها اخبار لا يُركن الى صحتها، ومتى وقفنا على تفاصيل المسألة جليًا نبين واقعة الحال.

« وبلغنا بعد ذلك ان الوكلاء المسجونين أُحضروا الى مجلس الادارة ليستنطقوا فقرَّر بعضهم انهم تشكوا الى الباب العالي ولا يقبلون ان يقرروا شيئاً بدون امره، وقال اثنان منهم من دير القمر انهما يجهلان القراءة والكتابة وكل ما يعرفان انهما وقعا شكوى بسبب ابعاد المركز عن الدير، فدوّن المجلس هذا الكلام وطلب رئيسه اصدار الحكم عليهم فرفض الاكثرون، وطال الاخذ والردّ دون ان يوضع قرار. واخيرًا أُطلق سراحهم. ولا تزال الحكومة تسعى في القبض على ثلاثة من هؤلاء مجهولي الاقامة ولكنها لم تجدهم».

وجاء فيه ايضاً :

« بلغنا عن مسألة لبنان ان الطائفة المارونية وغبطة بطريركها والسادة مطارنتها تكدروا من ابعاد المطران بطرس البستاني، ولا سيما من الطريقة التي أجريت، وان سيادته توقف في عكا عن السير لما ناله من تعب في الطريق، وهو شيخ مسنّ، وقيل ان اهالي دير القمر واهالي جزين وكثيرين من ابناء الابرشية أقفلوا كنائسهم وامتنعوا عن القيام فيها بواجباتهم الدينية ما دام مطرانهم غائباً عن مركزه.

« هذا والى الآن لم تنجل المسألة انجلاء صريحاً يمكننا من التوضيح ».

في حديقة الاخبار

وجاء في حديقة الاخبار وقد كانت من جانب رستم :

« لم يخفَ على احد الفساد الذي تحرّك مؤخرًا في بعض اطراف لبنان. ولما كان واحد او اثنان من مطارنة الجبل المذكور قد استمر على تحريك واغفال البعض من الاهالي وتهييجهم الى مقالات ومفاسد واراجيف لا ينجم عنها سوى تشويش اذهانهم

وتخديش راحتهم صدرت لهم منذ مدة نصائح وانذارات من جهات متعددة رأساً وبواسطة اداراتهم الروحية الا انها لم توثر واستمرّ حضرة المطران بطرس البستاني مطران الشوف وصيدا على تحريك واغواء بعض الاهالي حتى انه وجد من قسوسه بعض من يحركون اهالي القرى على الهياج .

« ولما كان استمرار هذه الحال يولد محذورات وشقاقاً بين الاهالي وبما ان الحكومة السنية يهمّها اكثر من كل شيء تأمين الراحة والهدوء التزمت ان تجري بالشدة والصرامة فصدر امر الباب العالي بتلغراف سامٍ كان وروده يوم الجمعة الماضي باخراج نيافة المطران بطرس البستاني من جبل لبنان وارساله الى القدس الشريف التي تعينت لاقامته بموجب الارادة السنية، وكان ذلك بموافقة افكار سفارات الدول العظمى، فأمر دولة رستم باشا متصرف لبنان باجراء الامر العالي بواسطة عزتلو سليم بك الطرابلسي امير آلاي بك جندرمة لبنان ، وعزتلو مونا سترسكي قومندان الدراغون ، فذهبا الى بيت الدين مركز نيافة المطران المومى اليه ، ومعهما قدر كافٍ من الدراغون والجندرمة احتياطاً لتأمين الاجراء للأمر .

« وكان وصولهما الى هناك صباح السبت الماضي باكرًا ، وللحال أجريا الامر العالي وسار نيافة المطران المومى اليه الى القدس الشريف التي هي ايضاً من ابرشيته مرفقاً بقسم من خيالة العساكر المأمورة برعايته وبحسن ايصاله الى المكان المقصود مع ملاحظة راحته في الطريق .

« ولما كان بعض اشخاص من اهالي الجبل الذين تحركوا للفساد واكثرهم من الاشخاص الاعتياديين الذين لا معتبر بينهم من الوجوه ، جعلوا ذاتهم وكلاء لبعض اطراف الجبل دون ان يكون احد كلّفهم بهذه الوكالة وقد الفوا نوع عمدة او شبه جمعية في بيروت واخذوا يسعون بترويج الفساد واغواء من يجدونه او يراسلونه من اهل الجبل الى حركات هياج، تحرَّر من طرف متصرفية لبنان الجليلة الى متصرفية بيروت العلية بمسكهم فجرى القبض على اكثرهم وارسلوا الى الحدث مركز متصرفية لبنان الشتوي تحت الحفظ لكي يجري تمثيلهم امام الحكومة اللازم تمثيلهم لديها . وبهذه الاجراءات توطّد الامل باستمرار تمكين الراحة العمومية وعدم وقوع اسباب تفضي الى الخلل في لبنان » .

موقف الموارنة من فرنسة بعد حادث النفي

يصوّر بحق ذلك الموقف كتاب وجهه الخوري الياس الحويك (البطريرك بعدئذٍ) الى الخوري يوسف الزغبي « المطران بعد حين » وقد كان يومئذٍ في باريس . وهذا بعض ما قاله :

« ان الحادث المكدر الذي وقع اخيرًا لسيادة المطران بستاني كان عملاً باطلاً عدوانيًّا لأن الرجل كما تعلمون منزّه بمراحل عن كل تهمة باطلة ، لا تتفق مع تقواه ورصانته ووداعته ... فضلاً عن انه لم يكن له ولا لاحد من طائفته ادنى فائدة مما نسب اليه زورًا وافتراء .

« ان هذا الحادث لخطب جسيم خارق العادة كسر خاطر ابناء الطائفة المارونية كلهم ولم يبقَ منهم واحد الا هاجت به حميته الطائفية وفار دمه الماروني وتكدر مما اصيب به جسم الطائفة المعنوي بشخص احد روؤسائها الاكارم .

« ومما زاد تأثر الموارنة خاصة هو تدخل وكيل قنصلاتو فرنسة في بيروت بهذه المؤامرة والحاقه ضررًا فادحاً بالطائفة التي طالما فاخرت بتعلقها بالامة الفرنسية وبرجال دولتها ولم يكن احد من الموارنة يصدق ان ممثل فرنسة التي طالما حامت عن الموارنة واحسنت اليهم ورغبت في نجاحهم وتعزيزهم يطابق الآن ويساعد على كسر شأنهم وخذلهم حتى يفقدوا ما لهم من نفوذ وسطوة بين جيرانهم من سائر الطوائف .

« حقـّاً ان تصرف مسيو كيز بموافقة رستم باشا وقنصل انكلترة على نفي احد المطارين الموارنة دون ذنب موجب من غير محاكمة ولا سؤال قد جعل خصوم فرنسة في هذه البلاد يشمتون بالموارنة لتعلقهم بها معتبرين انه لم يعد لهم من يدافع عنهم في مصائبهم

« ومن العجب العجاب ان مسيو كيز ما زال مصرًا على غيه وعاملاً على تزكية عمله وتهديد باقي المطارين والبطريرك نفسه بمعاملتهم كما عومل البستاني فيما اذا حاولوا الاسترحام من لدن السلطات العليا لانصاف المظلوم وتقويض شأنهم وشأن طائفتهم وذلك لشعوره بان الضربة التي انزلها بالموارنة كانت جد قاسية فاراد ان يوهم روؤساءهم باستحالة الاصغاء اليهم حتى لا يتشكوا من تصرفه المذموم .

« ان البطريرك والمطارين عقدوا عدة اجتماعات اعلنوا فيهـا سخطهم على ما جرى وتكدرهم واغتمامهم وبادروا حالاً الى الاحتجاجات القوية سواء امام قناصل الدول في بيروت او بالكتابات الرسمية التي قدموها تحت تواقيعهم واختامهم جميعاً الى الصدارة العظمى

في الاستانة والى المرشال مكماهون رئيس جمهورية فرنسة والى نيافة رئيس مجمع نشر الايمان المقدس بينوا فيها براءة المنفي من كل ذنب وعظم الاهانة التي لحقت به وبالطائفة من جراء ابعاده والتمسوا ارجاعه بكرامة والتعويض عن الاهانة العامة بما يجبر الخواطر ويرفع الشأن المنخفض.

«هذا ما اقتضى ايضاحه لكم ليكون معلومكم وتسعوا في ابلاغ ما يلزم ويناسب الى وزارة الخارجية الفرنسية لتكون حقيقة الواقع في هذه القضية معروفة لديها ولا سيما لجهة براءة المنفي مما اتهم به ومن حيث امتناع الموارنة واكليروسهم عن ايقاع دولة فرنسة في مشكلة مع احد بايقاظ المسألة اللبنانية او غيرها من المسائل وان كل ما نتمناه الآن هو اصلاح الغلط الذي ارتكبه وكيل قنصلاتو فرنسة الذي لولاه ولولا موافقته لما صار شيء كما صار، وان مطلوبنا الممكن الحصول عليه من فرنسة بسهولة: تغيير مسيو كيز وارسال قنصل جديد يكون يحب الموارنة والاهتمام بارجاع مطرانهم بشرف الى كرسيه، وبانقاذهم من استبداد متصرفهم الحالي، وتعيين آخر أحسن منه. حينئذٍ يعرف الجميع ان فرنسة لم تهمل الموارنة الذين ينتمون اليها ويفتخرون بحمايتها ويعيدهم الى مواصلة الدعاء لها بالعز والتأييد.

اخوكم

الخوري الياس الحويك

تبرئة البستاني

واخيرًا بُرِّئ البستاني واخذت المراجع كلها تتسابق للوقوف بجانبه:

وهكذا ادّت تلك المساعي الرصينة التي قام بها انصار المطران الى تبرئته مما نسب اليه، وحملت اللبنانيين جميعاً على اثبات تلك البراءة والمطالبة بعوده الى لبنان فأنصت اليهم الباب العالي خصوصاً بعد ان رأى فرنسة وروسية تتسابقان لعضدهم، واول شيء فعلته الاستانة ارسالها برقيات الى متصرف القدس لكي يترك للمطران حريته التامة ويحيطه بكل انواع الرعاية والتكريم، ريثما يُبتّ قريباً في امر اعادته الى كرسيه.

ماذا عملت فرنسة

وبعد ان وصلت الى فرنسة تلك العرائض التي نشرنا بعضها قبلاً استاءت جدًّا مما فعله قنصلها في بيروت وطلبت منه للحال ان يصلح غلطه احتفاظاً بمحبة اصحابها الموارنة، فكتبت الى سفيرها في اسطنبول السيد فورنيه ان يعجّل في استصدار امر من الباب

العالي بالافراج عن المطران ، على أن يعود الى لبنان على ظهر بارجة حربية فرنسية ، فقام السفير بما طلب منه في اسرع وقت واجيب الطلب وأصدر الباب العالي الامر برجوعه الى لبنان. كما أصدرت فرنسة امرًا الى البارجة الحربية « لينوا » بان تذهب الى مياه لبنان وتتقيد باوامر بطريرك الموارنة في اعادة المطران بطرس البستاني الى مقرّ ابرشيته ، مشمولا بكل مظاهر الرعاية والتكريم ، ثم اشارت باستبدال قنصل جديد لبيروت بالمسيو تريكو بعد عودة المطران واستقرار الحالة.

ووقع خبر رجوع المطران على تريكو وقوع الصاعقة وكان قد عاد من فرنسة الى بيروت منذ مدة قصيرة ، ومن ثم اخذ يفكر في كيف يغطّي ما جناه ويرمّم ما هدمه، خاصة بعد ان وردته اوامر من رؤسائه بأن يحسن علاقاته مع الاكليروس الماروني لان فرنسة على ما افهمته لا يمكنها التخلّي عن اصدقائها الموارنة ، ولا اهمال مطرانهم المنفي

وهنا نرى من المفيد استكمالا للموضوع اخذ ما ألمعت اليه بشأنه ترجمة الحويك في الصفحة ٨٣ قالت :

مراوغة القنصل تريكو

« ومن بعض ما دار في خلد القنصل تريكو بعد ان عرف بان الاوامر العليا صدرت بعودة البستاني الى مقره اقناع البطريرك بان تكون اقامته الدائمة في بكركي ، لا في ابرشيته، ولكن البطريرك مانع في امر الموافقة على هذا الطلب وكل ما سلم به ان يصل المطران الى بكركي بطريق جونية وبعد ان يرتاح فيها زمناً يواصل سفره للاقامة في مقر ابرشيته وبسبب ذلك وقع خلاف بينه وبين القنصل الذي اوفد اليه ترجمانه السيد الياس غانم، وكان البطريرك في عين ورقة ليقنعه في امر ابقاء المطران دائماً في بكركي ، ولكن الجواد كبا به (بالترجمان) فسقط عن ظهره وتعوّه ، وارسل يعتذر عن العودة الى قنصله ، فالحّ عليه القنصل : « بان احضرْ واطلعني على ما دار بينك وبين البطريرك ، ولو نقلوك على محمل ».

« ولما تعذر على الترجمان تلبية تريكو اوفد هذا الى البطريرك في اليوم التالي ادمون بورطاليس احد موظفي السفارة ، وكلفه الاصرار على تأييد رأيه بابقاء المطران في بكركي. واتفق ان دخل على البطريرك المطران يوحنا الحاج واصغى الى الحديث الذي كان يدور بينه وبين بورطاليس فاستاء من هذا الاخير وعدّ الحديث تدخّلاً في شؤون البطريركية لا يمكن القبول به ، ثم أخذ وجهه يتربّد حين سمع بورطاليس يتمادى في غيّه وتبلغ

به الحدّة الى توعد البطريرك بان القنصل اذا لم يجارَ في طلبه سيعمل ما لا يستحب. (قال ذلك وفي نيته ارهاب البطريرك لينال منه حاجته).

« عندئذ انتهره المطران الحاج بثبات جأش قائلاً : « ولماذا هذا التمادي في الكلام؟... نحن احرار في تدبير شؤوننا . وهذا تدخل لا نرضاه . ومع ذلك لكم ديوانكم ولنا ديواننا . فعلامَ الاخذ والرد والحديث فيما لا طائل تحتهُ . ابعثوا الينا ما يبدو لكم كتابةً ، ونحن نجاوبكم على كتابتكم بما نراه . وكفى » .

« اجاب بورطاليس وهو متجهّم الوجه مهدداً : « أأنت تكلمني بمثل ذلك؟ انا لا اجيب واكتفي بتدوين كلامك وايصاله الى مرجعه . وسترى ما ينجم عنه » .

« قال المطران محتدماً : « افعل ما شئت ، وليس لمثل خطابك الا مثل هذا الجواب »

« وهنا نهض بورطاليس مغتاظاً وانصرف وهو يكاد لا يميز طريقه ، فقام الحاج في اثره ولحق به وناداه فيما كان نازلا على الدرج بما هو بالحرف : « رُحْ خبّر عما سمعت ! »

« وبعد عوده الى القاعة لامَهُ البطريرك قائلاً : « يا اخانا لم يكن من الموافق ابداء مثل هذا الاحتدام . ان الرجل سيبلّغ القنصل ما جرى والعاقبة لن تكون حسنة »

« قال المطران : « خفّفْ عنك يا صاحب الغبطة . ان النتيجة ستكون غير ما تظن وستحصل على ما في نفسك وما كان الذي أقلقك ليردني عما فعلت .. وغداً سيبعث الينا القنصل موفداً آخر يسترضيك ويعلنك قبوله بما انت راغب فيه » .

الاميرال الفرنسي في بكركي

« وكان في اليوم التالي ما المع اليه المطران الحاج فقد وفد على البطريرك اميرال البحر الفرنسي نفسه وترجّاه بأن يكتب الى المطران بطرس ليغادر القدس وانه سيوافيه بذاته الى يافا ليحمله على دارعته وينزله في جونيه كما يشاء البطريرك ومنها يصعد الى بكركي وحين يريد يوم ابرشيته ، وان القنصل تريكو سيأتي بذاته الى بكركي للاشتراك في استقباله (ولكن القنصل لم يأتِ يوم الاستقبال كما وعد الاميرال وبقي مقاطعاً المطران طوال مدة اقامته في بيروت لا يكلمه ولا يزوره بسبب ما كان يضمره له من كره) .

عودة المطران

« وعمل البطريرك بما طلبه الاميرال وكتب الى المطران رسالة حملها اليه المدبر يوسف الشبابي من الرهبانية الحلبية ، وفيها يستدعيه من منفاه ، فغادر القدس الى يافا وركب الدارعة الفرنسية التي ألقت مراسيها في ميناء جونية في ٩ تشرين الثاني ١٨٧٨ فبادر القوم لاستقباله استقبالا فخماً لم يسبق له مثيل ... وقد صحبه الاميرال الى بكركي ثم ودعه مشيعاً بالاكرام .

« ومكث المطران مدّة في بكركي ، وقد عاودنا الكرة على الحكومة الفرنسية بلزوم عودته الى مقره بتدين فأجيب الطلب وتمّ ما تمنيناه ، ولم يمض ردحٌ من الزمن حتى عزل تريكو من منصبه ويقال انه خولط في عقله وقضى نحبه في البيمارستان . وكذا اصاب غيز على ما يقولون .

ندم رستم باشا

ولقد ساء الجميع ما اقدم عليه رستم باشا وندم ولات ساعة مندم على ما فعل . قيل انه حين عمد الى نفي المطران استشار في ذلك احد المقربين اليه واستطلعه رأيه في ابعاد البستاني وفيما اذا كانت الطائفة ستتأثر لذلك ، فأجابه : « ان ٩٥ في المئة من ابناء الطائفة يكونون ممتنين لترشيلة افندينا فيما اذا قام بنفيه » وهذا الشخص عرفناه ولكنا نغفل ذكره لا تصريحاً ولا تعريضاً حفاظاً على سمعته . (والترشيلة هي في مفهوم تلك الايام حذاء خفيف يسمونه ايضا « مشاية او بابوجاً او برطوشة » وفي الفصحى « خفّ ») .

وما لبث رستم باشا ان تبين خطأه فاخذ يحاول الرجوع عنه ولا سيما عندما رغب في تجديد مدة متصرفيته بعد ان قضى في ربوعنا عشر سنوات ، ولكنه لم يفلح لأن الرأي العام كان ناقماً عليه ، وسمع يوم نزل البحر مسافرًا يردّد القول : « سامحهم الله . لقد خدعوني ! »

وختم صاحب ترجمة الحويك هذا الكلام بقوله : « وعلى الرغم مما بدا من رستم باشا من المناوأة والجفاء فلا سبيل لانكار ما كان مجمَّلاً به من الصفات الطيبة ، فانه كان عاقلاً ، قديرًا في الادارة ، عادلاً . ومما امتاز به منعه الرشوة من لبنان وحين جربنا غيره ذكرناه ووجدناه خيرهم ، رحمه الله ! » .

لمن كان الفضل في عودة المطران بطرس

وبعد ان عاد المطران بطرس أخذ كل من المراجع الرسمية يحاول نسبة الفضل اليه في ذلك العود اكتساباً لمودة اللبنانيين من انصار المطران .

يزيد ذلك ايضاحاً نشر ما كتبته الجوائب حول هذا الموضوع قالت :

« ارسلت فرنسة بارجة حربية الى لبنان ليعود المطران عليها ولكن ذلك ما كان ليتم لو لم تتعلق الارادة السنية (اي ارادة السلطان) بذلك .

« ولقد زعمت بعض الصحف ان الفضل في تسوية هذه المسألة يعود فيها الى متصرف الجبل على انه لا يعود في الحقيقة الا الى الحضرة العلية السلطانية اولا ثم الى الصدر الاعظم ثانياً .

« ولا يلزم ان تُنسى ايضاً المساعي الخيرية التي بذلها مسيو فورنيه سفير فرنسة بهذا الخصوص حيث تحقق عنده ان من مصالح فرنسة تسوية هذه المسألة سريعاً ، على وجه المسالمة . وقد كان كثيرون من اهل بيروت كتبوا الينا وسألونا عن نتيجة هذه القضية فاجبناهم بان ارادة مولانا المعظم تعلقت باعادة المطران المشار اليه الى الجبل . فما وقع الآن يؤكد ما قلناه لهم . والحاصل ان اهل لبنان لا بد ان يعترفوا بما ابداه هذه المرة مولانا وسلطاننا المعظم من حسن القصد بهم . كيف لا وهو مهتم دائماً بخير رعاياه فاذا كان بعض المأمورين يخالفون ارادته وحسن مقاصده فالتبعة عائدة عليهم لا محالة ».
وها نحن نعود الى وصف ما لاقاه المطران في القدس بعد وصوله اليها نقلاً عن صحف تلك الايام :

حالة المطران في القدس بعد وصوله اليها

ولم يلبث متصرف القدس بعد ان عرف ما للمطران بطرس من مقام كبير وما تلعبه قضيته من دور يكاد يكون دولياً، أن أصدر امره بان يحاط بكل انواع الاجلال والتكريم وترك له الخيار في ان يسكن حيث يشاء فاختار دار البطريركية اللاتينية وانتقل اليها .

وفي يوم ٢٩ حزيران عيد القديسين بطرس وبولس اقام سيادته قداساً حبريًّا بمناسبة عيد شفيعه حضره جمهور من الاعيان وجلة الاكليروس وطلبة المدارس والقى فيهم خطاباً في امتيازات القديس بطرس هامة الرسل . وبعد القداس اقاموا له حفلة هنأوه فيها بالعيد وتمنوا له قرب النجاة من منفاه والعود الى كرسيه معززًا منصورًا .

وفي اول تموز تلقى كتاب تهنئة في غاية الرقة من متصرف القدس فسار المطران لزيارته وشكره فاستقبله المتصرف بالايناس والتكريم وقال له انه تكدر كثيرًا من المعاملة القاسية التي عومل بها في غيابه ووعده بأنه سينزل العقاب بالمتطاولين عليه ولكن المطران طلب منه الصفح عنهم لانهم كانوا غير عارفين ببراءته وانه هو يسامحهم من كل قلبه.

وفي اليوم الثاني حضر المتصرف الى دار البطريركية ورد الزيارة لسيادة المطران بطرس واستماحه عذرًا عما مضى وقال انه حرّ بالذهاب الى حيث يشاء بدون اعلام الحكومة بالامر ليرفق بخيالة من قبلها كما كان يجري في السابق.

وفي ٨ تموز اخذ سيادته يزور الاماكن المقدسة مرفقاً بكاهنين من دار البطريركية اللاتينية وامامه قواص هذه الدار فاستقبله الآباء الفرنسيسيون في بيت لحم بما لا مزيد عليه من الاكرام وتشرّف بزيارته وجوه الطائفة اللاتينية في تلك المدينة يقدمون له واجب الاحترام والاجلال.

وفي تاسع تموز توجه سيادته الى بيت جالا يرافقه عدد من رجال الاكليروس وفريق من الكهنة الموارنة فاستقبل فيها بالترحاب على مسافة نحو ساعة من البلدة. ودوّت اصوات الاجراس اجلالاً لسيادته ولاقاه رئيس المدرسة البطريركية مع لفيف الكهنة والتلاميذ.

ومن هناك بينا كان سيادته يروم مواصلة الزيارة لسائر الاماكن المقدسة والتبرك بمشاهدتها وصلت اليه اوامر وزارية من الاستانة بالافراج عنه وعرف ان فرنسة ارسلت بارجة حربية لنقله وان وفودًا حضرت من لبنان لمرافقته فلم يسعه عندئذٍ الاّ العودة الى الدار البطريركية على وجه السرعة ومباشرة التأهب للسفر في اقرب فرصة.

فرنسة تعوض عن هفوتها

قدمنا الكلام في ان أمرًا سلطانياً صدر من عاصمة الدولة العثمانية باعادة المطران بطرس البستاني الى لبنان على غاية ما يكون من الاكرام والاجلال وذلك بتوسط مسيو فورنيه سفير فرنسة المبني على اشارة عليا من دولته. وقد ابلغ ذلك الامر الى من يلزم في لبنان والقدس للعمل بموجبه. وابت دولة فرنسة الا التعويض عن هفوة قنصلها في بيروت مسيو تريكو فوجهت الى هذه البلاد بارجة من اسطولها اسمها « لينوا » ليستقلها الحبر الجليل في طريق عودته. وفي طريقها الى يافا عرجت على بيروت فأعلنت ذوي العلاقة عن مهمتها معربة عن استعدادها لاستقبال كل من يشاء امتطاءها في تلك السفرة ليكون في معية المطران عند قدومه فوفد عليها بعض ذوي قرباه من آل بستاني ووفود

من البطريركية المارونية والقنصلية الفرنسية وحكومة لبنان . وها نحن ننقل بعض ما نشرته الصحف في ذلك الحين بهذا الخصوص زيادة في جلاء الحقيقة قالت الجوائب : « بعد ان وصلت الدارعة « لينوا » الى ثغر بيروت فاوض مسيو تريكو قنصل جنرال دولة فرنسة الفخيمة غبطة بطريرك الطائفة المارونية البطريرك مسعد في مسألة حضرة المطران وارسل الى غبطته ترجمان القنصلاتو ثم الكنشلير واخيرًا توجه كومندان الفرقاطة . ويقال ان غبطته أجاب على طلب القنصل في ارجاع حضرة المطران وان الكومندان يتوجه بالبارجة الى يافا في هذا الشأن ويحضر المطران الى جونيه ومن ثم يتوجه الى بكركي فيقابل غبطة البطريرك ولا يلبث ان يتوجه الى كرسيه في بيت الدين . فأبلغ مسيو تريكو قنصل دولته في القدس ليخابر حضرة المطران بطرس حتى اذا أجاب بالايجاب لا يلبث ان يرجع في اقرب آن » .

سفر المطران من القدس الى يافا

وقالت جريدة لسان الحال في تلك المناسبة :

بلغنا انه عند وصول الفرقاطة الفرنسوية « لينوا » الى يافا خرج القومندان وكنشلير قنصلاتو فرنسة في بيروت وطبيب الفرقاطة ومعتمد غبطة بطريرك الموارنة واسكندر افندي طرابلسي وجماعة من القواصة وانفار من عسكر الفرقاطة الى القدس حيث وجدوا حضرة المطران بطرس البستاني منحرف المزاج فأقاموا يومين وكان حضر لسعادة متصرف القدس تلغراف من الصدارة يعلن توجه الارادة السنية بارجاع سيادته فأجرى سعادته الاوامر وأصحبه بالخيالة وخرج سيادته ومن ذكر من القدس الشريف وشيعه غبطة بطريرك اللاتين وارسل معه كاهنين رافقاه حتى كرسي غبطة بطريرك الموارنة في كسروان . كذلك شيعهم قنصل دولة فرنسة بقواسة الى يافا وعند وصولهم اليها استقبلهم جمهور من تراجمين قناصل الدول فيها وقواستهم رسمياً وجمهور من ذوات البلدة .

عودة المطران في جريدة البشير

وفي رسالة عن القدس تاريخها ١٠ تشرين الثاني من سنة ١٨٧٨ الى جريدة البشير عن رجوع المطران من منفاه وهاك ما ورد فيها :

وردت الاوامر الوزارية من الباب العالي الى متصرفنا بتمهيد سبل السفر لسيادة المطران بطرس البستاني بكل ما يستطاع من الاكرام والاجلال . ولهذه الغاية وصل في خامس الجاري يوم الثلاثاء مساء الى القدس الشريف كومندان البارجة الفرنسية برفقة من ارسلوا

من طرف غبطة بطريرك الموارنة وقنصل دولة فرنسة الفخيمة في بيروت ودولة متصرف لبنان اما سيادته فلم يستطع السفر في الحـــال لانه كان منحرف المزاج فلما شفي يوم الخميس (٧ت٢) ذهب يودع متصرفنا وقنصل فرنسة وحضرة الاب رئيس الرهبـــان الفرنسيسكانيين وجميع هؤلاء حضروا حالا الى دار البطريركية اللاتينية يؤدون لسيادته تحية الوداع .

ثم بعد ان ودع سيادته غبطة بطريركنا فنشنسيو (منصور) براكو سافر من اورشليم يوم الجمعة (٨ ت٢ سنة ١٨٧٨) الساعة السادسة صباحاً وشيعه كاهن وترجمان ويسقجي من جانب البطريرك اللاتيني وكاتم اسرار الرئيس لحراس القبر المقدس ويسقجي من قبل حضرة الآباء الفرنسيسكان وترجمان القنصل الفرنساوي في القدس ويسقجيته وكاهنان مارونيان وبعض خيالة من الحكومة ثم اولئك الذوات الذين قدموا من لبنان برفقة الكومندان ليشيعوا سيادته .

من يافا الى جونية

ولما بلغ سيادة المطران في موكبه الى يافا استقبله في ظاهرها تراجمين ويسقجية القناصل في يافا مع جمهور من ذوات البلدة فاصبح الموكب حافلاً جداً وقد اصطفت له ضابطة البلدة لاداء التحية لدى دخوله . وبعد ان استراح قليلاً في دار جناب انطون افندي التيان الوجيه الكريم ركب الفرقاطة الفرنساوية المسماة « لينوا » المعدة لنقله . ولدى وصوله اليها اصطف عسكر الفرقاطة مع الضباط ورموا عليه السلام وصدحت الموسيقى مدة وكان في الفرقاطة محفوفاً بمزيد الاكرام والالتفات من جناب الكومندان وباقي الضباط.

في جونية وبكركي استقبال منقطع النظير

ووصفت جريدة البشير وصوله الى جونيه وبكركي قالت :

« عندما بلغ سيادة المطران بطرس جونيه يوم ١٠ ت٢ ١٨٧٨ نزل في زورق رافقه فيه الكومندان ومسيو ادمون بورطاليس كونشلير دولة فرنسا الفخيمة في بيروت وقواس ومعتمد غبطة البطريرك بولس مسعد الكلي الطوبى . وفي زورق آخر ركب باقي الضباط والكهنة . وقد نزل لملاقاته سيادة المطران يوسف المريض والمطران يوحنا الحاج (البطريرك بعدئذ) والمطران يوسف فريفر وكاهنان من قبل المطران يوسف جعجع (مطران قبرس) لان انحراف صحته منعه من الحضور . وكان في استقباله جمهور غفير من الكهنة ورؤساء الاديرة ومن ذوات الاهالي من كل النواحي وحالما وطئت قدماه الارض اختطفه الاهالي

وحملوه على الراحات بين اصوات التهاليل والهتافات واطلاق البنادق حتى مدرسة الخوري نعمة الله البواري في جونيه .

وكان هناك جمهور من الاولاد يحملون بيارق فرنساوية مكتوباً عليها « تعيش دولتنا العلية ! وتعيش فرنسة حليفتها ! ويعيش سيادة البستاني ! » :

فودعهم القبطان مع الضباط في جونيه ورجعوا الى الفرقاطة لممارسة اطلاق المدافع تحيةً وابتهاجاً . وركب سيادة البستاني ومعه باقي المطارين والكونشلير والقواسة الى بكركي .

ومن ثم اخذت الناس تتقاطر من كل جهات لبنان لتهنئة سيادته واغتنام بركته وعند المساء برزت الانوار على كل قمة من قمم لبنان وظلت الاجراس الى آخر ساعة من الليل ترسل رنات الظفر والبهجة وكانت اصوات البارود تتجاوب كالرعد في جميع المقاطعات اللبنانية .

وقد وردت على صحف بيروت عدة رسائل من الجبل وفيها وصف شائق لما اقامه اللبنانيون بتلك المناسبة من ضروب الزينات ومعالم الافراح مما يدل على ما كان لذلك الحبر الجليل في القلوب من بليغ المحبة والاجلال وعلى ما سببه فوزه في البلاد من نشوة اعتزاز وفخر مرجعها براءته مما نسب اليه واعتبار الرأي العام لذلك الفوز مكافأة عادلة على ما كان يزدان به من بر وفضيلة .

عودة المطران الى كرسيه

وكانت الدولة العثمانية على ما ظهر قد طلبت ان يبقى المطران في بكركي ريثما تسمح الظروف باستئام عودته الى كرسيه في بتدين ، فعمل المطران بموجب هذا الطلب ، واقام في بكركي طوال ذلك الشتاء من عامي ١٨٧٨ و ١٨٧٩ .

سفر رستم باشا وما نجم عنه من اشاعات

وكان رستم باشا في شباط من السنة الاخيرة قد سافر الى الاستانة يوم ٧ منه بعد ان أقام نائباً عنه في الجبل الامير امين منصور ابي اللمع رئيس مجلس الادارة ، ومن ثم تكاثرت الاقاويل عن اقالته من منصبه ، وبالواقع كان الباب العالي قد فكَّر في تعيينه والياً على الروملي واستدعى نصري بك فرنكو نجل فرنكو باشا من باريس حيث كان يشغل منصب امين سر في سفارة الدولة في تلك العاصمة ليعهد اليه بمتصرفية لبنان، بدلا من رستم باشا ، ولكن سفير انكلترة عارض في ذلك ، وتشبث باعادة رستم ، اولا

معارضة للاكليروس الماروني الناقم على الباشا ، ثانياً خوفاً من ان يؤيد نصري بك بنزعته الفرنسية ، نفوذ فرنسة في الجبل ويناهض النفوذ الانكليزي .

وقد تدخل في تلك القضية وزيرا خارجية الدولتين فرنسة وانكلترة وأخذ كل من سفيريْهما في الاستانة يعمل على تعضيد مطلب وزيره الى ان رجحت السياسة الانكليزية واستقرّ الرأي على اعادة رستم شرط الأ يقاوم السياسة الفرنسية في لبنان .

مغادرة بكركي

في اول ايار سنة ١٨٧٩ وصل الى بكركي خط شاهاني من الباب العالي يأذن للمطران بطرس بالعود نهائياً الى كرسيه . وكان سفير فرنسة قد ابلغ الخبر قبل ذلك الى قنصلية بيروت فاوصله وكيل القنصلية السيد برنيه بدوره الى بكركي . فأخذ المطران يستعد للرحيل في اول فرصة تسنح .

وكان انه زايل بكركي الى دير اللويزة فأقام فيه يومين ، ومنه جاء بيروت ليلاً فراراً من توافد الناس لاستقباله في الطريق ، وهو ما يدل على تواضعه العميق ، ونزل في مدرسة الحكمة اياماً .

وفي ليل السبت ٢٤ ايار ١٨٧٩ سافر الى بتدين ، يرافقه كاتم سره وشماسه على ظهور الخيل ، تجنباً للمظاهرات ، وجرياً على ما هو مفطور عليه من دعة واتضاع .

في دكان الشحارة

وعند وصوله عند الفجر الى دكان الشحارة على مقربة من دفون ، أبصره بعض المكارين فعرفوه واخذوا يهتفون له ، ويطلقون النار عراضةً . ولم تمر مدة وجيزة حتى اتصل الخبر بالقرى المجاورة لتلك الناحية ، فأخذت اصوات البنادق تُسمع من كل جهة ، فرحاً واستبشاراً . وعندئذ ترجل المطران وأمر كاتم سره بان يكتب منشوراً الى الاهالي ، يمنع فيه منعاً شديداً ملاقاته واطلاق البنادق فرحاً برجوعه .

في جسر القاضي

ثم واصل السير فوصل قبيل شروق الشمس الى جسر القاضي ، واذا به يرى اهل المناصف متوافدين جماعات بالحداء والعراضات ليقوموا بواجب تكريمه ، فحاول ان

يغيّر الطريق ويسير متخفياً ، ولكنه في تلك الساعة اصابته رفسة احد الجياد فآلمته جداً، واضطرته الى التوقف ريثما يرتاح من ألمها .

ومن ثم تكاثرت الجماهير وعلا الضجيج والحداء واطلاق النار عراضةً ، وتقدم القوم منه دروزًا ونصارى يتبركون بلثم يديه ، فلم يرَ بدًا من مخاطبتهم بالحسنى ، طالباً اليهم الكف عن اطلاق النار ، فأذعنوا له لئلاّ يكدروه واكتفوا بالسير امامه بالاناشيد والتهاليل القومية والروحية ، ولكن اصوات البنادق ظلت تُسمع عن بعد ممن لم يتمكنوا من سماع خطابه ومعرفة رغبته .

في دير القمر

ولما وصل الموكب الى محلة بيدر الرمل فوق دير بابا ، كان اهالي دير القمر قد لاقوه الى هناك كبارًا وصغارًا ، ومعهم اهالي القرى المجاورة وعندما تقدموا للتبرك بلثم يديه ، خطب فيهم محرّضاً على « منع العراضات وضرب النوبات » طالباً من الكهنة حتى الكف عن قرع الاجراس ، ولكن البهجة التي كانت تغمر النفوس دفعت الناس الى اظهارها بكل وسيلة ، بالرغم مما ابلغوه من اوامر سيادته ، وظل الموكب سائرًا على غاية ما يكون من الابهة خليطاً من مختلف الطوائف والاحزاب ، الى ان وصل الى كنيسة سيدة التلة في دير القمر فترجل سيادته ودخـل الكنيسة فصلى وشكر ووقف خطيباً يثني على الحاضرين لتجشمهم العناء لاستقباله ، ويكرر المطالبة بالامتناع عن اطلاق النيران وقرع الاجراس والحفاظ على مبادئ المحبة والالفة .

وبعد خروجه من الكنيسة دعي الى دار داود بك باز لتناول الطعام والراحة من وعثاء السفر .

جريدة البشير تصف وصول سيادته

وفي اواخر ايار من تلك السنة وصلت رسالة الى جريدة البشير تصف استقبال سيادته في دير القمر فآثرنا نقلها بنصها لما فيها من زيادة ايضاح للموضوع ، ومن دلالة على اسلوب الكتابة في ذلك العصر قال المراسل بعد المقدمة :

« خفقت القلوب لهذه البشرى فرحاً . واستطارت مرحاً . وتراكمت الجموع ركاماً . وتقاطرت لملاقاته قطارًا . وعليهم علائم الحبور . واسارير السرور .

« وكانت الخيالة قد تقدمتهم قصد استصحاب سيادته بحفلة . فلما علم بهم امـر

بارجاعهم ، وابى ان يسير الا بمن كان معه . فرجعوا يتوقعون حضوره في بيدر الرمل . حيث كانت الجماهير بانتظاره

« فلما بان طالع السعد باقباله . همّت الجموع لتقبيل يديه . والازدحام في التقرب لديه . فتلقاهم بحسن القبول مظهراً شوقه اليهم وبين لهم انه يأبى التظاهرات . ثم اتم مسيره والناس اليه بين متلفت ومتهافت . ومحدق وباهت ، يرتلون وينشدون . وامامهم القسوس ببدلاتهم الكنسية . الى ان دخلوا الدير فلاقاهم الشبان بالاهازيج واطلاق البارود . ولكن سيادته بعد الجهد الجهيد تمكن من منعهم

« وحين وصوله الى السراي حياه العسكر بالتحية الرسمية . ثم نزل بدار الوجيه داود بك باز وفيه دعـــا وجوه المدينة واوصاهم بمنع الشبان عن اطلاق البارود . اما هؤلاء فلرغبتهم في اتمام مطلب سيادته على اكمل وجه طلبوا من مدير دير القمر آنئذٍ الامير عثمان (شهاب) ان يتولى هذا المنع بواسطة الدرك والتهديد بالحبس والجزاء . وبالرغم من قيام الامير عثمان بما طلب منه ظل يُسمع بين حين وآخر بعض الطلقات . وذلك اعراباً عما خامر قلوب الناس من فرح جزيل برجوع سيادته

« ولما ارخى الليل سدوله اشعلت الانوار الآخذة بالابصار وضاءت المصابيح النورية . وبانت الالعاب النارية . ورشقت الاسهم في الجو الصافي فتبددت حنادس الظلمات واستمرت الزينات مدة ثلاثة ايام متوالية . اما الجموع المتوافدة فكان في مقدمتها اسرتا ابو شقره وعبد الصمد فلاقاهم اهل الدير بالترحاب والشكر وادخلوهم على سيادته وكان لا يزال في الدير

« اما شبانهم فاستمروا في الميدان يركضون خيولهم ويطلقون نار بنادقهم ابتهاجـــاً وليبينوا ما لسيادته من مساعٍ طيبة في سبيل الالفة والوئام . هذا والجماهير المتوافدة مؤلفة من دروز ومسلمين ونصارى . وكلهم ينبئ عن وصولهم وميضُ نصولهم . وعن مسيرهم صهيل خيولهم » .

في بتدين

وانتقل سيادته من الدير الى بتدين عند الاصيل فشيعه الديريون بالعراضات والحداء وهم يدعون له بطول البقاء . وما هو ان اطل على الكرسي حتى ظهر اناس لم يبالوا بمنع اطلاق النار واخذوا يقيمون العراضات من كل جهة وجانب مظهرين من ضروب السرور والحفاوة ما يقصر القلم عن وصفه

ومن ساعة دخوله الى بتدين اخذت الجماهير تتوافد لتحيته وتهنئته من كل فج وكان فيهم الدروز اكثر من النصارى . ويقول الذين دونوا اخبار تلك العودة ، ان من اخص الاسباب في حفاوة الناس بعودة سيادته ما عرف به هذا الحبر الجليل المفضال من المناقب الجليلة بل كانت هذه الحفاوة ثمرة ما زرعه في القلوب من بذور التحاب والتصافي .

من اقوال الصحف المعاصرة حول تلك الاحداث

وها نحن ناشرون بعض ما وقفنا عليه من اقوال الصحف التي كانت تصدر في تلك الايام حول هذه الاحداث وفيها تاريخ مفصل للسنين الخمس الاخيرة من متصرفية رستم:

الدولة تفكر بنقل رستم في نهاية سنته الخامسة

قالت الجوائب بتاريخ ٣ كانون الثاني ١٨٧٩ :

« بعد الخلاف الذي وقع بين رستم باشا واعيان اللبنانيين فكّرت الدولة العلية في نقله ، وعرضت على ممثلي الدول تعيينه والياً للروملّي . وفي جريدة اسطنبول ان سفير انكلترة عارض في ذلك التفكير وتشبّث بابقاء رستم باشا في لبنان وذلك (نكاية بالاكليروس الماروني الكثير التعلق بفرنسة) .

« وبعد طول المذاكرة في هذا الشأن استقرّ رأي الباب العالي على نصب حضرة سعادتلو نصري بك نجل فرنكو باشا المستوجب الرثاء متصرفاً على الجبل المذكور .

« ولا شك عندنا في ان هذا الانتخاب سيقع عند اهل الجبل موقع الشكر والاستحسان وذلك من عدة وجوه منها :

« الاول : هو ان والده فرنكو باشا ترك في الجبل مآثر كثيرة ومساعي جليلة وفي ايامه لم يحدث شيء يكدر الاهالي ولا الباب العالي .

« الثاني : وهو ما لا يسوغ نسيانه ان نصري بك المومأ اليه يحسن اللغة العربية لانه كان في الجبل بمعية والده وعلى هذا فهو خبير بجزئيات احوال الجبل فضلاً عن كليّاته .

« الثالث : انه تقلّب في امور السياسة في باريس وعاشر ارباب الرئاسة والكياسة لانه كان هناك كاتباً في سفارة الدولة العلية وقد لاحظ اسباب التمدن والمعارف ملاحظة من يقدّر منافع كل شيء نفيس .

« كل ذلك يطمئنا الى انه سيجري في الجبل مقاصد مولانا المعظم (السلطان) وهي راحة العباد وعمران البلاد .

« فنشكر مسيو وادنتون وزير خارجية فرنسة كما نشكر سفير فرنسة في اسطنبول المعروف بالحزم لانهما ساعدا الباب العالي على هذا الانتخاب

« اما رستم باشا فالغلط الذي ارتكبه في الجبل لا يدل على عدم جدارته بان يقلد مأموريّة اخرى بل هو من اهل الدراية التامة . وعسى ان يرضي هذا الحل اهل الجبل ويزيد ثقتهم بحسن مقاصد مولانا المعظّم نحوهم (السلطان) » .

روسية تريد تعيين رستم والياً على الروملّي

وقالت الجوائب بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٨٧٩ :

« ... والمظنون الآن ان مسألة لبنان صارت الى الطي بعد النشر حيث ان حضرة سعادتلو نصري بك فرنكو متصرف الجبل الجديد لا يتولى مأموريته الآ بعد انهاء من ينتخب والياً على الروملّي الشرقية . وقد تعيَّن الآن ان الدولة الروسية تصر على ان يكون حضرة دولتلو رستم باشا والياً على الروملّي » .

رستم يسافر الى الاستانة

ويبدو ان تلك المفاوضات اقتضت استدعاء رستم باشا الى الاستانة . فقد قالت البشير بتاريخ ٧ شباط ١٨٧٩ :

« يوم الاثنين الفائت سافر رستم باشا متصرف لبنان الى الاستانة على الباخرة النمسوية بعد ان أقام عزتلو الامير امين ابي اللمع وكيل الرئاسة في مجلس الادارة نائباً عنه . وقد ودّعه جمهور غفير من كبار الموظفين والاعيان » .

واستدعي ايضاً نصري بك

وقالت الجوائب بتاريخ ٣ نيسان ١٨٧٩ :

« في ٢٧ اذار ١٨٧٩ دعي سعادتلو نصري بك فرنكو من منصبه (امين سر السفارة العثمانية في باريس) وقد سافر السبت ٣٠ منه قادماً الى اسطنبول وعند سفره انعم عليه رئيس جمهورية فرنسة بنيشان اللجيون دونور من رتبة كومندور . فنرحب به » .

الجزم بإعادة رستم الى لبنان

ويبدو ان السياسة الانكليزية كما قلنا سابقاً تغلّبت على غيرها وتقرَّر اخيرًا إعادة رستم باشا الى لبنان . فقد قالت الجوائب بتاريخ ٨ ايار ١٨٧٩ :

« دعي يوم امس اصحاب الدولة الوزراء العظام لتناول الطعام على المائدة السلطانية، وكان معهم دولتلو رستم باشا ، ويظهر انه ثبّت مركزه في لبنان بعـــد ان رفض قبول منصب والٍ على الروملّي الشرقية » .

ثم قالت في عدد تالٍ :

« سرّنا ما بلغنا من اخبار جبل لبنان ان الخلاف الذي كان قد حدث بين حضرة دولتلو رستم باشا متصرف لبنان المقيم الآن في هذا الطرف (اسطنبول) وبين حضرة ذي الغبطة بطرك الموارنة قد زال ، وان الباشا ارسل تلغرافاً الى نائبه الامير امين ابي اللمع اشعره بانه من اجل استقرار الراحة والسكون في الجبل لا يرى الآن مانعاً يمنع حضرة المطران بطرس البستاني من الرجوع الى المحل الذي يريد بشرط ان لا يقع من الاهالي اعمال يفهم منها سوء الظن من حسن مقاصد الباشا وفي سماح الدولة العليّة .

« غير ان بعض الناس انكروا تلك المقاصد منه ونسبوها الى الباب العالي وسفير فرنسة ، والواقع ان زوال الخلاف كان بسبب مذاكرة سفير فرنسة في هذا الطرف مع الباب العالي ، ولكن لا ينكر ان الباب العالي لم يبت في الامر من دون موافقة الباشا حالة كونه مقيماً في هذا الجانب ، على اننا تبلغنا من كلام من يوثق به ان تسوية مسألة الجبل كانت من ارتياح الباشا الى الوفاق والوئام . فلا ينكر ان له النصيب الاوفر في ذلك كما لا ينكر حسن مساعي سفير فرنسة .

« اما رجوع الباشا الى الجبل فالمظنون انه سيكون بعد اسبوعين ، ما لم يظهر من مولانا وسلطاننا المعظم رغبة في ابقائه هنا اياماً اخرى لبعض مصالح .

« وعلى كل حال فان رجوعه محتوم عند الباب العالي وعند ممثلي الدول ايضاً »

رجوع رستم

وقالت الجوائب في ٢٢ ايار ١٨٧٩ :

« تشرف بالمثول لدى حضرة مولانا السلطان المعظم دولتلو رستم باشا متصرف لبنان واستأذنه بالعودة الى مركز مأموريته في لبنان فأذن له . وسيتوجه مرةً ثانية الى السراية لوداع مولانا ثم يخرج الى الباخرة وحيث ان ما ابداه نحو اللبنانيين دلّ على حرصه على ارضائهم وعلى ازالة الخلاف من بينهم كان لنا ان نرجو ان يزيد رجوعه اليهم في مودتهم له احكاماً ، ويحملهم على التصافي وازالة ما يبعث على الجفاء لكي يظلوا متمتعين بما منحته لهم الدولة العلية من الامتيازات » .

الوداع على الباخرة

وقالت في عدد ٢٨ منه :

« حين سافر دولتلو رستم باشا الى مركز مأموريته في لبنان ارسل سيدنا ومولانـــا السلطان المعظم احد قرنائه الكرام الى الباخرة التي سيركب فيها الباشا ليبلغه بعض الاوامر فضلاً عن مراسيم الوداع . وقد سافر معه النجيب الالمعي عزتلو كاتب سره اسكندر افندي الحداد وهو من مأموري الجبل الحائزين على الاوصاف الحسنة . وفتونلو مورل بك » . (يقول ابراهيم الاسود في كتابه « تاريخ الاذهان » ان اسكندر الحداد هذا الذي كان كاتب سر رستم باشا هو الذي كان ينفخ في نار الفتنة بين رستم باشا والمطران) (راجع تاريخ الاذهان مجلد ١ ص ٥٥) .

لبنان والمجلس النيابي التركي

بعد ان اصدر السلطان عبد الحميد امرًا بنشر القانون الاساسي وانتخاب نواب للمجلس النيابي تلقّى رستم باشا امرًا من نظارة الداخلية التركية بوجوب ارسال نواب يمثلون لبنان فجمع رستم لديه اعيان البلاد من الموارنة والدروز واوعز اليهم بأن ينتخبوا نواباً عنهم فاستمهلوه ريثما يفكرون في الامر مليًّا . وقد طاف وفد منهم على قناصل الدول في بيروت واستشاروهم في ذلك فرفض القناصل ظاهرًا ان يشيروا في شيء ، ولكنهم افهموهم سرًّا ان في ذلك خوفاً على ما يتمتعون به من امتيازات واستقلال اداري .

وعليه صارحوا المتصرف بذلك . وقد ابلغه بدوره وفي حينه الى وزارة الداخلية العثمانية فاظهرت اسفها لعدم انصياع اللبنانيين لها .

عزل القنصل تريكو الذي ساعد على نفي المطران

وبعد ان تدخلت فرنسة بواسطة سفيرها في اسطنبول باعادة المطران بطرس الى كرسيه معززًا منصورًا على ظهر بارجة فرنسية ، أرسلت خصيصاً لنقله ، أمرت بعزل قنصلها تريكو في بيروت الذي خالف بتصرفاته تقاليد دولته ذات العلاقات التاريخية المعروفة مع الموارنة ، وعينت مكانه قنصلاً جديداً هو المسيو دي لاپورت . وقد احتفى اعيان الموارنة بوصول القنصل الجديد وتوافدوا الى دار القنصلية افواجاً يرحّبون به ويعربون عما يضمرونه للدولة الفرنسية من الولاء والتعلق

وصول رستم باشا الى بتدين

وفي حزيران وصل رستم باشا على ظهر الباخرة النمسوية الى بيروت ومعه مرافقاه مورل بك ابنه بالتبني ، وامين سره اسكندر بك الحداد ، فاستقبل على المرفأ بما يليق بمقامه . وفي سادس يوم من تموز جاء الى بتدين مركز الحكومة الصيفي ومعه جمهور ممن رافقوه واستقبلوه في طريقه ، راكباً على ظهر فرس ، فخرج للترحيب به وتكريم لقياه الموظفون يتقدمهم الامير امين منصور ابي اللمع رئيس المجلس الاداري ، والذي قلنا انه كان ينوب عنه في اثناء غيابه . وكانت قد صُفَّت خارج القصر وعند مداخله شراذم من الجند تتقدمهم جوقة الموسيقى فادت له التحية الرسمية .

ولتلك المناسبة كان الامير امين قد وزَّع الاوامر على القرى المجاورة لبتدين كيما ترسل منها وفوداً تشترك في الاستقبال ، ولكن لم يأتِ منها الا فئة قليلة ، والذين اتوا ادخلوا بين يدي دولته الى قاعة العمود لاداء التهنئة ، وعند المساء زينت دار الحكومة بالانوار وتوالت زينتها ثلاثة ايام متوالية على العادة المتبعة في تلك الايام ولكن القرى المجاورة لم تشترك معها في الزينة .

دوام التقاطع بين المتصرف والمطران

واستمرّ التقاطع بين المتصرفية وكرسي ابرشية صور وصيدا حتى انتهـــاء مدة رستم باشا ، فالمطران لزم فيها جانب الاعتزال والترصن وعدم التعرض للحكومة الا فيما ينال من مصلحة البلاد وراحة الاهالي ، اما رستم فظل على معاداته للمطران وحزبه وكل من ينحاز اليه ، وأخذ في اواخر ايامه يعمل على تقسيم اللبنانيين الى احزاب متعددة ، وذلك بالقاء النفرة فيما بينهم ، بان يعزل الموظف ويعطي وظيفته لاخيه او ابن عمه ، فتحصل بينهما العداوة ، لان النفرة في لبنان تنشأ عادةً عن المزاحمة على الوظائف . ويؤكد الدكتور شاكر الخوري في كتابه «مجمع المسرات» صفحة ٣١٢: «ان رستماً كان له عمال توهَّم انهم صادقون في خدمته ، ولكنه عرف ان اناساً منهم كانوا عيوناً عليه يحملون الى خصومه كل اخباره وكتاباته السرية ومع ذلك كان يعتقد بهم الصدق » .

ومن اخص مساوئه في ذلك الحين اصغاؤه الى المفسدين والوشاة فكان يعزل بدون فحص وينتقم بلا تروٍّ . ولعله كان يريد الارهاب وحمل الاهلين على ان يطيعوه طاعة عمياء وذلك لانه توهم ان اعمال الارهاب تهدئ البلاد ، ولكنها آلت الى نتيجة معاكسة

اذ كثر الذين انقلبوا عليه وجاهروه العـــداء وشوّهوا صفحته ودفعوه الى غير ما كان يريده للبنان من خير .

وزبدة القول : ان لبنان لم يجنِ من حاكمية رستم منافع ذات بال ، لانه بسبب ما بثّه من روح العداء بين اهليه ، أصبحوا لا همّ لهم الا التناحر وانتظار ساعة الفرج برحيله عنهم ، وظهور وجه جديد عليهم غير وجهه .

الانتقام من اليد التي كتبت الاوامر بنفي المطران

ذُكر انه بينما كان رستم باشا يقلب بيديه بعض قراطيس نـــارية لاحد مسدساته انفجر احدها وسبب له جرحاً بالغاً في كفه . وقد بادر طبيبه الخاص الى تضميد الجرح ولكنّه رأى بعد حين ان حالته تستدعي اجراء عملية يُقطع فيها الخنصر وجانب من سطح الكف . وأجريت له العملية دون بنـــج ويروى ان المتصرف تحملها بصبر عجيب ، وكان في اثنائها يتكلف الابتسام ويمازح جليسه اسكندر بك التويني الذي كان يرشقه بالروائح العطرية المنعشة بين حين وآخر .

على ان خصومه قابلوا ذلك الخبر بالتشفي ، وقالوا ان اليد التي المّ بها الجرح هي التي اصدرت الاوامر بنفي المطران البريئ الذي عومل ظلماً بما لا يستحق ، والله لا يحب الظالمين .

واخيراً جاءت ساعة الفرج

واخيرًا تنفس اللبنانيون الصعداء لعلمهم ان مدة رستم الثانية قد انتهت وانه سيرحل عنهم هذه المرة الى غير رجعة بدليل ما اكدته لاعيانهم بعض المراجع السياسية الكبيرة .

وها نحن ننشر بعض ما اقتضاه ذهاب رستم وتعيين واصا من مفاوضات في اسطنبول بين الباب العالي وممثلي الدول الموقعة نظام لبنان كثر فيها الاخذ والرد بسبب ما تخللها ورافقها وتجاذبها من تضارب مختلف المآرب والاهواء

اقرار اقالة رستم

مما قالته الجوائب بتاريخ ٦ اذار ١٨٨٣ بتوقيع سليم الشدياق نجل العلامة فارس الشدياق اللبناني صاحب الجريدة :

« لا يخفى ان ختام مأمورية رستم باشا متصرف جبـــل لبنان يكون في ٢١ شهر مارس — اذار — الجاري ، وبموجب نظامات جبل لبنان والمضبطة التي وقعها سفراء

الدول العظام في هذا الخصوص يلزم للسفراء في هذا الطرف الاجتماع والمذاكرة في هل ينبغي تجديد مدة المتصرف المشار اليه او يُعيّن آخر بدلاً منه » .

وبعد ان اشار سليم فارس كاتب المقال الى الاسباب التي ادت الى وضع نظام لبنان الجديد والى ان اول متصرف كان داود باشا وعقبه فرنكو باشا ثم رستم باشا وكان تعيين هذا الاخير الى خمس سنين ثم جددت ولايته الى خمس سنين اخرى مضى يقول:

« وحين كان رستم في الاستانة من خمس سنين ، وشُكّلت اذ ذاك ولاية الروملّي الشرقية عرضت عليه ولايتها لكنه اباها بناء على كبر سنه وعلى المسؤولية العظيمة المترتبة على واليها ، بسبب دسائس الصقالبة عموماً ، ودسائس الروس خصوصاً

« ومن بعض امتيازات لبنان ان يكون مأموروه من اهله والدولة لا تأخذ شيئاً من ايراده لكنها تدفع لخزينته في كل سنة ٣٠ الف ليرة . وهنا يتضح لزوم اجتماع السفراء في هذا الطرف للتذاكر في مأمورية متصرفه .

« والآن ذكر في جرنالات الاستانة ان دولة فرنسة التي وافقت على تعيين المتصرف المشار اليه (رستم) منذ عشر سنين بل على تجديد مدته منذ خمس سنين ابت ان توافق اليوم على تجديد انتخابه ، ولهذا ابى المركيز دي نويال سفير فرنسة ان يحضر اجتماع السفراء الذي دعا اليه ناظر الخارجية العثمانية يوم الثلاثاء الفائت ٢٧ شباط

« وروت جريدة كونستانتينوبل: ان الروسية غير موافقة ايضاً على التجديد لرستم ، ومن رأي مكاتب التيمس في الاستانة ان دولة فرنسة تميل الآن الى تعيين نصري بك فرنكو الذي شغل مركزًا هاماً في سفارة الدولة العلية في باريس .

« ولا يخفى ان والده فرنكو باشا كان متصرفاً للبنان عدة سنين وفي غضونها بذل غاية جهده في تأمين اهل لبنان والتأليف بين احزابهم على اختلاف اطوارهم » .

ترجيح تعيين نصري فرنكو واقالة رستم

وجاء في الجريدة نفسها بتاريخ ١٣ اذار :

« زال الخلاف الذي كان قد حصل بين الباب العالي وسفير فرنسة في ما يتعلق بمسألة جبل لبنان ... وقد رأى السفراء اخيرًا الموافقة على نصب اي متصرف كان بحيث يكون مستحسناً لدى الدولة العلية . ويغلب على الظن ان حضرة سعادتلو نصري بك فرنكو هو الذي يتولى المتصرفية ... اما رستم باشا ففي عزم الدولة العلية ان تعينه

سفيراً لها ، اما في بطرسبورج ، واما في برلين ، بناء على درايته . ومهما يكن من امر فان الباب العالي قد تأكد ان المصلحة العمومية تقتضي عدم تجديد مدة رستم » .

موفد لبناني يطالب بعدم التجديد لرستم

وفي الجوائب : « ان موفداً او مرخّصاً لبنانياً وصل الى الاستانة ومعه عرائض وقعها كثيرون يطلبون فيها عدم التجديد لرستم ، لان بقاءه في الجبل اصبح غير مرغوب فيه لما سينشأ عنه من الاضرار والقلاقل المنافية لرغائب الدولة العلية التي تحب لبنان وتريد ان تتوافر فيه اسباب التقدم والاطمئنان » ولم تذكر الجريدة اسم ذلك الموفد او المرخّص له القادم من لبنان .

الدولة تقترح مرشحاً جديداً للمتصرفية

وجاء في الجريدة نفسها بتاريخ ٢٩ اذار :

« يوم السبت الفائت ٢٤ اذار اجتمع سفراء الدول تحت رئاسة حضرة عارفي باشا ناظر الخارجية العثمانية للتذاكر في مسألة جبل لبنان وانتخاب متصرف له جديد بدلاً من رستم باشا

« وقد تكلم عارفي باشا في هذه الاثناء فاثنى على رستم باشا وقال ان الدولة على الرغم من مؤهلاته مرتاحة الآن الى تعيين متصرف جديد لأن بقاء رستم لا يقع لدى احدى الدول الصديقة (فرنسة) موقع الاستحسان ، كما ان انتخاب نصري فرنكو باشا اعتُرضَ عليه بدعوى ترجيحه كفة النفوذ الفرنسي على غيره في لبنان

« وعلى ذلك اقترح الناظر ان يكون المتصرف الجديد « البرنك بيب دوده باشا » من امراء الارناووط المسيحيين المقيم الآن في الاستانة ، فردّ البرنس دوغاليس سفير النمسة بالنيابة عن زملائه سائر السفراء شاكراً حسن نية الباب العالي ، قائلاً : « انه واياهم لم يكونوا عارفين بتعيين الباشا المشار اليه ، فيلزمهم والحالة تلك استشارة دولهم ، وعلى ذلك فانهم يطلبون الامهال اياماً ريثما يفاوضونها في امره وتردهم الاجوبة بشأنه » ومن ثم تقرّر تأجيل الجلسة الى موعدٍ يعين فيما بعد » .

الباب العالي يعرض اسماء خمسة مرشحين لينتخب السفراء احدهم

وقالت الجوائب بتاريخ ٥ نيسان ١٨٨٣ :

« عرفت الجوائب في آخر ساعة ان النظر قد صرف عن تعيين البرنك بيب دوده

باشا متصرفاً على لبنان بناء على احتجاج احدى الدول العظام (انكلترة وحذت حذوها روسية) وعلى ذلك تواترت الاخبار بان منصب المتصرفية سيوجه اما الى دانش افندي قنصل الدولة العام في راغوزه ، واما الى سعادة مظفر باشا » .

وكتبت جريدة « ترجمان حقيقة » حول هذا الموضوع قالت :

« يشتغل الوكلاء في الباب العالي في تعيين خلف لرستم باشا في لبنان ، وقد ارسل الصدر الاعظم اليهم رقيماً يخبرهم فيه بابقاء رستم باشا في الجبل الى ان يُعين خلفه ، ولكن سفير فرنسة طلب المبادرة حالاً الى فصل الباشا المذكور ، بناء على انقضاء مدته ، وتفويض مصالح الجبل الى المجلس الاداري ريثما يعين المتصرف الجديد وفقاً لما جرت عليه العادة .

« وكتب المابين الهمايوني (ديوان السلطان) الى الباب العالي (رئاسة الوزارة) تذكرة فوض اليها فيها انتخاب متصرف على الجبل من المرشحين الخمسة الذين عرضت اسماؤهم على الحضرة العلية السلطانية فلم يكن لديها مانع باحدهم وهم :

« ١ — دانش افندي قنصل الدولة العلية في راغوزه .

« ٢ — نصري بك فرنكو كاتب سفارة الدولة في باريس الذي نقل اخيراً الى ڤينة .

« ٣ — اوخانس افندي سركز .

« ٤ — برتوا افندي .

« ٥ — واصا افندي مستشار الولاية في ادرنه .

« وبعد هؤلاء قدم مرشحان جديدان هما :

« ١ — رشيد باشا الالماني او الجنرال ستريكو كومندان الدرك في ولاية ادرنه .

« ٢ — نعوم افندي قنصل الدولة العلية في مالطة .

« اما نصري بك فرنكو الذي سانده الفرنسيون وايدت صحف فرنسة ترشيحه فقد رفضه السفراء الآخرون بدعوى انه سيسعى في الجبل بترجيح النفوذ الفرنسي على نفوذ دولته العثمانية واذ عرف المرشح ذلك تنصَّل من تلك التهمة وطلب من الباب العالي صرف النظر عن انتخابه » .

ومن كل هؤلاء انتخب واصا افندي كما سنفصل ذلك بعد قليل في الباب الذي خص بعهده .

رستم باشا عرف خطأه ولكن بعد فوات الاوان

وبدا على رستم باشا في الايام الاخيرة من عهده انه عرف وجه الخطأ في السياسة التي اتبعها في عداء رجال الدين ولا سيما المطران بطرس البستاني جاره في المسكن ومن ذوي الشأن المرموق بين امثاله خاصة حين رأى نفسه راغباً في تجديد مدته في لبنان ولو الى خمس سنين اخرى وقد قام ذلك العداء حائلاً دون الوصول الى مرغوبه .

وروى غير واحد من المقربين اليه انه نوى مرات التحول مع خصومه من منهج الشدة والعنف الى منهج اللين والمهادنة ، ولكنه خاف ان يحمل منه ذلك على محمل الضعف والعجز ، ومن ثم لم يسعه الا الاستمرار على ما كان عليه سابقاً حتى نهاية عهده .

وعلى ذلك رأيناه في الحفلة الاخيرة يظهر امام الجمهور بوجه مقطّب ، وبالمظهر نفسه يسير نحو الباخرة برفقة مودعيه ، على انه ما كاد يصل اليها حتى هدأت اعصابه وانبسطت اسارير وجهه والتفت الى من معه يودعهم قائلاً : « حبذا لو امكنني مغادرة لبنان الذي احببته واخلصت له على غير هذا النحو من الجفاء ، والذنب ليس ذنبي بل ذنب الذين خدعوني ، اجل لقد قسوت على المطران بطرس وابعدته الى القدس وهو في عجز الشيخوخة راكباً على ظهر فرس ، ولو اكتفيت بوقفه في بكركي لما اضمر اللبنانيون ضدي كل هذا الكره ، ولكنهم سيغيرون رأيهم بي فيما بعد ، اجل لقد نشأت بيني وبين المطران بطرس خصومة طويلة شديدة ، ولكنها كانت خصومة شريفة بين خصمين كفوئين ، يضمر كل منهما لصاحبه من العداء والبغضاء بمقدار ما يضمر له من الحرمة والتقدير ! » .

تعيين رستم باشا سفيرًا في لندرة

ووصل رستم باشا الى الاستانة فاستقبله فيهـــا اصحابه وهم كثر وجلهم من اصحاب المقامات العالية بما يستحقه من اجلال ولم يلبث ان عُيّن سفيراً في لندرة فسافر اليها مزوداً برعاية جلالة السلطان وتأييد الصدر الاعظم واعضاء صدارته . وكان لرستم بين البريطانيين اصدقاء خلص عالو الرتب انزلوه بينهم على الرحب والسعة واخذوا يبادلونه الزيارات ويحفونه بما يوفّر له حياة الغبطة والايناس .

رستم باشا وهو في لندرة لم ينسَ لبنان

وكان رستم باشا وهو في لندن كثيرًا ما يذكر لبنان ويتحدث عما وقع له فيه من احداث وشاهده من شؤون ما زالت راسخة في ذهنه ، وكانت اكثر احاديثه عن خصومته مع المطران بطرس على انه من بعد سفره كان لا يأتي على ذكره الا مقروناً بعبارات التوقير حتى لقد سئل مرة كما ذكرت سابقاً : من هم اعظم رجالات لبنان ؟ قال : «ليس في لبنان الا رجل اوحد هو المطران بطرس البستاني» وكلمته هذه تدل على كم كان للمطران عنده من حرمة .

حديثه مع زائر لبناني

ويروى انه وهو في لندن زاره صديق من بيروت هو المرحوم ابراهيم ثابت كان قد جاء العاصمة البريطانية لاشغال خاصة واختصه بزيارة طويلة اكثر فيها الحديث عن لبنان فأخبره ابراهيم عما كان يأتيه كوبليان وعصابته فيه من الاعمال المنكرة وكيف انهم فتحوا باب الرشوة على مصراعيه وحوّل مركز المتصرفية من بعده الى شبه مغارة للصوص وقال له : «حبّذا لو عدت اليه ايها الصديق لتطهره من ادران هذه المفاسد والموبقات التي يضج منها اللبنانيون جميعاً في هذه الايام» .

فتبسم رستم باشا وهزَّ رأسه وهو يجيب : « حبّذا يا صاح لو صحّت الاحلام ! ولكن ذلك اصبح اليوم مستحيلاً فاني ولو عدت اليوم الى لبنان لما استطعت ان افعل شيئاً مما تقول . فاني قد طعنت في السن وخمدت همتي وفارقتني شدتي وفضلاً عن ذلك فهناك ماض تؤلم ذكراه » . اجاب ابراهيم : « ولكن هذا يمكن اصلاحه» قال رستم : « وكيف تقوى على اصلاح ما يشبه قبضة رمل اذريتها ما حولك في يوم عاصف فهل تقوى على ان تجمع حباتها فيما بعد ؟ ! » .

موت رستم

وبقي رستم باشا سفيراً للدولة في لندن الى ان بلغ من العمر عتيًّا دون ان يقع اي تبديل في حالته . طلب اليه كثيرون من اصحابه ان يتزوج فلم يفعل . وكانت الدولتان البريطانية والعثمانية مرتاحتين الى حسن قيامه باعباء مهمته ويأتيه من كل منهما مرة بعد اخرى احسن عبارات التقدير .

وفي عام ١٨٩٤ وافاه الاجل المحتوم في لندن فجرى له فيها مأتم كبير سار فيه جمهرة من علية القوم ورثته الصحف باحسن العبارات وأبنّه اللورد غلادستون تأبيناً جميلاً ردّدته الصحف في مختلف الاقطار .

وفاة المطران بطرس البستاني

وبعد سنين معدودة تبعه بالوفاة الطيب الاثر الكثير المبرات المطران بطرس البستاني وبذلك توارى في مطاوي الموت رجلان كبيران وخصمان عنيدان نبيلان شغلت خصومتهما لبنان واكبر دول العالم عهداً غير قليل ولكن ذكرى صفاتهما الطيبة واعمالها المجيدة ستظل حية خالدة في بطون التاريخ .

كان الحبر الجليل قد اصيب في اواخر تشرين الاول من سنة ١٨٩٩ وهو في كرسيه ببيت الدين بالداء المعروف بالحمراء واشتدت اعراض الداء عليه اشتداداً بالغاً وسببت له آلاماً فادحة تحملها بصبر عجيب وتسليم مطلق لارادة الله .

وفي الثاني من شهر تشرين الثاني دعاه الله سبحانه الى جواره ففاضت روحه الطاهرة بعد ان اتم واجباته الدينية وهو وضّاح الوجه ، هادئ البال ، مطمئن النفس . وبذلك خسر لبنان سنداً قوياً كان يلجأ الى كنفه عند احتدام الملمات وتفاقم الرزايا .

النعي والمأتم الكبير

وها نحن نلخص عن جريدة البشير الصادرة في تلك المناسبة المؤلمة وصف مأتمه ودفنه:

بعد ان لفظ الحبر الجليل انفاسه الاخيرة البس الحلة الحبرية وطير منعاه الى المراكز العالية الدينية والمدنية والى كثير من مدن لبنان وقراه فكان اول من خفّ الى دار المطرانية مستعظماً الخطب حضرة صاحب الدولة نعوم باشا متصرف لبنان (اذ كان لا يزال في بتدين مركز الحكومة الصيفي) فوقف هنيهةً امام الجثمان وعلى وجهه امائر الاسف ودمع الحزن ينحدر من مآقيه .

وفي اليوم التالي تواردت الجماهير من كل صوب وكل ملة لوداع حبر كان الى الجميع حبيباً ومن كل القلوب قريباً .

وعند الساعة التاسعة عربية (الثالثة بعد الظهر) رفعت الجثة على ايدي الكهنة والرهبان وسير بها في موكب حافل لا يقل عن عشرة آلاف نفس من عامة المذاهب ، تتقدمهم موسيقى الحكومة اللبنانية تعزف الالحان المحزنة . ففرقتان من العساكر اللبنانية مع فرقة

من عسكر الدراغون ، ثم راية الصليب المقدس ، فسيادة المطران نعمة الله سلوان رئيس اساقفة قبرس ، فسيادة المنسنيور بولس بصبوص موفداً من قبل صاحب الغبطة السيد البطريرك ومعه حضرة الخوري عبد الله الخوري احد كتبة الديوان البطريركي ، ثم جناب المسيو كليياردو مستشار قنصلية فرنسة مرسلاً من قبل الكونت دي سرسي القنصل العام، مع راهبات القديس يوسف في دير القمر ولفيف الكهنة والرهبان من موارنة وروم كاثوليك.

وبينما كان الموكب في الطريق وصل حضرة الاب رولو رئيس الآباء اليسوعيين في سورية ولبنان يصحبه الاب انطون صالحاني اليسوعي وحضرة الخوري بولس الدبس من قبل اخيه صاحب السيادة المطران يوسف الدبس .

وقد حضر الجناز دولة المتصرف نعوم باشا وفي ختامه أبّن الفقيد حضرة الاب الفاضل الخوري داود اسعد تأبيناً بليغاً صـادراً عن قلب كليم ، ثم حضرة الاب بطرس حبيقة وغيره من الادباء . واختتم الكلام بالتأبين حضرة الاب ملاتيوس حجار رئيس انطش مار الياس للروم الكاثوليك في دير القمر.

ثم رفع جسد الفقيد الى مثواه الابدي في كنيسة الكرسي الاسقفي ووسد حيث توسدت الفضيلة والكرم والعزة والنبل .

المطران بطرس من الخالدين

لقد حزنت عليه الانسانية وبكته الطائفة المارونية التي طالما عززها في حياته وترك لها من المحامد ما يخلد له في تاريخها الشرف بعد مماته .

غاب البستاني ولم يغب ذكره . ودرج ولم يدرج فخره . وطوي ولم تطوَ مآثره . ومضى ولم تمضِ مفاخره . بل لم يزل اسمه منقوشاً على صفحات الصدور . تتوارثه الطائفة عصراً فعصراً . وتكرمه وتبجله دهراً فدهراً .

فلا زالت سحب المراحم تبارك رمسه . وملائكة الرضى تروّح نفسه ! .

واصا باشا

١٨٨٣ — ١٨٩٢

واخيراً اجتمع السفراء عند عارفي باشا لانتخاب خلف لرستم باشا فرشّح لهم الصدر الاعظم من قدمنا ذكرهم فاجمعوا كلهم على انتخاب واصا افندي . وفي الحال سجلوا مرسوم تعيينه في الجلسة نفسها يوم ٨ ايار من سنة ١٨٨٣ ووقعوه جميعاً بخط ايديهم . وهذا نصه :

« لما كان منصب متصرف لبنان قد خلا بانتهاء مدة رستم باشا فقد تنازل جلالة السلطان الى تعيين واصا افندي مستشار ولاية ادرنه وحاكم المدينة المذكورة متصرفاً للبنان.

« وقد اجتمع ممثلو الدول الموقعة نظام لبنان الاساسي في ٢٧ تموز سنة ١٨٦٨ ، وفي ٢٢ نيسان سنة ١٨٧٧ في مؤتمر عند ناظر خارجية جلالة السلطان ، اجمعوا في هذا القرار على اثبات الاتفاق المقدم الذي حصل بينهم وبين الباب العالي على هذا التعيين

« ويعلن الباب العالي بالاتفاق مع ممثلي الدول حفظ مندرجات قرار ٢٧ تموز سنة ١٨٦٨ وقرار ٢٢ نيسان سنة ١٨٧٣ و ١٨٧٧ المتعلق بمدة السنوات العشر المعينة لمدة حكم المتصرف ، واتفقوا ايضاً على حفظ مندرجات القرارات السابقة التي لم تعدل والتي اثبتت في القرارات المذكورة

« وعليه قدم معتمدو الدول ذات الشأن هذا القرار ووضعوا عليه اختام شعائرهم

« حرر في اسطنبول يوم ٨ ايار سنة ١٨٨٣

« التواقيع : ا. عارفي — هوغ — ويندهام — رادوفيتر — دوغاليس — المركيز دي نويال — نيليدوروف » .

مذكرة سفير النمسة

وبعد توقيع هذا المرسوم قدم سفير النمسة للباب العالي مذكرة لفت فيها النظر الى ان المتصرف السابق رستم باشا كان قد خالف اربع مواد من نظام لبنان وأغفل العمل

بها وهو يطلب الآن ان يعود المتصرف الجديد الى مراعاتها ، وذلك بالرجوع عن المسائل التالية :

١ — تعيين معاون لرئيس المجلس الاداري .

٢ — تعيين رئيس ثانٍ لمحكمة الاستئناف .

٣ — انتخاب العساكر اللبنانية من طائفتين فقط .

٤ — حرمان اهالي شمالي لبنان من الدخول في السلك العسكري .

وقد اودعت هذه المذكرة الى المتصرف الجديد وطلب اليه الاهتمام بمندرجاتها لدى قدومه الى لبنان .

المتصرف الجديد يقابل السلطان

قالت الجوائب بتاريخ ٢٢ ايار ١٨٨٣ :

« يوم الاربعاء الماضي ١٥ ايار الجاري تشرف واصا باشا متصرف لبنان الجديد بمقابلة جلالة مولانا السلطان فأوصاه ايّده الله باهل لبنان خيرًا .

« وقد ارسل الباب العالي برقية الى رستم باشا يطلب اليه فيها الانتظار ريثما يصل خلفه . ويقال ان رستماً سيولى سفارة احدى الدول العظام بعد عوده الى اسطنبول

« وقد احسن جلالة السلطان على واصا باشا برتبة الوزارة السامية مع لقب مشير وفقاً لبروتوكول لبنان وبالوسام المجيدي العالي الشان وبخمسمئة ليرة عثمانية ذهباً

« ويوم امس ٢١ ايار تُلي في داره الفرمان السلطاني المؤذن بتوجيه رتبة الوزارة السامية اليه ويغلب على الظن ان سفره الى محل مأموريته الجديدة سيكون بين اواخر الجاري او اوائل القادم » .

من هو واصا باشا

واصا باشا الباني الاصل لاتيني المذهب من قبيلة المرديتي التي يؤكد كبار مؤرخينا انها تعود في اصلها الى الـ١٢ الفاً من المردة الذين جلاهم يوستنيانوس عن لبنان . ويروى ان المطران يوسف الدبس تحدّث مرارًا الى واصا باشا عن هذه الصلة التي كانت تربطه بلبنان فكان يؤمن على قوله مؤكدًا ان في قبيلتهم تقليدًا متناقلاً بالتواتر يؤيد تلك الصلة النسبية بين المردة والمرديتي .

ولد واصا باشا سنة ١٨٢٤ في مدينة اشقودره . وبعد ان ترعرع ارسل الى رومية فتلقى العلوم في جامعاتها متقناً من اللغات الايطالية والفرنسية والانكليزية واليونانية .

وجاء القسطنطينية وهو في العشرين من عمره فتوطنها واقتبس منها اللغة التركية وانصرف اولا الى الادب والشعر وله ديوان مطبوع بالايطالية في تلك الآونة قصائده غاية في الرقة. وقد نشر في مختلف الصحف عدة مباحث ادبية حسنة الاسلوب ، تدل على طول باع في الكتابة وعمق تفكير . ومن خدماته للغته الالبانية انه كان اول من فكر بان يضع لها كتاباً لاصولها وقواعدها كان باكورة الكتب التي من هذا النوع . وكان يبعث بانتاجه الادبي الى جامعة لندن العلمية فعينته لها عضواً فخرياً واتحفته بعدة رسائل شكر وتقدير.

ولم يرَ في الادب ما يملأ مطامحه فتحول الى مناصب الدولة ، وعُيّن في بادئ الامر كاتباً في وزارة الخارجية في العاصمة ، فمستشاراً لسفارة الدولة في لندرة ، ثم أرسل بمهمة الى الجبل الاسود ثم الى سورية فأقام في حلب ست سنين تيسّر له فيها تعلم اللغة العربية ومعرفة اخلاق السوريين .

ثم وجهه الباب العالي الى بلاد الهرسك حين نشبت فيها الثورة ضد الدولة وفوّض اليه سلطات واسعة تخوله اتخاذ ما يراه موافقاً من التدابير والاصلاحات . وبعد عوده الى الاستانة عُيّن مستشاراً لولاية موناستير فمستشاراً لولاية ادرنه وذلك في عهد صدارة خير الدين باشا .

واذ كان يقوم بكل تلك المهام على احسن منوال رقاه جلالة السلطان الى رتبة « بالا » وانعم عليه بالوسام العثماني من الرتبة الثانية ، ثم عيّنة متصرفاً لولاية ادرنه فمعاوناً لواليها الى ان عُين متصرفاً للبنان .

قدوم واصا باشا الى لبنان

وقدم واصا باشا الى لبنان في حزيران من سنة ١٨٨٣ وكان رستم باشا لا يزال يقوم بالاعمال نيابةً عنه ، فاعدّ له استقبالاً لائقاً في الحدث اجتمع اليه جمهور من علية الموظفين وبقي في الحفلة يأمر وينهي متقدماً عليه جالساً الى يمينه الى ان تلي الفرمان الصادر بتعيين المتصرف الجديد عندئذٍ تقدم منه رستم باشا مصافحاً مصافحة تسليم وانتقل في جلوسه الى يساره على اعتبار انّه اصبح الحاكم بامر السلطان ثم القى على الجميع تحية وداعية اخيرة واتجه الى عربة كانت واقفة بانتظاره الى بيروت فركب الباخرة ميمماً اسطنبول ولم يكن في وداعه الا نفر من اقرب المقربين اليه .

مرافقو واصا باشا

وكان برفقة واصا باشا عند قدومه الى لبنان عدة اشخاص رأينا ذكرهم بسبب ما نجم عن تصرفات بعض من اولاهم الوظائف منهم في حكومته من تأثير متباين المفعول في السياسة اللبنانية .

١ — زوجته السيدة كاترين بوناطي ، كل ما عرفناه من امرها انها من المذهب الارثوذكسي ، وقد اقترن بها بعد وفاة زوجته الاولى وكانت مصابة بداء هو السرطان فلم تلبث ان ماتت ودفنت في الحازمية في قبر مجاور لقبر فرنكو باشا .

٢ — بنته من زوجته الاولى السيدة ماري وزوجها الارمني السيد كوبليان وابنتان لهما في ريق العمر وكانت ماري ذات جمال فتان ولكنها مصابة بالسل فلم يطل بها الامر حتى لحقت بخالتها زوجة ابيها ودفنت الى جانبها في الحازمية .

٣ — طبيب رومي لم نتمكن من معرفة اسمه ، خصّه المتصرّف بمعالجة اسرته ثم عيّنه طبيباً اول للمتصرفية بمرتب حسن ، ولكنه بعد وفاة الزوجة والبنت استقال وغادر البلاد قيل لخلاف شجر بينه وبين المتصرف بقي سببه طي الكتمان .

٤ — السيد بوناطي شقيق كاترين زوجته ، عيّنه مفتشاً للدرك اللبناني منذ وصوله وكان حسن الخلق ابي النفس ، ولكنه ما عتّم ان أصيب بالسل ولحق بشقيقته وبنت صهره .

٥ — اما كوبليان صهر واصا فقد كان من دهاة الارمن ثاقب العقل واسع المعرفة يجيد عدة لغات بصيرًا بشؤون السياسة ، عيّنه مديرًا لدائرته السياسية ومديرًا للقلم الاجنبي ، وكان هذا القلم يقابل يومذاك وزارة الخارجية في هذا العصر ، فاحسن كوبليان العمل وقام بمهمته خير قيام ، من حيث اتقان ما يعهد اليه من تحريرات ومراجعات ومراسلات.

ولكنه كان طماعاً يحب المال ، وله اساليب شيطانية في تحصيله ، ولم يمضِ ردح من الحين حتى اخذت الشكاوى تتوارد الى المتصرف من ان صهره بدأ يستغل علو مركزه وصلة نسابته اليه في جني المغانم والمرابح من هنا وهناك ، وبواسطة بعض السماسرة والاعوان الذين كانوا يخدمونه ويتقربون منه لمعرفتهم ما له عند المتصرف من مقام مرموق .

وكان واصا بعد وفاة زوجته وبنته قد اصبح وحيداً في منزله لا انيس له غير صهره وبنتيه ، حفيدتي المتصرف ، اللتين كان يرى فيهما صورة مصغرة لامها وعلى ذلك

تعلّق قلبه بهما وصار لا يطيق عنهما فكاكاً ، ولذلك استبقى كوبليان الى جانبه وظل مستمسكاً به رغم ما كان يصل اليه عنه من اخبار تجرح كرامته في الصميم .

ومن ثم تمادى كوبليان في مطامعه وفتح باب الرشوة على مصراعيه واخذ يسعى في كسب المال ولا سيما من الموظفين والملتزمين واصحاب المصالح بطرق جهنميّة لم تخطر لاحد ببال ، وبسبب ذلك تكاثر حوله القيل والقال ، وهبّ الناس يتذمرون من تلك الحالة تذمرًا كاد يكون شاملاً .

وكان لواصا ثقاة يطلعونه على كل صغيرة وكبيرة من تصرفات صهره ، فاستدعاه اليه مرارًا ، وأنبه وطلب اليه الكف عن تلك الاعمال التي كانت تشوه سمعتيهما معاً ، واخيرًا اذ رآه لا يرتدع اقاله من منصبه وزوده بمبلغ من المال ، واشار عليه بالسفر الى الاستانة وارفقه بمكاتيب الى اصدقائه فيها يسألهم الاهتمام بايجاد مركز له ، يلائمه ، فقفل تاركاً ابنتيه عند جدّهما واطمأن بال واصا من نحوه .

واصا باشا يتزوج لثالث مرة

وبعد سفر كوبليان ازدادت وحشة واصا واصبح لا يرى حوله في منزله الا الخوادم والخدام . وكان المقربون اليه يعرفون أن له من قبل ان تموت زوجته علاقة صداقة بفتاة فرنسية حسنة التهذيب تنعم بقسط وافر من الجمال والثقافة اسمها « مدموازل لوريش » فاشاروا عليه بأن يتزوجها دفعاً لسأمه ، وتوفيرًا لراحته في منزله ، واستنادًا الى ما خبروه من ان الحاكم المزوّج هو اصلح لادارة البلاد من الحاكم الاعزب او الارمل .

فاستحسن واصا مشورتهم ولم يلبث ان اتفق مع مدموازل لوريش وفي حفلة ساذجة بارك القاصد الرسولي (پيافي) زواجهما في بيت واصا ، ووفّرت السيدة لوريش لزوجها حياةً هانئة وانجبت له غلامين دعي اكبرهما مخايل بك .

بعض اوصافه واعماله

ومن بعض ما تركه لنا معاصرو واصا عن اوصافه انه كان لطيفاً بشوشاً دمث الخلق مع علو همة ورغبة في الاصلاح والتحسين ، بدليل مباشرته منذ وصوله عدة اعمال نافعة لم ينتبه اليها من تقدمه .

منها : انه اوجد في قصر بتدين قاعة كبيرة لمجلس الادارة ، وزانها بالفرش اللائق ، ثم انشأ قاعات اخرى لمختلف الدوائر الادارية والقضائية في المركز والملحقات ، وجهزها بكل ما تحتاج اليه من اثاث ومعدات .

وقد صرف عنايةً خاصة في اقامة مستشفى في بتدين كان يشارف عليه احد اطباء المتصرفية واهتمّ باصلاح سجنها وبانشاء مطبعة فيها وجريدة .

بناؤه سراية بعبدا

وفي ايامه صار الاهتمام بايجاد مركز شتوي رسمي للحكومة اللبنانية وبعد تبادل المفاوضة في هذا الشأن مع اهالي القرى الساحلية الموافقة لمثل ذلك الغرض ، بادر اهالي بعبدا في سنة ١٨٨٧ الى شراء دار كبيرة في قصبتهم كان قد بناها الامير ملحم الشهابي في موقع يجعلها في غاية الموافقة لأن تكون دارًا للحكم وسجلوا صك شرائها باسم متصرفية جبل لبنان .

فاهتمّ واصا باشا بهدم بنائها القديم ، وشيَّد فيها الجناحين الشرقي والغربي على طراز شائق جميل ، وجعلها مركزًا شتويًّا دائماً لدوائر المتصرفية .

ومن الاعمال المذكورة بالخير لواصا باشا :

١ — عنايته بتشييد سراية للحكومة في مدينة زحلة .

٢ — وضع حجر الاساس لسراية جونية ولكن الداء الذي المَّ به منعه من انجازها فأنجزها من بعده خلفه نعوم باشا .

٣ — اقامته عدة مخافر على الطرق لتأمين المارة .

٤ — وفي « تنوير الاذهان » لابراهيم الاسود انه انشأ في لبنان ١١٧ جسرًا هذا على ما يظهر بحسبان كل عبَّارة تمدّ على ساقية شتوية جسرًا .

٥ — ومن منشآته النافعة شق عدة طرق للعربات في مختلف الجهات اخصها طريق نهر الكلب وجونيه وطريق عين عنوب وغيرهما .

واصا اول حاكم يهتم بالتنقيب عن الآثار

وكان واصا باشا اول حاكم لبناني اهتم بالتنقيب عن الدفائن الاثرية اذ كان قد بلغه ان في قطعة ارض لعلي باشا جنبلاط تقع في جهات البرامية دفائن اثرية ذات قيمة فاهتمّ بتوجيه احد اصحاب الاختصاص اليها للبحث عما قد تقع عليه تحرياته وكان اهم ما عثر عليه ذلك المنقب ناووساً بديع الشكل مزداناً بنقوش رائعة وعلى غطائه تمثال رجل على رأسه تـــاج ، يظن انه صورة لاحد الملوك الاقدمين . وقد قال عنه العالم

الاختصاصي الذي استخرجه انه لم يرَ له مثيلاً في كل ما عثر عليه من اثريات في بلدان الشرق .

وبعد مدة ارسل هذا التمثال الى الاستانة ليوضع في متحفها وكان من واجب المتصرف عهدئذٍ ان يأمر بحفظه في غرفة بقصر بتدين يجعلها نواةً لمتحف اثري لبناني يحمل اليه كلّ ما قد يعثر عليه من اثريات لبنانية في قابل الحين .

فوزه على والي سورية

ومما يدلنا على جرأة واصا باشا واعتصامه بالحق وايثاره مصلحة لبنان الخبر التالي الذي رواه عنه ابراهيم الاسود في كتابه « تنوير الاذهان » (جزء ١ ص ٥٨) قال :

« حين انتشر الهواء الاصفر في عهده اضطرت حكومة لبنان الى ان تقيم محجراً صحياً لها في المريجات (اول حدود لبنان عهدئذٍ من جهة سورية) ولكن والي دمشق استاءَ من ذلك وطلب من واصا باشا الغاء محجر المريجات والاكتفاء بالمحجر السوري القائم في محلة ميسلون ، وغايته من ذلك ان يكون له وحده الامر والنهي في امر المحجر ، فأبى واصا باشا اجابته الى طلبه ، وردَّ عليه بأن مصلحة لبنان تقضي بأن يبقى المحجر الصحي للبنان في ارض لبنان ، وعلى الولاية أن تقيم لها محجراً ضمن حدودها حيث تشاء .

فقام والي سورية وقعد لهذا الجواب واستنجد بالباب العالي في عهد صدارة المشير ادهم باشا ، فكتب هذا الى واصا يأمره بالاذعان لطلب الوالي ، ولكنه لم يأبه للامر ودفعه ما تولاه من غيظ على ان يبرق اليه بالتركية قائلاً :

« رفعت العرض بشأن المحجر الى المابين الذي اليه المرجع في مثل هذه الحال وساعمل بما تبتغيه الارادة السنية » .

وبذلك بقي المحجر في المريجات وكان الفوز بجانب واصا باشا .

واصا باشا يأمر باعتقال باشا تركي لانه يضمر الكره للبنان

وفي المكان نفسه روى ابراهيم الاسود الخبر التالي المؤيد ما كان عليه واصا باشا من جرأة ومن رغبة في المحافظة على كرامة لبنان قال :

وكان في ذلك العهد في كل ولاية من ولايات الدولة الى جانب واليها متصرف بلقب باشا يسمونه « متصرف المركز » مهمته تبادل المكاتبات الرسمية مع مختلف المراجع في بلدان الدولة . وكان في بيروت بعد ان اصبحت ولاية سنة ١٨٨٨ متصرف من هذا

النوع اسمه ابراهيم باشا كان متصرف لبنان مضطرًا الى ان يجري معه المخاطبات المتعلقة بالمتصرفية اللبنانية .

فكان ابراهيم باشا هذا يظل حانقاً على لبنان لما كان له من امتياز على سائر ولايات الدولة ، ولذلك كان يقف عن تلبية حكومته الى ما كانت تطلبه منه ، فبسط واصا باشا قضيته للولاية مرارًا ، وكانت هي بدورها تقف عن الجواب ، واذ اعيته الحيلة أضمر الاهانة لابراهيم باشا واخذ يترقّب لها الفرصة المؤاتية .

حتى نمي اليه مرةً انه سيخرج من بيروت في يوم عيّنوه له على مركبة من مراكب الديليجانس فكتب حينئذٍ الى محمد بك الارناووطي محافظ طريق الشام من قبل الحكومة اللبنانية يأمره بان يترقب ظهور ابراهيم المذكور في المركبة في طريق الحازمية فيستوقفه ويقبض عليه ويقتاده مخفورًا الى بتدين .

وقد تولى محمد بك الارتباك لانه لم يكن باستطاعته ، من جهة مخالفة امر آمره ، ومن جهة ثانية كان يخشى سوء العاقبة فيما اذا اعتقل موظفاً كبيرًا من موظفي الاتراك .

فلجأ حينئذٍ الى صديق له في بيروت معروف بالوجاهة والحكمة واصابة الرأي هو المرحوم محيي الدين بيهم وشاوره في الامر فاشار عليه بأن يحمل ابراهيم باشا بواسطة احد اصحابه على عدم الخروج للسفر في ذلك النهار . وهكذا كان وتخلّص محمد بك من تلك المشكلة . ولم يزل الامر الصادر الى محمد بك بهذا الشأن مسجلاً في دفاتر القلم العربي في لبنان حتى اليوم .

الغاؤه المحاكم اللبنانية

وكان واصا باشا اول من الغى من المتصرفين نظام المحاكم اللبنانية الذي كان داود باشا قد جعله وفق نظامنا الاساسي متلائماً مع اوضاع بلادنا وعادات اهلها فربطه واصا بالنظام الجديد المعمول به في الاستانة ، ولا يخفى ما سببه بذلك من ارهاق للمتداعين اللبنانيين باضطرارهم الى تمييز قضاياهم الى عاصمة السلطنة بينا كانت سابقاً تنتهي كلها في لبنان .

على أن واصا ظل يقول بعد ذلك الالحاق بعصمة المحاكم اللبنانية من اي تدخل خارجي ، دليل ذلك ما روي عن انه بعد بضعة اشهر من عمله ذاك جاء الى لبنان احمد عزت باشا مفتش العدلية يريد تفتيش المحاكم اللبنانية ، فابى عليه واصا باشا ذلك قائلاً: « ان هذه المحاكم مستثناة من اي تفتيش او تدخل من خارج لبنان » .

ولكنه بناء على الحاحه اذن له بالقاء نظرة على السجلات في مكتبه الخاص خارجاً عن دائرة المدعي العمومي وبدون أن يدون فيها بخطه اي تعليق.

عودة كوبليان

ولم يطل غياب كوبليان الذي كان واصا قد أبعده ليرتاح من مقالبه، واذا به على قول ابراهيم الاسود يرجع من الاستانة ومعه امر صادر من الباب العالي بالعودة الى مركزه السابق، ومن ثم هرع اصحابه الى الالتفاف حوله مصممين على استطراد اعمالهم السابقة وذلك بعد ان يجتذبوا واصا باشا الى مشايعتهم واخذوا يستعينون عليه بزوجته مرغبينها في حشد المال لها ولولديها اذ لم يكن لها من مورد رزق غير مرتب زوجها، وقد نفر منهم المتصرف في بادئ الامر، ولكنه بعد تكرار الترغيب والتشويق من زوجته وعد على ما قيل بالسكوت عنهم والاغضاء عن مساوئهم وبذلك حمل الالسن على تقبيح عمله وتشويه صيته. ويروي معاصروه ان دار الحكومة كانت في الآونة الاخيرة من حكمه مثل «مغارة لصوص» لا هم لمن فيها الا ابتزاز الاموال من اي مصدر كان وباية وسيلة سنحت.

زمرة كوبليان

ولم يكن الذنب في توفير حوادث الرشوة وابتزاز اموال الموظفين ذنب كوبليان فحسب، بل ذنب الذين عاونوه ونشطوه وسهلوا امامه الطرق، ممن كان يحسبهم البعض من اكابر اللبنانيين وابناء بيوتاتهم المرموقة، بل ذنب الذين انقادوا اليه. ومعلومٌ أن القانون يعاقب الراشي والمرتشي على منوالٍ واحد لأن كليهما في الجرم سواء.

وها نحن نروي بعض الطرق التي كان يتفنن في اتخاذها سماسرة كوبليان لابتزاز الاموال من الموظفين على أن يكون لهم ولا ريب نصيبهم منها:

اكلة دجاج يؤدى ثمنها غالياً

قيل: ادب ذات يوم احد الموظفين لنسيب له مأدبة في داره كان من جملة انواع الطعام التي قدمها له لحم الدجاج، واذ كان قد بقي شيء من ذلك اللحم الى اليوم الثاني ارسلته اليه زوجته الى السراي غداءً، وبينما كان يأكل، رآه بعض افراد الزمرة فابلغوا امره الى كوبليان فدخل عليه واذ رآه وقف امامه هنيهة يتأمله ويقول: «ها انك غني ايها السيد ...» ولم يزد.

وبعد يومين جاءه احد اولئك الذين سعوا به الى كوبليان وقال له : « تعلم اني احبك يا فلان ، وقد عرفت اليوم من احد المقربين من كوبليان انهم يفكرون في تعيين فلان بدلاً منك في منصبك لانك رجل غني لا يأكل الا لحم دجاج وتستطيع الاستغناء عن وظائف الحكومة » .

ففهم صاحبنا ما يعنيه مخاطبه ، وعهد اليه في ايصال مبلغ من المال الى صهر المتصرف ليصرف عنه نظره ويبقيه في وظيفته .

خمسون ليرة كرمى لعيون لطيفة

وروى المرحوم شاكر الخوري عن كوبليان في كتابه مجمع المسرات ص ٤٨٥ النادرة التالية :

كان احد مديري النواحي هائماً في قريته بحب فتاة اسمها لطيفة ، واتصل خبره بكوبليان، طبعاً من افراد الزمرة ، وفي ذات يوم جاء المدير الى مركز المتصرفية لقضاء بعض اشغال واذا بهم قد نصبوا له شركاً هو التالي :

دخل المدير على كوبليان واذا به يقول له : « لقد صدر اليوم امر لجنابكم بنفي امرأة من قريتكم وابعادها فهل لم يصلكم بعد ؟ »

قال المدير : « لا، لم يصلني بعد امر بهذا الخصوص ومن هي هذه المرأة ؟ »

اجاب كوبليان : « هي امرأة تسمى : لَالَ طيطيفه »

فارتجف المدير وقال : « ولِمَ ذلك يا سيدي ؟ »

قال : « لان الجميع يشكون من انك وانت مدير الناحية المفروض عليك الاهتمام بمصالحها تترك اشغالك وتصرف اكثر اوقاتك في منزلها ، ودولة المتصرف اكراماً لخاطرك لا يريد عزلك واكتفى الآن بنفي المرأة . »

وهنا سأل المدير عما اذا كان الامر قد صدر، فأجاب كوبليان : « انه سيصدر بين ساعةٍ واخرى » ، عندئذٍ فهم المدير الدواء قبل ان يقع الداء فاختلى بكوبليان وقدّم له خمسينَ ليرة ذهبية كي لا تنفى خليلته وتقع الفضيحة ، وهكذا ربح كوبليان الخمسين ليرة غنيمةً باردة ... فتأمل ...

وايش كنا مَنْ نعملْ عندك يا افندي ؟

وروى شاكر الخوري في الصفحة ذاتها نادرة اخرى عن كوبليان من الصنف نفسه وهي التالية :

حضر الشيخ رشيد الخازن المشهور بنكاته لزيارة كوبليان وطلب منه تعيين احد الاعيان مديرًا في قائمقاميته ، فطلب كوبليان مئتي ليرة ذهبية « شوفة خاطر » في مقابلة لمساعدة على تحقيق هذا التعيين ، واذ لم يتفقا نهض الشيخ مودعاً وفيما كان يصافح كوبليان قال له : « عرفت يا شيخ رشيد ان كاتب محكمتكم يرتشي فانتبه اليه » . اجاب رشيد بلهجته الخازنية : « وايش كنا مَنْ نعمل عندك يا افندي ؟ ! » فضحك اكوبليان وسكت ...

ضريبة على الخضاب

ومن المضحك ان كوبليان طمع مرة بابتزاز مبلغ من المال من احد القضاة الكهول وكان هذا يخضب شعره بالسواد فارسل اليه احد سماسرته يفهمه ان القاضي يجب ان يكون متقدماً في السن ليكمل وقاره ففي الحال فهم ما يطلب منه وارسل الى كوبليان مبلغاً من المال فجاءه احد اعوانه يطمئنه الى ان امر خضابه فهم فليكن من بعد ناعم البال .

تنين لبنان

واخيرًا تعالت اصوات التذمر في لبنان من الحالة التي اوصلها اليها كوبليان ، وهب فريق من اللبنانيين يختلفون الى القنصليات ويقدمون لها شكاياتهم طالبين ايجاد علاج للحالة التي اصبحت لا تطاق ، وذهب آخرون الى الصحف يستعينون بها على لفت انظار اولياء الامر في الاستانة لقطع دابر الرشوة ، وكان في مقدمة هؤلاء الدكتور شاكر الخوري فقد وجه بهذا الشأن مقالاً الى جريدة الاهرام المصرية هذا ما جاء فيه :

« ظهر في لبنان تنين قصير القامة ، اسمر اللون ، ذو لحية سوداء ، ينظر الى جميع الجهات في آن واحد ، لا يأكل لحماً ولا نباتاً بل معدناً ، وخصوصاً معدني الفضة والذهب ، ويجوب لبنان بالطول والعرض ، ويستخرج المعادن من الجيوب لا من الارض ، اذا اكل ضحك ولعب ومسح شاربيه وفرك يديه ، وبالعكس اذا لم يقدم له الطعام هاج وماج ورفس الارض برجليه ، لم يظهر حيوان مثله في الكون ، وقيل انه من الحيوانات التي ظهرت قبل الطوفان لان نوحاً عليه السلام عندما جمع الحيوانات في الفلك وطاف

على وجه الماء استقرت السفينة على جبال اراراط في ارمينية ، فخرج هذا الحيوان قبل الجميع نظرًا لشراهته وفلت من السفينة وبقي في بلاد ارمينية ، فنسأل دولتلو واصا باشا ان يقي البلاد منه وله من اهلها الدعاء والممنونية . »

لبنان بصورة بقرة يحلبها كوبليان ويمسكها واصا بقرنيها

وكان اللبنانيون في ايام واصا الاول يمتدحون نزاهته وما كان يبديه من مضاء وشدة في خدمة لبنان ، ولكنهم في ايامه الاخيرة بعد ان انتابه المرض وتولاه الضعف واصبحوا يرون كوبليان يستولي على امره ، وحتى على داخلية بيته ، ويدير شؤون المتصرفية باسمه وفق مطامحه وعلى ما يتلاءم مع مصالحه واغراضه ، صاروا يتهمونه بمشاركته في جرائمه ، ويحملونه كل تبعة لما يجنيه ويرتكبه من موبقات .

ولعل ذلك ما اوحى الى بعضهم نشر صورة تمثل لبنان بقرةً يعني كوبليان يحلبها ويمسكها له واصا من قرنيها ، وقد انتشرت تلك الصورة انتشارًا واسعاً ولبثت عهدًا موضوعاً لاحاديث الناس وتندراتهم في المجالس والسهرات .

وفاة واصا

على ذلك اجمع او كاد مؤرخو ذلك العهد . وفي حزيران من سنة ١٨٩٢ اشتد على واصا داؤه وفي ٢٩ منه لفظ انفاسه الاخيرة وهو في بيروت في منزله ببيت جدي . وبعد ان صلي عليه في كنيسة الآباء الكبوشيين دفن في الحازمية على مقربة من زوجته وبنته ، وفوض الباب العالي الى المجلس ادارة الشؤون في لبنان ريثما يعيّن خلفه .

ووصف لنا المرحوم شبلي ملاط حادثاً وقع على قبره يوم دفنه قال :

« وقف احدهم على قبره امام جماهير غفيرة احتشدت هناك وفي مقدمتها رجال الحكومتين اللبنانية والبيروتية ، منتحلاً لنفسه الكلام باسم لبنان ، وأخذ يرص الجمل المترادفة في تعظيم الخطب الى ان رفع عقيرته متمثلاً بقول من قال :

« اذا جمدت دموعُ لئيمِ قومٍ فليس لدمع ذي شرفٍ جمود »

فانتفض ذلك الجمهور كمن مسته الكهرباء ووقعت الجلبة احتجاجاً واستفهم والي بيروت الواقف هناك عن السبب ففسروا له معنى البيت فدمدم بالتركية غاضباً وقال : « اذًا انا بلا شرف لاني لم ابكِ ؟ »

ولم يقف الامر عند الجلبة ، بل ما هي مثل رفة الجفن حتى نهض رجل (هو المرحوم تامر الملاط) الذي كان واصا قد عزله مع الامير مالك شهاب والشيخ فيليب الخازن ويوسف بك الشدياق من مناصبهم بتهمة اشتراكهم في ما نشرته الصحف من فضائح كوبليان ووقف في مركبة لصديق له من آل سرسق بعد ان نبّه سائقها الى ان يكون مستعدًا للسير في جهة بيروت عندما يشار اليه بذلك وقال بصوت جهير ما يلي:

ان ما سمعتم يا سادة ليس هو بلسان اهل لبنان ، بل بلسان المتكلم الشخصي ليس الا . اما لسان عموم اللبنانيين فانه لا يتجاوز طلب الرحمة والغفران للفقيد، وانشد البيتين التاليين :

قالوا : قضى واصا وواروه الثرى — فأجبتهم وانـــا الخبير بذاتـــه:

رنوا الفلوس على بلاط ضريحه — وانـــا الكفيل لكم بـــرد حياته

وهنا طلب بعض المحيطين بكوبليان ان يعتقل تامر بحجة انه اهان ممثل السلطان وفيما صدر الامر بذلك الى احد فرسان الدرك كانت المركبة قد طارت به ومعه صاحبها واثنان من الاشداء الى بيروت حيث صار في مأمن .

واشتهر هذان البيتان من الشعر في لبنان بين الخاصة والعامة اشتهارًا بعيدًا . ومما رواه شبلي اخو تامر في ديوانه ان قد اتفق مرة ان مكاريين كانا عائدين من بيروت ووقفا يتحاسبان في الحازمية الى جانب قبر الباشا الذي كان قبل نقله الى حيث هو اليوم اكثر قرباً من الطريق فسقطت قطعة من الدراهم من يد احدهما ورنت فقال الآخر ممازحاً : « احذر ان يسمع رنينها واصا فيقوم من قبره ! » .

وسافر كوبليان الى الاستانة ومعه بنتاه وارملة واصا وولداها على نفقة الدولة كما سيجيء وروى شاكر الخوري ان الارملة كانت قد اشترت املاكاً في الدامور اوكلتها الى حبيب الدوماني وانها حضرت بعد بضع سنين الى لبنان لمشارفتها وربما للاهتمام ببيعها ولم يعرف شيء من بعد عما آل اليه امرها ولا امر كوبليان .

نعوم باشا

١٨٩٢ – ١٩٠٢

نعوم باشا خامس متصرف للبنان حلبي الاصل لاتيني الطائفة ابوه من آل توتونجي وامه شقيقة فرنكو باشا ثاني المتصرفين من آل كوسا . ولد في الاستانة عام ١٨٤٦ دخل المدرسة السلطانية فحصل فيها علومه واتقن من اللغات التركية والفرنسية . اما العربية فقد تلقنها في اسرته عن ابيه وامه لانها لغتهما الام ولكنه قلما كان يستعملها في مخاطباته .

بعد خروجه من المدرسة عين كاتباً في نظارة الخارجية ثم ارسل الى سفارة الدولة في عاصمة روسية فعين فيها امين سر ولم تطب له الاقامة هناك فاعيد الى الاستانة بناء على طلباته المتكررة وعهد اليه في النظارة المركزية بمنصب مستشار وقد لبث في عمله هذا طوال ٢٥ سنة يخدم الدولة بكل اخلاص وامانة الى ان عين متصرفاً للبنان وفي خلال ذلك كان قد اقترن بابنة خاله السيدة ماري الجامعة بين الجمال والكمال وقد رزق منها ولدهما الوحيد « سعيد بك » الذي رافقهما الى لبنان وهو في سن تتراوح بين المراهقة والشباب ، وعاد معهما اخيراً الى الاستانة حيث عهد اليه بمنصب كالمنصب الذي كان فيه ابوه وهو في مثل عمره .

كيف اختير متصرفاً

بعد ان توفي واصا باشا وخلا منصب المتصرفية في لبنان اجتمع سفراء الدول الكافلة في جلسة عند سعيد باشا ناظر الخارجية وبحثوا في انتخاب متصرف جديد فقدم لهم سعيد باشا عدة مرشحين هم التالية اسماؤهم : نعوم افندي المستشار في نظارة الخارجية، زهراب باشا ، نصري بك نجل فرنكو باشا ، مورل بك الذي كان في لبنان مع رستم باشا ، مخايل افندي برتوغال ، بدروس افندي ، غضبان افندي ، ليختاروا منهم من تجتمع عليه كلمتهم فوقع اختيارهم على نعوم افندي وللحال وضع مرسوم تعيينه في ١٥ آب ١٨٩٢ الى خمس سنين وبعد انقضائها جُدِّدت له الى خمس سنين اخرى .

ولما كان السفراء قد تلقوا من اللبنانيين عدة احتجاجات على خرق نظام لبنان في مسألة انتخاب المجلس وتغيير نظام العدلية والتدخل في المحاكم فقد طلبوا من سعيد باشا بان تعار احتجاجاتهم بالا ودونوا ذلك في مرسوم التولية بالعبارات التالي نصها :

١ — يجب ان تجري انتخابات مجلس الادارة بكل ضمانات الحرية والاستقلال وان تحترم حقوق هذا المجلس .

٢ — وان يعاد النظام القضائي الى مثل ما وضع له في المواد ٦ و ٧ و ١٠ من نظام ١٨٦٤ لان التغيير الذي ادخله عليه متصرفو لبنان جرى بغير رضى الدول الموقعة ذلك النظام وبدون موافقتها .

٣ — وان تحترم الضمانات المخصصة بالقضاة في المادة ١١ من النظام المذكور فلا ينقل هؤلاء الموظفون ولا يعزلون الا بعد تحقيق يتم بمعرفة المجلس الاداري ورضاه التام.

وقد اعلن صاحب الدولة سعيد باشا ناظر الخارجية ان الباب العالي يعتمد هـذا الطلب ويوصي الحاكم الجديد بوجوب احترام نظام لبنان وتنفيذ كل مندرجاته وتجنب العبث به والخروج عليه .

ولكن نعوم باشا لم يغير شيئاً من نظام العدلية الذي ادخله سلفه واصا باشا بحجة ان سكان الجبل اعتادوه والفوه واصبح تبديله يسبب لهم شتى المشكلات والمتاعب وقد آثر قناصل الدول وسفراؤها مجاراته في ذلك مجانبةً للقلاقل التي اشار اليها .

سفر اسرة واصا

وبعد ان انتخب المتصرف الجديد اهتم المابين باسرة واصا ارملته السيدة لوريش وولديها وصهره كوبليان افندي وبنتيه فأمر بان تدفع ولاية بيروت نفقات سفرهم الى الاستانة وفي حال وصولهم اليها عين لهم مرتباً سنويـاً يعيشون منه بعد فقيدهم قدره اثنا عشر الف فرنك بحساب الف فرنك في كل شهر .

قدوم نعوم باشا والفرمان السلطاني

اما نعوم باشا فقد تفضل جلالة السلطان عليه برتبة الوزارة وبالوسامين العثماني والمجيدي من الرتبة الثانية وارسل اليه فرمان التعيين مع اثنين من حجاب القصر السلطاني حملاه اليه على عجلة فخمة من عجلات الاسطبل العامر فاستقبلها نعوم باشا بالاجلال مرتدياً

بزة الوزارة المقصَّبة وتناول منهما الفرمان وقبله بكمال الوقار ثم دفعه الى احد الحاضرين فقرأه بصوت عالٍ وختمه بالادعية الحارة لجلالة الباديشاه .

وبعد ذلك جاء نعوم باشا المابين يؤدي خالص شكره ، لصاحب الجلالة ويقوم بواجب وداعه ويستأذنه بالسفر الى لبنان محل مأموريته الجديدة فأوصاه باللبنانيين خيرًا على عادته مع كل متصرف ، ثم طاف الباشا على اصحاب المقامات العالية هناك : الصدر الاعظم وسعيد باشا ناظر الخارجية وسفراء الدول يودعهم فشيعوه جميعاً بحفاوةٍ متمنين لهُ التوفيق في مهمته .

وصوله الى بيروت وبعبدا

وسافر نعوم باشا الى لبنان تصحبه عقيلته ونجله وكان له صديق في بيروت هو اسكندر بك التويني لاقاه الى مرسين وجاء في رفقته الى بيروت ، فعيّنه له معتمدًا ورئيساً لغرفته السياسية واستمر في هذا المنصب طوال مدة متصرفية نعوم .

ووصل الى الثغر قبـــل ظهر الاحد ٤ ايلول فاستقبل بطلقات المدافع والموسيقى العسكرية وبحفاوة والي بيروت وكبار الموظفين والاعيان البيروتيين واللبنانيين . وبعد تبادل الزيارات الرسمية حلّ المتصرف ضيفاً على معتمده في قصر آل تويني .

وفي صباح اليوم التالي الاثنين جاء بعبدا حيث تلي الفرمان بحضور جماهير المستقبلين القاه احد الموظفين بالتركية وترجمه آخر الى العربية . وبعد رفع الادعية للسلطان تكلم المعتمد التويني بلسان المتصرف قائلاً : « انه سيحرص قبل كل شيء في مهمته على تنفيذ رغبات السلطان الخيرية الهادفة الى ما فيه رفاه الشعب » وطلب من الموظفين ان يكونوا في بتدين يوم ١٥ ايلول لمباشرة الاشغال ، وختم اخيرًا بالاشارة الى ان المتصرف لا يُغرّ بالاقوال بل يريد افعالا وبأنه مع استهدافه العدل في كل اعماله سيكون صارماً جدًا مع اي من حدثته نفسه بمخالفة القانون .

واخيرًا تكلم المطران يوسف الدبس مرحباً معلقاً على المتصرف الجديد احسن الآمال داعياً له وللسلطان بالعزة والتأييد .

سفره الى بتدين

وفي الموعد المعين سافر نعوم باشا الى بتدين فجرت له على طول الطريق استقبالات حافلة بالاهازيج والعراضات على العادات المرعية في ذلك الحين . وروي انه عند مروره

بالحازمية زار قبر سلفه وانحنى امامه انحناءة اجلال وترحم فاكبر الناس فيه تلك العاطفة

ومن ثاني يوم وصوله باشر حركة تطهير واسعة في دوائر الحكومة شملت من الموظفين كل من كان ذا صلة بكوبليان وواصا وعصابتهما أو قيــل عنه انه شاركهما بما كانا يقترفانه من مساوئ ، مبتدئاً بالزعماء منهم ، مستبدلاً بهم آخرين ممن لاح له او نمي الى علمه انهم يفضلونهم بحسن مسلكهم ونظافة ماضيهم ، ثم حلّ مجلس الادارة وأقال من فيه من كتبة ، وأجرى انتخابات جديدة وعني بان ينتخب له من لا شبهات في اعمالهم ، وعلى هذا النحو اوجد جهاز حكم بين يديه منتقى ممن رآهم او قيل له انهم من النخبة ، على انه لبث يراقبهم ويحصي عليهم حركاتهم ويحاسب كلاً منهم على عمله حساباً عسيرًا ، وبذلك استقام سير الاشغال في حكومته استقامة قابلها اللبنانيون بالرضى وجعلتهم يخلدون الى الطمأنينة والراحة .

عهد نعوم باشا كان عهد أمن وسلام

وكأن الاقدار شاءت ان تهادن نعوم باشا وتوائيه فكان عهده كله عهد امن وسلام ، اذ لم يقع فيه اي حادث يثير قلقاً او صخباً ، وفي ايامه انفتح باب المهاجرة الى الديار الاميركية وغيرها على مصراعيه ، فشغل الناس بها عن رصد اعمال الحكومة ونقد ما اعتادوا ان يحصوه لها من اخطاء ويوجّهونه اليها من تهمات .

صفات نعوم باشا

كانت صفات نعوم باشا على الاجمال حسنة مرضيّة تدل على حكمة وتعقل ودهاء ورصانة . قال عنه المرحوم ابراهيم الاسود وقد كان من خصومه :

كان نعوم باشا رجلاً عاقلاً حسن التدبير وكثيرًا ما جدّ وراء ارضاء قناصل الدول والسلطات الدينية . وقد القى مقاليد الامور في كل مدة ولايته الى اسكندر بك التويني الذي كان بيته اذ ذاك محطاً لرحال اصحاب المصالح ولم يكن المتصرف يقضي امرًا الا بمشورته وقد نقم عليه كثيرون بسببه .

وقال الياس طنوس الحويك في مذكراته المخطوطة :

كان نعوم باشا داهية في تصرفه مع رجال الدين وقناصل الدول ، فلم يدع احدًا منهم مستاء منه كل الاستياء ، او راضياً عنه كل الرضى ، اي انه لم يدعْ لهم مجالاً لان يطمعوا به او لان ينفروا منه ويستعدوه .

اما مع سائر الناس فكان يجانب الضرر باي مخلوق ، ولم يكن يستنكف عن الجدل مع اصحاب المصالح واقناعهم بالبرهان بصحة رأيه وبطلان ما يريدونه ويرمون اليه ، وعلى ذلك كانوا يغادرونه شاكرين ما بدا لهم فيه من لطف ومؤانسة ولو لم يحصلوا على ما جاءوا يطلبونه منه .

وقال الدكتور شاكر الخوري في كتابه « مجمع المسرات » (ص ٥٥٤) تحت عنوان : « محاكمة التاريخ لنعوم باشا » :

نعوم باشا رجل حليم طبعاً ، بعيد عن الضرر ، وهو اول متصرف يجادلك بالبرهان المعقول . تدخل عليه متكدراً وتعود منشرحاً بدون ان تنال منه غرضك ، لا يكلّ من التعب ولا يلهيه شيء عن شغله ، سهران على مصلحته ، يعزّز المأمور ولا يقبل عليه شكوى الا بالحجة والدليل ، يوبّخه ويهدده سرًا ، ويعززه ظاهرًا ، ولا يمكن ان تذكر له عيوب مأمور الأ بدورةٍ وحيلة .

من ذلك اني كنت مستاء من احد المديرين في جبيل واردت ان اشكوه للباشا ، انتظرت الى ان دخلت عليه مرةً فجئت في حديثي معه على اني زرت هذه المدينة التي تدل آثارها على انها كانت قديماً مدينةً من اعظم المدن ، ولكنها ابتدأت فيما بعد تنزل نزولا فاحشاً الى ان أصبح فلان مديرها اليوم ...

فضحك ضحكة كبيرة وعرف ما كنت اشكوه من اعمال ذلك المدير ولكن بالحيلة التي اشرت اليها .

حفاوته بالامبراطور غليوم

واتفق في عهده سنة ١٨٩٨ ان زار الامبراطور غليوم الثاني عاهل المانية الشرق بطريق بيروت ترافقه الامبراطورة ، ومرّ بلبنان وهو ذاهب الى دمشق فدعاه نعوم باشا الى مأدبة في عاليه فقبل دعوته ، وفي اثناء ذلك انعم عليه بوسام النسر الاحمر من الطبقة الاولى وتقدمت السيدة ماري زوجة المتصرف لتحيته فانحنى امامها الامبراطور وقبل يدها واهدى اليها سواراً من ذهب عليه رسمه . ويبدو ان المرحوم الدكتور شاكر الخوري كان كثير الاعجاب بزوجة المتصرف فقال عنها في تلك المناسبة :

« انها عنصر الكمال والآداب واللطف والذكاء والعلم والمودة والشفقة ... هي اميرة وزوجة امير وابنة امير وستكون باذن الله والدة امير (سعيد بك) ونظم البيتين التاليين :

قبّل العاهل ايدي مريمٍ ظنّها ملكاً جديداً مكتسب
فغدا في رسمه يحرسها واقام الحدّ سوراً من ذهب »

لبنان الشمالي يطفئ انواره في وجه الامبراطور

ومن الحوادث الطريفة عند مقدم الامبراطور انه صرف ليلة وصوله في الدارعة في ثغر بيروت المطل على لبنان الشمالي ابتداء من طريق الشام ، فوجّه نعوم باشا اوامره الى القائمقامين بوجوب حمل الاهلين على اقامة التنويرات فوق تلك الجبال حفاوةً وتكريماً بضيف جلالة السلطان ، ولكن الاهلين ولا سيما في المتن وكسروان وما بعدهما الى الشمال وجلهم من الموارنة اصدقاء فرنسة التي كانت على عداء مع الالمان ، اتفقوا على ان لا يقيموا تلك الليلة اي تنوير بل على ان يطفئوا حتى الانوار العادية في بيوتهم .

وهكذا اعرب ابناء تلك المناطق عن انهم راسخون في مبادئهم لا يحولهم عنها مغريات ولا دوافع ايّاً كان نوعها .

روايات اخرى عن نعوم باشا

وهناك روايات اخرى عن نعوم باشا تزيد ترجمته ايضاحاً اوردتها عنه مجلة الحارس في مقالات رصينة متتابعة لكاتب مطلع قيل انه كان من كبار الموظفين في عهد المتصرفية نشرها تحت عنوان « لبنان بين الامس واليوم » في اعداد السنة ١٩٣٠ وهذا بعض ما جاء فيها :

طريقه في التقيد بمضمون البروتوكول

« لما كان الباب العالي بالاتفاق مع سفراء الدول قد وجه نظر نعوم باشا الى وجوب التقيد بمضمون البروتوكول من جهة الامتناع عن عزل القضاة بدون تحقيق من مجالس الادارة فقد نزل نعوم عند تنفيذ هذا الطلب بطريقة ناعمة لا تعرضه للوم ولا تحدّ من سلطته وهي انه ولا سيما في مدته الثانية لم يكن يعزل من القضاة احداً بل كان كلما قضت عليه الحال بعزل واحدٍ منهم يوجب عليه الاستعفاء والانسحاب بحيث يبدو كانه ترك منصبه من تلقاء نفسه . »

تظاهره بعزل التويني في موعد تجديد مدته الثانية

وبعد ان انهى سنيه الاولى ودنا موعد البحث في امر تجديد ولايته للدورة الثانية حمل عليه خصومه حملة شعواء بسبب تمسكه باسكندر بك التويني والعمل بارادته فخادعهم

بان تظاهر بعزله . وسار اسكندر بك الى المعاملتين فقبع فيها مخلداً الى السكينة حتى اذا جددت المتصرفية لنعوم باشا استدعاه اليه وعادا الى ما كانا عليه من التآلف ولكن بكثير من الحذر .

سكناه في لبنان طوال مدته الثانية

وعرف نعوم باشا لمناسبة تجديد مدته ان بعض المرجفين يطيلون لسانهم عليه بسبب اقامته في بيروت فرحل عنها حالاً الى لبنان واقام طوال مدته الثانية في الحدث شتاء وفي بتدين صيفاً . ولم يرَ في بيروت بعد ذلك الا نادرًا عندما كانت تستدعيه اليها بعض المهام الرسمية . اما عاليه وصوفر وما جاورهما من اندية اللهو والقصف فلم تطأها قدماه مطلقاً في كل مدته .

اجتيازه الطريق ماشياً بين الحدث وبعبدا

ومما يدل على وداعته وترفعه عن الفخفخة الفارغة انه على علو مقامه في المتصرفية لم يكن ليستنكف عندما ترك بيروت وسكن في الحدث عن ان يجتاز المسافة بين بيته فيها ومحل عمله في سراية بعبدا ذهاباً واياباً ماشياً على قدميه ، مصطحباً رفيقه الدائم في تلك الطريق المرحوم مارون البعقليني كاتب آلاي العساكر اللبنانية في ذلك الحين .

لطف نعوم ووداعته

ومما يدل على لطف نعوم ووداعته في معاملة الناس الحادث التالي الذي رواه عنه الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك في مجلتـــه « اوراق لبنانية » الصادرة في سنة ١٩٥٧ (ص ٢٤٩) قال :

« سكن نعوم باشا بلدتنا الحدث وكان مثال الرقة والدعة في معاملة الناس ومما سمعناه عنه من انسبائنا ان ابنه سعيد بك كان يلعب مع بعض غلمان من اسرتنا حتى توثقت عرى الصداقة بينهم فصار سعيد بك يأكل ويشرب وينام عند رفاقه اللبنانيين كانه واحد منهم .

« وفي ذات يوم كسر ابن المتصرف اناء لابن عمنا الياس تامر يزبك (المهاجر الآن) وفرَّ هارباً خوفاً من بطش رفيقه الياس ، فلحق هذا به الى منزله ، واقتحم الباب كأنه يدخل بيته ، واتفق ان نعوم باشا كان يهم بالخروج فصدمه ابن عمنا ولم يبالِ — وهو صغير السن — فامسك به المتصرف وسأله بكل حنان عما به فاخبره وأخرج نعوم

باشا ليرة ذهبية من جيبه وقدمها لابن عمنا ثمناً للاناء ولكن الفتى اليزبكي رفض الليرة واصرّ على ارجاع الاناء الى حالته السليمة فأمر نعوم باشا ياوره (مرافقه العسكري) بان ينزل فوراً الى بيروت ويشتري للفتى اناء جديداً بدلا من الاناء المكسور. »

وهذه الحادثة التافهة تدل بوضوح على ما كان خلق ذلك المتصرف. رحمات الله عليه!.

اهتمامه بازالة خلاف في كسروان

وعرف نعوم مرة ان خلافاً نشب في كسروان بين المسيحيين والشيعيين فبادر حالاً الى ازالته بحسن مساعيه والى اعادة الوئام والتصافي بين الجانبين منعاً لحصول اية مضاعفات عنه في بلد كلبنان تلعب فيه الطائفية دورها المعروف.

تشبثه بالمحافظة على امتيازات لبنان

ولم يكن نعوم باشا ليتسامح باقل امر يمسّ امتيازات لبنان وشخصيته الرسمية، من ذلك ان الباب العالي قرر مرةً ان تحال الى مجلس ادارة بيروت بطريق الاستئناف دعوى اقيمت على اسكندر الحداد قائمقام زحلة بعد ان فصلت في مجلس ادارة لبنان.

وما هو ان اتصل الخبر بنعوم باشا حتى قام له وقعد، وبادر للحال الى دعوة المجلس الاداري للانعقاد، وطلب اليه ان يرفع في تلك الجلسة احتجاجاً شديداً الى الصدارة والمابين، على عمل فيه خرق لنظام لبنان الممتاز، وان يعلن الاضراب عن العمل ريثما يردهُ جواب يضع الامر في نصابه، ففعل، وكانت النتيجة الفوز بما طلب، وورود جواب من الاستانة باسترجاع الاوراق من ولاية بيروت، مع تأكيد بحرص الحكومة العثمانية على صيانة بنود النظام اللبناني واحترام امتيازاته.

حادث طريف بين نعوم باشا وقنصلي فرنسة وروسية

ومن الحوادث الطريفة في عهد نعوم باشا ان الطاعون ظهر في بيروت في صيف السنة ١٩٠٠ فبادرت حكومة لبنان الى وضع حجر صحي بينه وبينها عملاً بالاصول وخوفاً من تسرّب الداء اليه. وكان اكثر اهالي بيروت وبعض قناصل الدول ووالي بيروت مصطافين في لبنان، وصودف يوم انشاء المحجر ان والي بيروت كان في مركز ولايته وعائلته في الجبل وقد حال الحجر بينه وبينها فاتفق مع بعض القناصل على ان يطلبوا

من نعوم باشا السماح لهم بالمرور بشكل استثنائي فرفض نعوم اجــابة طلبهم وابى الا معاملتهم مثل سائر الناس .

وفي اليوم التالي ابرق اليه القنصل الفرنسي المسيو دي سرسي يقول ان شؤوناً سياسية خطيرة توجب عليه الاجتماع بقنصل روسية السيد دي ليشن المقيم في الجبل وكان كلاهما في خلقٍ واحد من حيث حــدة المزاج فلم يكن بد لحكومة لبنان من ان تسهّل لهما الاجتماع ، وقد احال نعوم طلبهما الى مجلس الادارة ليرى فيه رأيه فاجتمع المجلس وقرّر الترخيص بالاجتماع المطلوب على شرط الا يتجاوز القنصلان الحدود المعينة لمخافر الحجر في منطقتي بيروت ولبنان وان يكون هذا الاجتماع تحت مراقبة ميرآلاي الجند اللبناني يومئذٍ المرحوم ملحم بك ابو شقرا بحيث يقف بعيداً عن القنصلين في نقطةٍ متوسطة بينهما تمكنه من مشاهدتهما والمحافظة على عدم تجاوزهما نقطة الحجر .

وحين وصل القنصلان الى تلك النقطة وشاهدا الاحتياط المتخذ احتدما غيظاً وعادا وهما يرعدان ويبرقان ، وكتب احدهما الى نعوم باشا رسالة خرج فيها عن حد المجاملة ، فارجع الباشا اليه تحريره مع كلمة جارحة اوقفه بها عند حده ، وهدّده بمفاوضة سفيره في الامر ان عاد الى مثل ذلك ، وعندئذٍ لم يرَ بدّاً من الاعتذار للباشا عما ابداه من حدة في مكتوبه .

اسأل الله ان لا يميتني في لبنان

ومما يدل على طيب ارومة نعوم باشا انه رأى قبر سلفه واصا باشا لا يزال بدون قبة الى جانب قبري زوجته وبنته اللذين تعلوهما قبتان جميلتان من الرخام الناصع البياض فاقترح ذات يوم على المجلس الاداري ان تقام له قبة على نحوهما فظن فريق من اعضائه ان خير زلفى يتقربون بهــا من المتصرف هي رفض الاقتراح فنهضوا يعارضون ووقف آخرون يؤيدون وهكذا علت الضوضاء وطال الاخذ والرد فاستاء الباشا وابتدرهم قائلاً : « اسأل الله ان لا يميتني في لبنان حتى لا يختلف اعضاء مجلسه على ضريح يقيمونه لي » وعندئذ انتبه الاعضاء الى كم كان في كلمته هذه من لوم وتبكيت فوافقوا على اقامة القبة ولكنها جاءت في حال سيئة خلافاً للقبتين اللتين اقيمتا على ضريحي زوجته وبنته وهو في ابان حياته .

عنايته بعدة مشاريع عمرانية

ومما عني به نعوم باشا في اثناء ولايته القيام بعدة مشاريع عمرانية منها :

السرايات— اتمامه في سراية بعبدا قسمها الشمالي وتجهيزها بالفرش اللائق، وتشييده سرايات بعقلين ، جزين ، جونيه ، البترون ، اميون ، بحنس ، مع استيفائه كل معداتها وفرشها، من موارد الخزينة دون تكليف الاهلين اية معاونة مالية .

الطرق — وبذل نعوم اهتماماً خاصاً بفتح طرق العربات اخصها : طريق بيروت صيدا جزين ، وطريق جونية — جبيل — البترون ، وطرق اخرى في اقضية الكورة ، والمتن ، وكسروان ، والشوف ، فبلغ طول ما شق منها في عهده ٤٨٠ كيلومترًا و ٨٨٠ مترًا .

ومما تجدر الاشارة اليه ان المرحوم سليم عمون قائمقام جزين اهتم في عهده بفتح معبورها المشهور ، الذي كان يتألف من صخر جبار عمقه عشرة اذرع ، وطوله مئة ذراع ، وسعته ستة اذرع ، كان يمنع وصول العربات اليها ، وما زال الجزينيون يذكرون له تلك اليد حتى اليوم ، كما ان المرحوم يوسف الزغزغي عضو المجلس الاداري عهدئذ عن قضاء المتن بذل اهتماماً مشكورًا بنشر طرق العربات في هذا القضاء حتى قيل أنه لم يترك فيه دسكرة الا اوصل اليها طريقاً .

الجسور — ومن مآثر نعوم باشا العمرانية مدّه بضعة عشر جسرًا على الانهار التي تعترض الطرق في مختلف انحاء لبنان ، اخصها جسر على نهر ابراهيم ، وآخر على نهر بيروت في مجراه العالي ، وتجديده جسر نهر الكلب الذي كان قد انشأه سلفه واصا باشا فهدمته بعد مدة قصيرة حملات مياه عارمة في شتاء غزير الامطار .

تحسينه مالية الحكومة

ومما انصرف اليه نعوم باشا تحسين مالية الحكومة ولمّ شعثها بعد ان كان الخلل الفاحش قد تطرق اليها في آخر عهد واصا وكوبليان ، ووفاؤه عنها ديناً للبنك العثماني قدره خمسة آلاف ليرة لقاء سند مذيل بتوقيع واصا الخاص ، وعند تركه لبنان في نهاية مدته كانت الواردات فيه تزيد على النفقات ، وذلك بما كان قد قرره من وضع بعض رسوم طفيفة على الاستنطاق والمحاكمة ، وتسجيل صكوك البيع والانتقال والرهن والكفالات وسائر التعهدات .

وقد تقبل اللبنانيون بكل ارتياح تلك الرسوم بالنظر لخفتها ، ولأنهم رأوها تتفق كلها على ما فيه مصلحة لبنان وتقوية صندوقه .

انتهاء مدته وعودته الى الاستانة الى حين وفاته

وفي ايلول من سنة ١٩٠٢ انتهت الدورة الثانية من عهد نعوم فاخذ يجامل القناصل والسفراء علّهم يوافقون على تجديد ولايته لدورة ثالثة في لبنان ، ولكن سفارة انكلترة اشتدت في معارضته ، وانضمت اليها سفارة فرنسة وغيرها من السفارات ، فصدر الامر بدعوته الى الاستانة وانتخب مظفر باشا خلفاً له .

وظل نعوم باشا في لبنان الى ان وصل المتصرف الجديد فغادره في ١١ ت١ والدموع تجول في مآقيه ، وعند وصوله أعيد مستشاراً لنظارة الخارجية كما كان ، بعد ان أنعم عليه السلطان بالوسام العثماني المرصع .

ومما عرفناه من اواخر اخباره ان زوجته السيدة ماري توفيت سنة ١٩٠٧ وعلى اثر ذلك عين ولدهما سعيد بك سكرتيراً في نظارة الخارجية ، وارسل نعوم باشا الى باريس سفيراً ولبث فيها الى ان توفي فجأة في سنة ١٩١١ ودفن فيها مأسوفاً على طيب صفاته.

نكتتان للشيخ رشيد الخازن مع نعوم باشا

ومما يتندر به اللبنانيون عن نعوم باشا انه كان يحب الشيخ رشيد الخازن المشهور بنكاته ويعجب بخفة روحه وسرعة خاطره ويسر بالاستماع الى ما يبتدهه منها على ما يناله منها احياناً من القوارص اللواذع .

من ذلك انه عند اضطراره الى مسايرة القناصل طلب اليه احدهم عزل الشيخ الخازني والحَّ فعزله مكرهاً وظلَّ على رضائه عنه وحبّه له ، واتفق ان جاء الباشا يوماً لزيارة البطريرك في بكركي وكان في جملة مستقبليه الشيخ رشيد فمازحه المتصرف قائلاً : « نصحت يا شيخ رشيد يظهر ان العزل بينصّح » .

فاجابه الشيخ رشيد : « على قبالك يا افندينا ان شاء الله تنصح ! »

وكان الشيخ رشيد في قلبه ناقماً على المتصرف لاطاعته القنصل في عزله حتى اذا شاع خبر البت في استبداله جاء لزيارته في رهط من اصحابه وسؤاله عما اذا كان لتلك الاشاعة من صحة وفي اثناء الحديث احب نعوم ممازحة الشيخ فالتفت اليه وهو يقول بلهجة يستشف منها التهكم : « انا آسفٌ جداً لفراقكم . ولكن ما العمل لم اقدر على تجديد حاكميتي والشيخ رشيد زعلان عليّ ... »

فاجابه الشيخ فوراً راداً له الرجل : « معاذ الله يا افندينا . المثل بيقول : نحس تعرفه ولا جيد تتعرف عليه » فضحك الحاضرون وكان نعوم المشهور برحابة صدره ولين طباعه في مقدمة الضاحكين .

مُظفّر باشا

١٩٠٢ — ١٩٠٧

مظفر باشا بولوني الاصل لاتيني المذهب ولد سنة ١٨٣٧ في ولاية فولهيني في بولونيا. والده هو الكونت ايزيدور تشايكوفسكي الكاتب المعروف ، الذي ، حين نشبت حرب القريم سنة ١٨٥٤ ، انتظم في خدمة الدولة العثمانية وانتقل الى الاستانة ومعه ولداه ادام ولاديسلاس واتخذ لنفسه اسم صادق ولولديه اسمَي انور ومظفر .

وانعم الباب العالي على صادق لكرم محتده وصدق خدمته بلقب باشا ، واهتمت الحكومة بتعليم ولديه واذ اعرب مظفر عن ميل الى تحصيل الفنون العسكرية أرسل الى مدرسة سان سير في فرنسة وعاد منها سنة ١٨٦٣ برتبة ضابط في الفرسان ، فعين حاجباً لفؤاد باشا الصدر الاعظم ، وعهد اليه في اثناء ذلك بعدّة مهام معقدة فحلّها بما عرف به من حنكة ، ثم سمي حاجباً للسلطان فمديرًا للاصطبلات السلطانية بعد ترقيته الى رتبة فريق ، فقائدًا للحرس السلطاني فعضوًا في مجلس التفتيش العسكري العالي الذي كان يعقد جلساته في الباب العالي تحت رئاسة السلطان نفسه .

اما والده واخوه فقد عادا الى بولونية وانتظما من جديد في سلك جيشها واتى الكونت ايزيدور ما اوجب طرده من فرقته وقطع مرتبه فداخله اليأس وانتحر ، اما ولده ادام فلبث في الجندية ورقي فيها الى رتبة توازي رتبة ميرالاي في الجيش العثماني .

وتزوج مظفر في الاستانة ورزق ولدين هما فؤاد ورشيد ، اللذان بعد ان اتمّا علومهما انتظما في سلك وزارة الخارجية فأرسلا مستشارين، فؤاد الى سفارة الدولة في باريس ، ورشيد الى سفارتها في بلجيكة .

تعيين مظفر متصرفاً للبنان

وفي ايلول من سنة ١٩٠٢ انتهت الدورة الثانية من متصرفية نعوم ، وفي ٢٧ منه اجتمع سفراء الدول الموقّعة نظام لبنان في جلسة عند توفيق باشا ناظر الخارجية ، وأجمعوا على انتخاب مظفر خلفاً له ، ووضع للحال مرسوم تعيينه وطلب فيه ان يحترم المتصرف

الجديد البنود الثلاثة التي اقرّها السفراء عند تعيينهم نعوم باشا واعتبارها كما لو كانت مدمجة في صلب نظام لبنان .

وعلى الاثر دعي مظفر الى المـــابين فتسلم فرمان تعيينه ووجهت اليه رتبتا الوزارة والمشيرية معاً ، وأوصي برعاية البنود الثلاثة السابقة الذكر ، وبعد قيامه بواجب الوداع لاصحاب المقامات سافر على باخرة روسية فوصل الى بيروت يوم الثلاثاء ١٤ تشرين الاول ، فاستقبل بحفاوة بالغة وباطلاق المدافع ، وكان في مقدمة من لاقاه رشيد بك والي بيروت وكبار اعيان المدينة ولبنان ونزل في فندق بسول حيث توافد عليه المرحبون زرافات .

وقبل ظهر الخميس ١٦ منه دعي لتناول الغداء في منزل سليم بك ثابت وفي الساعة الثالثة بعده وصل الى باحة سراي بعبدا اللابسة احسن حلة من الزينة الغاصة بالجماهير ، وبعد ان تلي الفرمان بالتركية والعربية ورفعت الادعية للسلطان قرأ مظفر باشا خطاباً مطبوعاً بالتركية والفرنسية وزعت منه بعض نسخ على كبار القوم مداره على الخطة التي يعتزم انتهاجها في اثناء متصرفيته ، وهي تبشّر بالخير والحفاظ على القانون والامن والعدالة وانهاض لبنان الى درجة رفيعة من الازدهار ، فردّ عليه مفتي بيروت وشيخ عقل الدروز والمطران يوسف الدبس شاكرين نياته الطيبة متمنين له النجاح في اعماله .

لائحة مظفر الاصلاحية

وابتدأ مظفر اعماله بالسير على خطة رؤساء الجمهوريات بان ارسل الى مجلس الادارة لائحة اصلاحية مطبوعة تتضمن ١٩ بنداً طالباً منه تدقيق النظر فيها وابداء الرأي وهي هذه :

١ ــ انشاء اصلاحات في مركز المتصرفية ومد خطوط تلفونية في جميع الدوائر .
٢ ــ اقامة حدود فاصلة بين المتصرفية والولايات .
٣ ــ انشاء اساكل بحرية على سواحل لبنان ، تسهيلاً لدخول البواخر التجارية اليه.
٤ ــ اتخاذ تدابير لمنع المقامرة .
٥ ــ تنظيم خريطة لكل قرية في كل ناحية وكل قضاء تحوي بياناً بالاملاك واسماء اصحابها .
٦ ــ اتخاذ تدابير لمنع التهريب .
٧ ــ النظر في اصلاح الشؤون المالية .

٨ — وضع حد للمهاجرة الى البلدان الاجنبية .
٩ — اصلاح معاملات الانتخاب .
١٠ — اعلان موازنة للحكومة في كل شهر .
١١ — تحسين احوال الجندية .
١٢ — اصلاح حالة المحاكم والمجالس على النمط الاوربي .
١٣ — تعميم اصول التقاعد وتأسيس صندوق له في المتصرفية .
١٤ — تعيين خطوط للطرق الجديدة اللازمة .
١٥ — اقرار مسؤولية وواجبات الدوائر والموظفين .
١٦ — البحث عن المعادن واستخراجها .
١٧ — توسيع نطاق الصنائع والحرف .
١٨ — الاعتناء بالغابات والاحراج والتحريج .
١٩ — بناء دار لسكن المتصرف .

تعليق المتصرف

وقد علق مظفر باشا على هذه البنود بقوله :

ان غايتي من وضعها انماء لبنان وتكثير ثروته وعمرانه ، ونشر لواء العدل في ربوعه، وتوطيد الالفة والراحة بين جميع طوائفه . وسأعتني على وجهٍ خاص بالسهر على حركات الموظفين ، وبمجازاة من لا يقومون منهم بواجباتهم بكل شدّة ، ولا سيا من يرتشون منهم ويختلسون ويجمعون اموالاً تزيد على مواردهم ، ومن ثبتت عليه اية مؤاخذة فسابادر الى عزله ، وتحويله الى المحاكم لتنزل فيه ما يستحق من قصاص ، وبكلٍ فلن اتخذ بحق احدٍ منهم اي تدبير ، ما لم تتوافر لدي البراهين التي تؤيد جرمه .

واتبع مظفر تعليقه هذا بعبارةٍ اشتهرت في حينها وبعُد صداها وهي : « اصبروا عليَّ ثلاثة اشهر فاغنيكم عن المهاجرةً » وقد دلّت اقواله تلك على نياته الحسنة ومقاصده النبيلة ، ولكنها لسوء الحظ منيت بالفشل ، لما رافقها من التواء في التنفيذ ، ومن مقاومة من مختلف المراجع ، ولا سيا من اسطنبول التي قيل انها نفرت مما جاء فيها بسبب اضمارها ما هو معروف للبنان ، واخذت من ذلك الحين تكيد للمتصرف وتتحيّن الفرص المناسبة للتخلص منه ، وندمت كثيرًا على ترشيحه لذلك المنصب .

جولته الاولى في لبنان

وجال مظفر غير مرة في لبنان ليقف على حالته بنفسه ، وكانت جولته الاولى بعد وصوله اليه بخمسة ايام فسار الى الشمال مستصحباً بعض الصحافيين والجنود، فزار مدرسة عين طورة وجونية وغسطا وريفون وافقا والحدث ، ومنها اتجه الى الديمان فاجتمع بالبطريرك الماروني وتحدث اليه في بعض الشؤون ، وكان عند مروره بجونية قد بلغته قضية تزوير سجل محكمتها وسرقته فعزل رئيس هذه المحكمة الشاعر الكبير المرحوم تامر الملاط بطريقة استبدادية ودون تقيد بما كان قد طلب منه من اعتماد تحقيق المجلس الاداري عند رغبته في عزل اي قاضٍ ، كما كان عند وصوله الى المعاملتين قد عزل اسكندر بك التويني وامره بان يبقى هناك قريباً من اللجنة التي شكّلها في جونية للتحقيق في قضية السجل ومعنى ذلك اعتباره كما لو كانت له يد بارتكابها .

ابتداؤه بالعزل والتنصيب

وبعد عوده الى بتدين وتعيينه حبيب باشا السعد رئيساً لمجلس الادارة ، بدأ يكثر من عزل موظفي الادارة والقضاء وتنصيب من يحلّهم محلهم دون ان تكون هناك مبررات ودواعٍ كافية لذلك التبديل ، متجاوزًا فيه الحدّ المعتاد في هذه البلاد الى درجة لم يسمع بمثلها في تاريخنا لا قبل ولا بعد ، حتى لقد قال العارفون : ان مجموع ما حصل في ايامه من تغيير وتبديل بين الموظفين يزيد على كل ما حصل من نوعه في ايام سائر المتصرفين من داود حتى اوهانس .

والمؤسف انه كان يعهد بالوظائف ولا سيما في سلكي القائمقامين والمديرين الى من ليسوا اهلاً لها ، وممن لم يحلموا قط بالحصول عليها ، وبسبب ذلك سقطت هيبة الحكم، وقلّت ثقة الناس به ، فكثر الاجرام وشاع الفساد وازدادت القلاقل ، وقد اكد احد المطلعين من رجال القضاء ان جرائم القتل في لبنان لم تزد على ثلاث طوال عهد رستم باشا ، بينا رُئيت تضفي على ثلاثمئة في عهد مظفر .

وصول زوجته وابنه فؤاد بك

وبعد مدة التحقت بمظفر زوجته ومعها ابنها فؤاد بك ، وكان لكليهما عليه سيطرة وسطوة وقد مثّلا معه دورًا هاماً في قضية العزل والتنصيب فكادا يكونان له ما كان كوبليان لواصا ... عين ولده فؤاد حال وصوله مفتشاً للجندية ، اما زوجته فقد قيل عنها انها كانت امرأة شريرة طمّاعة متسلطة على افكاره ، وفتحت للرشوة اوسع باب

اذ كانت تطلب المال من الطامحين الى الوظائف بكل قحة ومن اعتذر منهم بضيق ذات يده في الحال ، أوجبت عليه ان يكتب لها كمبيالة للآتي ، وكانت تكتب المرسوم لمن تريد تعيينه وتحمل زوجها بمختلف الذرائع على توقيعه ، وقد تردّد مرةً فانتظرته الى ان دخل المرحاض فأقفلت الباب عليه من الخارج ولم تفتحه لهُ الا بعد ان وعدها باجابة طلبها .. وقد كانت المرأة وابنها غير معتادين في حياتهما احترام نواميس الدين والآداب ولا شرائع المجتمع ، فكيف ينتظر منهما احترام نظام لبنان وتقاليد اهله وكرامة بيتهما وسمعة عميده ؟

نديا وايزا

وتبعتا مظفر باشا الى لبنان بنتا شقيقته نديا وايزا ، فكانتا تساعدان زوجة خالهما في الحفاوة بالمتوافدين لزيارتها ولا سيما في يوم الجمعة التي عينتهُ للاستقبال في كل اسبوع. وحدث مرةً ان طلبت الانستان من الدكتور شاكر الخوري ان يسمعهما شيئاً من شعره فانشدهما الابيات التالية :

رعى الله بيتاً للمظفر باسماً بدولتهِ اصل المكارم والمجدِ
فمن حوله الجناتُ ليست بعرفها باطيب من ذكرِ المظفرِ بالحمد
له موعدُ الزوار في يوم جمعةٍ وجدتُ به جمعَ القلوبِ على وُدِّ
ولما رنت نَدْيا وايزا من الحمى عجبتُ لغزلانٍ تعيشُ مع الاسدِ

وكانت لنديا عينان ساحرتان فقال فيهما الدكتور شاكر :

كأنَّ عيون نديا ذات يومٍ اصابت قلب مركوني بفتكِ
تحرك قلبه لحراك عينٍ فنبَّهَ فكرَهُ من دون شكِّ
لسير الجاذبية دون وصلٍ فانشا التلغرافَ بدونِ سلكِ

صفات مظفر باشا في اقوال معاصريه

ولايضاح حال مظفر باشا نذكر ما قاله فيه بعض معاصريه مما له ومما عليه :

قال ابراهيم الاسود في كتابه « تنوير الاذهان » (المجلد الاول صفحة ٦٥) :

« كان مظفر باشا رجلاً ساذجاً لا رأي له يصحّ السكوت عليه ، لأنه كان مصاباً بعلة اللين الدماغي التي ادت الى سوء حاله ، وعرّضته للسقوط من مركزه ، خاصةً وقد كانت زوجته تحب التدخل في شؤون الحكومة ، وكانت على ما يعرف اللبنانيون

سيئة التدبير لا تستقر على حال . » وعلق على هذا القول في حاشية : « وكان مظفر باشا يرتاح كثيرًا الى عزل من يكون قد نصَّبه بالامس، جرياً على ما كان عليه المقتدر احد الخلفاء العباسيين ، ولذلك كان الناس يقولون فيه ما قيل في المقتدر :

« وزيرٌ قد تناهى في الرقاعَـــهْ   يولّي ثم يعزل بعد ساعَـــهْ »

وقال الياس طنوس الحويك في ما نقله عن مخطوطاته الدكتور يوسف مزهر الى كتابه « تاريخ لبنان العام » (ص ٨١٦) :

« لم يكن مظفر باشا قبل ان اسندت اليه متصرفية لبنان قد تقلد منصباً اداريًّا ، فالسفراء والباب العالي لم يعطوا القوس باريها ، ومن المحتمل انه لو كان قد جاء الى لبنان في ايام شبيبته او كهولته لكان قد استطاع ان يحسن الادارة ، بالنظر الى ما كان مفطورًا عليه من مكارم الاخلاق ، والاندفاع وراء المشروعات الكبيرة ، لكنه جاء بعد تجاوزه الستين من العمر ، وبعد ان برَّحَ به الداء ، فضلاً عن تدخل اسرته وبعض المقربين اليه في شؤونه ، وهؤلاء لم يكونوا من ذوي الاحدوثة الطيبة ، وقد ادَّى ذلك الى ما جرى في ايامه من المنكرات والمحظورات » .

وقال عنه المطران يوسف نجم بعد ان جاء للسلام عليه باسم البطريرك الحويك اثر وصوله :

« الظاهر من ملامح دولته انه نشيط لتربيته العسكرية ، صاحب همة واقدام ، لطيف ، انيس ، قلبه مفتوح ... وبالنظر الى جهله حالة البلاد يخشى عليه من التسرّع ، الى اتيان اعمال لا توافق . فهو من هذا القبيل يفتقر الى مرشد امين خلوص حكيم ... والذي لحظته اجمالاً ان دولته سليم النية قلبه طيب لكنه غير خبير بأمور السياسة » .

ومما قاله الخوري ابراهيم حرفوش في كتابه « ترجمة الحويك » :

« ... على ان مظفرًا على ما يعلم الجميع كان قد خولط في عقله لمَّا كان بعد في الاستانة ، ثم عاد الى رشده فأسندت اليه متصرفية لبنان ، وقد ظهر من تصرفاته انه لم يكن بعد قد حصل على الشفاء تماماً .. وكانت زوجته المسيطرة عليه تتدخل في شؤونه ، وتبيع الوظائف بالمال دون خجل ، فاختلت الادارة ، وكثر الهرج والمرج ، وذهبت هيبة الحكومة » .

وقال الدكتور شاكر الخوري في كتابه « مجمع المسرات » (ص ٥٦١) تحت عنوان « محاكمة التاريخ لمظفر باشا » :

لا شك في ان مظفر باشا كان عادلاً ، عديم الضرر ، لكنه كان مصاباً بمرض في دماغه ، وهذا كان السبب في عدم ثباته على امر ، وكانت جميع التقلّبات في اوامره ناشئة عن هذا المرض ، فصار بسببه عدم اعتبار لمقرراته ، واخذ الاهلون يطمعون به ، ولذلك كثرت القلاقل في عهده بين الشعب ، واصبح كل فرد يتجاسر على مقاومته . وكان محاطاً بزوجته وولده فؤاد اللذين لم يراعيا صيته ، وكانا يغصبان دولته على كل عمل يريدانه ، ولضعف جسمه ما كان يمكنه مقاومتهما فيرضى او يقهر على ما يطلبان بكل وسيلة » .

اعماله

ولقد قام مظفر باشا في اثناء ولايته باعمال قارن بعضها النجاح على اهون سبيل ، ولقي بعضها من المضادات ما أرغمه على العدول عنه ، وادّى الى مس كرامته وسقوط شأنه ، وذلك لانه أقدم عليها بتسرّعه المعروف ، ودون ما تفكير بالعواقب . فما هو من النوع الاول :

المباني

انشأ مظفر مقرّا شتويّاً لقضاء المتن في الجديدة ، ومثله لقضاء الكورة في أنفه ، وفيما كان يسعى في انشاء مقر شتوي لقضاء الشوف في الشويفات تقدم نسيب بك جنبلاط فتبرع بالانفاق عليه من جيبه الخاص ، وكان مجموع ما دفعه في ذلك السبيل ١٢٠٠ ليرة انكليزية .

ومن منشآت مظفر : دار الحكومة في غزير ، ومستشفى السجناء في بعبدا .

ووجد أن مدخل دار الحكومة في بعبدا ضيق لا يتناسب مع مظهرها ، فعمل على توسيعه وتجميله ، ورفع فوقه الطغراء الهمايونية مصنوعة على احسن طراز ، واقترح على الشعراء نظم تاريخ له ، وعين في الوقت نفسه لجنة تحكيم لاختيار الاوفق من بين ما يرد منه ، فكان ان اللجنة اختارت ثلاثة تواريخ الاول لعبد الله البستاني ، والثاني لابراهيم الاسود ، والثالث للياس الباشا وهي هذه :

قال المعلم عبد الله البستاني :

أُيّدتِ يا دارَ القضاء ولم يزلْ عبدُ الحميـد مؤيداً بعـلاهُ
يرعاكِ من ريب الزمانِ بصارمٍ ينشقّ رأسُ الجورِ تحتَ ظباهُ

فلكِ ابتنى واصا ونعومٌ وقـد ... بهى الرتـاجَ مظفرٌ وزهـاهُ
ترسو المهابـةُ فوقـه وكأنها ... هتفتْ وبنـدُ مليكهـا بعلاهُ
أرختِ يـا دارٌ تواثقَ ملكها ... عبد الحميـدِ على اكيدِ رضاهُ

وقال ابراهيم الاسود :

يا دارُ دامَ العدلُ فيك مؤيدًا ... في ظلّ سلطانِ الانامِ الاكبرِ
عبدِ الحميد مليكنا من قد بدتْ ... ايامُ دولتـه بأحسنِ مَظهرِ
واصا ابتنى الثلثينِ منكِ مقدّماً ... واتمّ نعومٌ بنـا المتأخرِ
واعتز بالطغـراء بابُكِ عندما ... نظمَ المظفرُ عقدَهـا من جوهرِ
باسم الخليفـةِ قد أُتمّ بنـاؤه ... وازدانَ في تاريخهِ اسمُ مظفـرِ

وقال الياس الباشا :

دار الحكومةِ في بعبدا شُيّدت ... للحقّ والانصـافِ في لبنـانِ
في ظلّ من تحيا الانامُ بعدلهِ ... سلطانُنا عبدُ الحميـدِ الثاني
وقد ابتنى واصا جناحَي صدرها ... شرقـاً وغربـاً آية الاتقـانِ
ويمينُ نعّومٍ اقامتْ بعـدَهُ ... صدرَ الشمالِ تتمّـةَ البنيـانِ
واليوم شادَ مظفرٌ ارّخْ لهـا ... باباً تقولُ بـهِ ادخلوا بأمانِ

فكاهة

وكان الدكتور شاكر الخوري بين المتسابقين فلما بلغه قرار اللجنة ارسل اليها بابيات ثلاثة لاذعة قال فيها :

قد كان في فحص شعري ... كـرٌّ وجحشٌ وعـيرُ
لو ان شعـري شعـيرٌ ... لاستطيبتـه الحميرُ
لكـن شعـري شعورٌ ... هـل للحمـيرِ شعورُ ؟

وهذه ابيات الدكتور في الرتـاج :

ادخل لهيكل حكم العدل واحتشم ... واطلب لعبد الحميد السيد العلمِ
سلطاننا دام في عزٍّ وفي فرحٍ ... وفي انتصارٍ وفي رغدٍ وفي نعمِ
قد شاده عبده واصـا واكملـه ... نعوم لكنّ لهذا البابَ لم يقمِ
جاء المظفر بـاب العدل وسّعه ... حتى غدا مركزًا للذئب والغنمِ

ومن المباني التي اهتم بتشييدها مظفر باشا جامع عاليه جمع بعض نفقاته من المتبرعين والباقي سدّده من صندوق الحكومة اللبنانية .

مشاريع اخرى

واهتم مظفر باشا بشق طرق عربات جديدة في مختلف الانحاء بلغ طول ما تمّ منها في عهده ٢٢٢ كيلومترًا و ٦٧٠ مترًا وابتدأ بفتح نفق عقبة المسيلحة .

وبذل عناية خاصة بالجندية وانشأ فيها فرقةً من الشبان انتقى افرادها من ابناء البيوتات اللبنانية وسماهم « اسبيران » اي مرشحين لوظائفها العالية وخصهم بلباس جميل لمّاع وفتح لهم مدرسة تعلمهم الفنون العسكرية ولكنّهم قلما كانوا يدققون في حضورها .

وفي عهده انشئت معاملة التقاعد العسكري ، وكتابة العدل ، تسهيلاً للمعاملات القانونية البسيطة في الاماكن البعيدة عن مراكز الحكومة ، وتوفيرًا للنفقات والمشقات على السكان .

من اعماله التي رافقها الفشل

المفتشون

وخطر على بال مظفر ذات يوم ان يعين مفتشين لمختلف دوائر الحكومة ، من عدلية ، وملكية ، وصحيّة ، وزراعيّة ، وللبلديات ، والمعارف ، بلغ عددهم نحو ١٧ بمرتب ١٥٠٠ غرش لكل منهم ، فقامت عليه قيامة اللبنانيين من مختلف الطبقات ، بسبب ما تستلزم هذه التعيينات من نفقات باهظة ، وساندهم في ذلك المجلس الاداري بان اقر الامتناع عن تصديق صرف المعاشات من المتصرف حتى آخر مأمور ، وهكذا اضطروا المتصرف الى الرجوع عن تعييناته والنزول على ارادة الشعب .

المحاكم النقّالة

وزيّن بعضهم لمظفر تعيين محاكم نقّالة ففعل ، واصدر امره حالاً بالتشكيل والتعيين ناسياً انه لم يكن ذا صلاحية لاحداث وظائف جديدة في لبنان . تباين نظامه الاساسي ، واتصل الخبر بمعارضيه فعقدوا اجتماعاً في مساء ذلك اليوم ، اتخذوا فيه مقررات توقفه عند حده ، وما هو ان بلغه الخبر حتى اصدر امرًا عند شروق شمس الغد ، بالغاء تلك التعيينات معرّضاً نفسه للهزء والسخرية .

المرافئ اللبنانية

وعاد مظفر بعد ايام الى فتح باب الموانئ اللبنانية واصدر امرًا بان تعد في مرفأي جونيه والنبي يونس وسائل التفريغ باقامة المستودعات على الشواطئ ، وجاءت باخرة الى جونية فاستقبلها اللبنانيون استقبالاً حماسيًّا ، مظهرين تأييدهم التام لذلك المشروع ، الذي يعود عليهم باغزر الفوائد ، ولكن قناصل الدول الموقّعة نظام لبنان رأوا فيه ما يتعارض مع مصالح دولهم فكتبوا في الامر الى سفرائهم في الاستانة ، وهؤلاء استصدروا امرًا من الباب العالي لمظفر بوجوب الرجوع عن قضية الموانئ والا اقيل من منصبه فاضطر الى الرضوخ وهو يتعثر باذيال الفشل والخيبة .

تلزيم مقطوعية التبغ الاسطنبولي والتنباك

وظن مظفر ان في امكانه تلزيم مقطوعية التبغ الاسطنبولي والتنباك وجلبهما رأساً الى احدى الاساكل اللبنانية ، فأعلن الكيفية للشعب وعين موعدًا للتلزيم ، ولكنه فيما كان يهم بدخول المجلس لاتمام المعاملات ، أقبل على بعبدا مديرا التبغ والتنباك حاملين اوامر من الاستانة الى مظفر بوجوب الرجوع فورًا عن عزمه ، فلم يستطع الاّ الامتثال ، وعاد الى عقد المقاولة مع ادارتي الريجي والتنباك على نحو ما كانت الحال في عهد نعوم باشا.

عداوته لرجال الدين عن طريق الماسونية

وشعر مظفر ان رجال الدين غير راضين عن اعماله فتوهم انهم كانوا السبب في متاعبه وهبَّ يناصبهم العداء ، متخذًا الماسونية درعاً لنكايتهم والتنكيل بهم ، ولكن هؤلاء كانوا اشدّ منه دهاء واقوى شكيمةً فلم يقوَ رغم تضامنه مع الماسونية على الاقلال من نفوذهم مثقال ذرة .

وفي سنة ١٩٠٥ سافر البطريرك الماروني الى اوربة لزيارة رومية وباريس والاستانة، فسعى مظفر في تسويد صحيفته في الاستانة ، محاولا منعه من دخولها ، ولكنه لم يوفق في سعيه ، بل كان هنالك من جعل ذلك المسعى مدعاةً للمبالغة في تكريم البطريرك ونزوله مع حاشيته ضيوفاً على السلطان ، ونيله منه لنفسه الوسام العثماني المرصّع ، ولافراد حاشيته وساماً لكلٍ منهم ، وقيل ان السلطان امر الصدر الاعظم بان يعطي البطريرك عند سفره التقارير الواردة ضده من المتصرف فتسلمها وجاء بها وعددها لا يقل عن الاربعين ، ونشرها على الشعب فازداد بذلك نقمةً عليه ونفورًا من سعاياته ضد من لهم عنده كرامةٌ وحرمة .

مجمل ما كان يؤاخذ به مظفر

وقد اتى الخوري ابراهيم حرفوش في كتابه « ترجمة الحويك ص ٤٧٤ » على تعداد ما كان يؤاخذ به مظفر فأجمله في الشؤون التالية :

١ – زيادة ٣٠ قرشاً على كل درهم مساحة ، عدا رسوم الكفالات ، وكتابة العدل ، وتذاكر السفر او تسجيل صكوك البيع ، وضريبة الفيالج وموازينها ، وطوابع العرائض الخ ...

٢ – احداث وظائف في الجندية لا حاجة لها لادارة الجبل .

٣ – استبداده بمالية الجبل في عدّة امور اخصهـا : زيادة المرتبات لبعض المأمورين ، دون وجه مشروع ، وصرفه المال دون قرار مجلس الادارة ، ووضعه مال الجبل في المصارف خارج الجبل بطريق الاستبداد حتى يتسنى له صرفه على ما يهوى .

٤ – استخدامه عسكر الدراغون فوق العادة ودون لزوم في الجبل مما اثار الخواطر عليه .

٥ – اثارة الفتن بين الطوائف المختلفة .

٦ – تدخله المؤثر في العدلية والزامه القضاة في الحكم حسب ارادته .

٧ – تشويش سير الاعمال بكثرة العزل والتنصيب .

٨ – اضعاف هيبة الحكومة لكثرة الاوامر المختلفة الناقضة والمنقوضة .

٩ – استخدام اشخاص في وظائف لا اهلية لهم فيها ولا خبرة .

١٠ – سقوط اعتباره ونفوذه بتدخل زوجته وولده في ادارة الشؤون ، وظهور ضعف عزيمته .

١١ – طلبه من مجلس الادارة بناء بيت لسكناه لا تقل كلفته عن ١٥ الف ليرة عثمانية .

الى ان قال : ومما حط من مقامه حادثة دير القمر وحلّه بلديتها عند رفضها المفتش وضبطه صندوقها وحجزه دفاترها ، ولكن الديريين لم يجبنوا بل عقدوا اجتماعاً في قاعة سيّدة التلة واعادوا انتخاب الاعضاء انفسهم ، فطار صواب الباشا وحاول التنكيل باهل الدير ، وعزل كل متوظفي الحكومة منهم ، ولكن قُدّر له من افهمه ان لبنان باجمعه سيهب لمناصرة الديريين فخنع ولزم السكوت وترك الديريين وشأنهم .

كتاب ضد مظفر باشا

وفي مجلة «اوراق لبنانية» (السنة الثانية ص ١٩٣) مقال بتوقيع الاستاذ عارف النكدي عن كتاب ضد مظفر باشا طبع في بيروت سنة ١٩٠٧ ، وقد كتب عليه انه طبع في الاسكندرية تمويهاً للحقيقة وتجنباً للتبعات ، عدد صفحاته ١٤٠ ، من تأليف الامير شكيب ارسلان ، عاونه فيه فريق من كبار رجال الدين والاعيان الناقمين على الباشا ، وفي هذا الكتاب ، يقول كاتب المقال ، حادثات وواقعات موثقة بالارقام وباسماء الاعلام، ونوادر وغرائب تغري القارئ بتتبّع رواياتها وهو منطوٍ على اثني عشر باباً من عناوينها تعرف مندرجاتها وهي هذه :

الاول : خرق القوانين .
الثاني : الرشوة .
الثالث : الاحتيال والاستدانة .
الرابع : التزوير .
الخامس : مخالفته نظام الجبل .
السادس : استبداده في الانتخابات الادارية .
السابع : وفرة الجنايات في ايامه .
الثامن : تعطيل سلك الجندرمة .
التاسع : تناقض حركاته وسكناته .
العاشر : استسلامه لعائلته وتلاعبهم بالاحكام .
الحادي عشر : غرائب اطواره .
الثاني عشر : بث المبادئ الفوضوية .

وقد ترجم الكتاب الى الفرنسية وبوشر الاهتمام بطبعه بحلة جديدة ليوزع على المراجع المختصة في الاستانة لحملها على الا تجدد الولاية لمظفر ، ولكّن موت الباشا اراحه واراح خصومه وجعل الامير شكيب يقف عن مواصلة نقده وهو يقول : «انا نمسك القلم حرمةً للموت لا حرمةً للميت» .

مظفر كان مثقلاً بالدين

وقد علق صاحب الاوراق على المقال حواشي قال في بعضها :

يوم عين مظفر متصرفاً للبنان كان اسعد لحود في الاستانة فاستدان منه ١٥٠ ليرة

يستعين بها على سفره ، وبعد وصوله الى لبنان استدان منه مبلغاً آخر ليدفعه رسم الفرمان السلطاني ، ثم استدان منه مبلغاً ثالثاً ليسدّد به ديناً كان عليه لتاجر في ڤينة عاصمة النمسة ... واخذ اسعد بك يطالبه والباشا يماطله حتى اذا لم يرَ مناصاً من الدفع احاله على بعض المأمورين الذين عيّنهم بالرشوة فقبض اسعد بك مطلوبه بعد عناء جزيل ناقصاً ثمانية آلاف غرش خلا الفائض . وكان تقاضي اسعد لحود مطلوبه سبباً لنفرة الباشا منه حتى آخر ايامه .

متصرف واحد في ثلاثة اقانيم

وجاء في حاشية اخرى : كانت زوجة المتصرف ماريكا غريبة الاطوار والتصرفات فكانت العامل الاكبر في فساد الادارة في عهد زوجها .

ومن جملة الاقوال التي راجت في ذلك العهد وكتبتها بعض الصحف هذا السؤال : كم متصرفاً في لبنان ؟ الجواب : في لبنان متصرف واحد في ثلاثة اقانيم : مظفر ، وماريكا ، (زوجته) ورشيد (ابنه) .

متصرف لبنان اعظم امتيازاً من خديوي مصر

وفي غيرها : ان مظفراً كان يرى نفسه في حصانة تقيه العزل فقد قال مرة للاب سالياج رئيس مدرسة عين طوره : « انه السيد المطلق في لبنان ، وانه اعظم امتيازاً من خديوي مصر ، لان الخديوي يجري عزله بارادة السلطان ، اما هو فلا يمكن عزله الا بموافقة الدول ، ولا يمكن الدول عزله او تبديله الا بموافقة السلطان . »

ذلك القول وان كان يؤاخذ مظفر عليه ويعدّ من بعض وساوسه ولا سيما في مثل ايام عبد الحميد الا انه كان كل الحقيقة . وقديماً قالت الحكمة : « وقد تأتيك الحقيقة من مجنون . »

مكتوب غفل ينصح مظفراً باعتزال منصبه

وانتشر عندئذ بين الايدي في لبنان مكتوب غفل بالعربية والفرنسية مطبوع في مصر وموجّه الى مظفر ينصحه باعتزال منصبه والرضى بخدمة الدولة في احدى السفارات البلقانية ، لأن المتصرفية ليست من شأنه ، مشيراً عليه بان يجمع المجلس الاداري واعيان البلاد ويعلنهم طرحهم عن كاهله ، تاركاً لهم خاتم الحكم ليتصرفوا به كما يشاؤون ، مفرنقعاً

عنهم ، كما يفرنقعون هم عنه ، وبأن يركب اخيرًا على الطائر الميمون الى حيث ينام نوماً شهيًّا تاركاً « امة علي تندب علي » على ما تقول العامة في لبنان .

مظفر في صحف مصر واميركة

وتناولت الصحف في مصر والمهجر مظفرًا بالنقد اللاذع ، وصورته احداها بشكل جلاد يقف وبكلٍ من يديه رأس مقطوع ، فضلاً عن الرؤوس الكثيرة المتدحرجة حوله ، مشيرةً بذلك الى الموظفين الكثيرين الذين عزلهم ، وفي غير مرة صورته مزيّناً امامه رجل يحلق له لحيته ، والى جانبه آخر يبلّ لحيته استعدادًا لحلاقتها ، وكتبت تحت الصورة العبارة العامية المعروفة : « اذا شفت الموسى في ذقن غيرك بلّ ذقنك » ملمحةً بذلك الى ما كان يقوم به من العزل المتوالي طمعاً بما كان يبذله كل مستوظف جديد لزوجته وابنه من رشوة .

مظفر يعرف بفضيحة ابنه رشيد فيمرض ويموت

وكان مظفر على ما سببه له داؤه من الخبط على غير هدى في دخيلة نفسه حسن الخلق عزيز النفس واذ رأى انه يتدهور الى تلك الدركة أصيب بوعكة ولازم الفراش ، وحدث في تلك الاثناء ان ابنه رشيدًا الذي كان قد تزوج من فتاة اميركية غنية كانت تعيش معه في اوربة وتنفق عليه بسخاء اخذ يخونها مع الغواني وبذلك اضطرها الى الافتراق عنه ، وعندئذ لجأ الى مونتي كارلو للمقامرة ، ونزل في فندق احتال على صاحبه بمبلغ كبير من المالً ، فاعتقل في ايطالية وحوكم وزُجَّ في السجن ، ونشرت الصحف اخباره وصوره ، ولكن زوجة المتصرف التي كانت تتسلم البريد وزوجها مريض منعت تسرب تلك الاخبار اليه ، وفي ذات يوم اضطرت الى التغيب فتسلم المتصرف البريد مباشرةً ووقع نظره في احدى الصحف على صورة ابنه وقرأ حادثته مفصلة فوقع مغشيًّا عليه ولم يلبث ان مات ، وكان ذلك في ٢٨ حزيران سنة ١٩٠٧ .

مأتمه ونقل جثمانه الى الاستانة

وفي اليوم التالي صلي على جثمانه في كنيسة الآباء اليسوعيين واودع مدفنها الى ان نقل الى الاستانة في ٢٦ تموز يرافقه ابنه فؤاد . اما زوجته فقد ماتت في المستشفى في تشرين الثاني من تلك السنة ومات ابنه رشيد في سجن ايطالية وقد أشفقت الدولة على ابنه فؤاد فارسلته قنصلاً لها الى البرازيل ولم يعرف ما حل به بعد ذلك ولا بنديا وايزا ابنتي شقيقته ... وهكذا اضمحلت تلك العائلة التاعسة . وسبحان الباقي !

يوسف باشا

١٩٠٧ – ١٩١٢

هو نجل فرنكو باشا ثاني المتصرفين في لبنان ولد في الاستانة سنة ١٨٥٦ وحصل دروسه البدائية في مدارسها وجاء مع ابيه الى لبنان وهو في الثانية عشرة من عمره فاتم دراسة اللغتين الفرنسية والتركية على معلم خاص وواصل ذلك في الاستانة بعد عوده اليها ولم يكد يدخل في طور الشباب حتى عين كاتباً في قلم التحريرات بنظارة الخارجية وفي ١٨٩٩ عين مديراً للقلم المذكور وانتخب مرات عضواً في الوفود التي كانت توجهها الدولة الى بعض ما يعقد من مؤتمرات في اوربة ومديراً للوفد الذي وجهته لحضور مؤتمر لاهاي السلمي .

وفي ١٨٨٤ انعم عليه بالرتبة الثانية من الصنف الثاني ثم رُفّع الى رتبة بالا واهدي اليه الوسامان العثماني والمجيدي من الطبقة الاولى ونوطا الامتياز الذهبي والفضّي ونوط اللياقة وعدة اوسمة اجنبية اخرى .

وفي ٨ تموز من سنة ١٩٠٧ انتخب متصرفاً للبنان ومنحـــه السلطان رتبة الوزارة وسافر الى لبنان على باخرة روسية فلاقاه الى مرسين موفدان من قبل المتصرفية واستقبله في بيروت الاربعاء في ٢٩ تموز جمهور غفير من اكابر المدينة والجبل وأطلقت له المدافع تحيةً وحل في فندق كاسمان فانهال عليه المرحبون وعند المساء ذهب مع الامير قبلان ابي اللمع وكيله في مجلس الادارة لزيارة قبري ابيه واخيه فؤاد في الحازمية .

وفي صباح اليوم التالي الخميس تقدمته زوجته وابنتاه الى بتدين بطريق عين زحلتا اما هو فسار اليها بطريق عين عنوب جسر القاضي دير القمر فلاقته وفود القرى التي مرَّ فيها بالاهازيج والعراضات . وعند وصوله تلي الفرمان المؤذن بتعيينه في حفل كبير من المستقبلين وبعده القى خطاباً بالتركية المع فيه الى الخطة التي سيتبعها في سياسة لبنان مفصحاً عن عزمه على اجراء العدل واطراد حسن الادارة والحفاظ على الراحة متوقعاً ان يكون الجميع يداً واحدة في التقيد بالنظام ومجانبة كل ما يخل بمبادئ الحق او يعكر صفو الامن .

تحكم يوسف باشا وسياسته في اول عهده

وبعد ان تسلم يوسف باشا مهام الحكم اثر وصوله سار في سياسته سير المتحكم ونهج في حكومته منهجاً هادئاً وبدأ يعامل جميع الاحزاب على قدم المساواة فرضي عنه اللبنانيون واحترموه واخذ طلاب الوظائف منهم يحومون حوله لخطب وده وفي مقدمتهم اولئك الذين من اصحاب مظفر كانوا يقاومون تعيين نعوم باشا او اي متصرف ينتمي الى اسرة فرنكو .

ابتداء يوسف باشا بالعمل وبروز حزب يعارضه

وفي الخريف انتقل المركز المتصرفي الى بعبدا ، وابتدأ يوسف باشا بالعمل فزار بعض المناطق وبعد عوده امر بتفتيش المحاكم والدوائر وعزل بعض موظفيها ، وبادل بين آخرين ووضع – بعد الاتفاق مع المجلس – رسوماً جديدة على بوصلات الدعاوى الحقوقية والعرائض بحجة سدّ العجز الواقع في موازنة الحكومة وزيادة مرتبات الجند والموظفين تنشيطاً ، لهم ولكن ذلك لم يرق لكثيرين وفي مقدمتهم المعزولون ومن كانوا يتوقعون وظائف لم يحصلوا عليها فبرز له منهم حزب معارض يناهضه ويهيّج الرأي العام عليه ، بما كان يكتبه في الصحف ويوزعه في البلاد من نشرات ، وطاف فريق منه على دور القناصل يشكون من فرض تلك الرسوم ويقول : « انها تطعن البروتوكول في صميمه » .

ولكن يوسف باشا لم يأبه لتلك الحملة لتمكنه من مجابهتها باحالته كل ما كان يرد اليه من احتجاجات وشكاوى على المجلس فيبحثها الاعضاء ويأخذون قراراً بدفعها وبطلانها، وهكذا وجد يوسف باشا في المجلس مجنّاً يرد عنه سهام خصومه .

حادثة غزير

وفي اول شتاء تلك السنة ١٩٠٨ نمي الى المتصرف ان جمهوراً من اهل غزير وجوارها يتقدمهم يوسف بك البرنس اقاموا ضده مظاهرات صاخبة حضرها سليم بك عمون قائمقام كسروان مغضياً عما رافقها من مخالفات للقانون بل قام فيهم خطيباً شعبياً ، فقرروا المناداة به اميراً على لبنان واجلسوه على دكة بمثابة عرش ملكي وتلوا بين يديه الخطب والقصائد والازجال النارية ، فلم يكن من يوسف باشا الا ان اصدر امراً معجلاً بعزل سليم بك وساق على غزير فرقة من الجند اعتقلت كثيرين وجاءت بهم اليه فالقاهم زمناً في السجن ، وكان في نيته محاكمة سليم بك ولكن اخصاءه اقنعوه بالعدول عن عزمه لئلا يؤدي ذلك الى ازدياد عدد الناقمين عليه فيشتد بهم ساعد المعارضة .

كفه يدي عضوي المتن في المجلس الاداري

وكان يوسف باشا غير راضٍ عن عضوَي المتن في المجلس الاداري خليل عقل والياس الشويري لما كان يبلغه عنهما من اتصال بمعارضيه ، وجاءه ذات يوم من ربيع تلك السنة من حمل اليه كتابة تفيد انهما رشيا احد شيوخ الصلح بمبلغ ١٥ ليرة عثمانية لمساعدتهما في الانتخاب ، فصمم على كف يديهما ، وجس في ذلك نبض المجلس فألفاه يعارض في ذلك معارضةً شديدة ويطلب تحويل دعواهما اليه ليحقق فيها ، فان ثبتت مخالفتهما عاقبهما بما يراه ، والا بُرّئت ساحتهما محتجاً بان كف يديهما على الصورة التي يريدها المتصرف فضلاً عما فيها من مخالفة للنظام تجعل العضو المنتخب من الشعب نظير كاتب دائرة وتجرده من صفة النيابة ، ولكن المتصرف استند الى حسن علاقته بالقناصل واقدم على كف يديهما اعتباطاً وبذلك بدأ بينه وبين المجلس خلاف كاد يدوم حتى آخر مدته .

فرضه قانون تذاكر النفوس

وتمادى المتصرف في اتيان اعمال تخالف نظام لبنان دون ان يطلب من المجلس رأياً او يقيم له وزناً منها فرضه قانون تذاكر النفوس المعمول به في ولايات الدولة ، ولكن اللبنانيين رفضوه بشدة وتنادوا لمقاطعة الحكومة . وعندئذ تدخل البطريرك الماروني وطلب من يوسف باشا ان يجعل اخذ تلك التذاكر اختيارياً ففعل، وبذلك استعاد لبنان هدوءه .

وقانون المطبوعات

ولم يلبث ان نشر بلاغاً على الصحف يوجب فيه عليها التقيد بمندرجات قانون المطبوعات العثماني فرفض اصحابها الاذعان محتجين بان هذا القانون ينص على استثناء الولايات الممتازة في الدولة كلبنان من العمل به ، وبانه نشر بصورة اعتباطية دون موافقة المجلس ، ولكنه اصرَّ على اخضاعهم له مهدداً الصحف المخالفة بالاقفال ، وبعد حين جنح الباشا الى السكوت وواصل الصحفيون عملهم كالمعتاد وظلّ ذلك القانون حبراً على ورق .

اعلان الدستور العثماني واثره في لبنان

وفي ٢٣ تموز من السنة السابقة الذكر ثارت جمعية الاتحاد والترقي في الاستانة على السلطان عبد الحميد واجبرته على اعلان الدستور والحرية ، فهلّل الناس في جميع ارجاء

المملكة لافلاتهم من ربقة الاستبداد . وكان في مقدمة من هلّلوا وصفقوا في لبنان الحزب المعارض ليوسف باشا ، فشكل افراده وفي مقدمتهم حبيب باشا السعد ونسيب بك جنبلاط والامير مصطفى ارسلان وكنعان بك الضاهر وسليم بك عمون وغيرهم الجمعيات ، وعقدوا الاجتماعات وقرروا الاتصال بالاتحاديين في بيروت للاستعانة بهم على يوسف باشا . وحملهم على الزامه بنشر الدستور في لبنان اسوةً بجميع البلدان العثمانية ، فتوسم هؤلاء بتلك الحركة خيرًا ربما لما جال في فكرهم من ان تحسين علاقاتهم مع اصحاب المقاطعات الممتازة كلبنان قد يؤدي يوماً الى جعل المملكة قطعة واحدة غير مفككة الاوصال فاشاروا الى سعد الدين بك قائد فرقة العسكر النظامي (الدراكون) المقيمة في بتدين بوجوب مساعدتهم فيما اذا طلبوا من المتصرف اعلان الدستور وحلف اليمين على احترامه ، فان ابى امكنه اسقاطه على شرط الاحتراز من احداث اي خلل قد يؤدي الى تدخل الدول الحامية لنظام لبنان .

وفد بتدين

وفي يوم السبت ٣١ آب انهال وفد المعارضين على بتدين من كل جهة ترافقه جماهير غفيرة وقابل كباره المتصرف وطالبوه باعلان الدستور الا في ما يمس نظام لبنان وامتيازاته فتلقاهم بوجه مكفهر واجابهم : « ومن وكلكم في ذلك ؟ » ونهض مغضباً يريد الدخول الى غرفته فسدوا عليه الطريق وامسكه الامير شكيب بذيل سترته وجذبه الى الوراء فانتفض لتلك الاهانة وتملّص من يده ومضى .

عندئذٍ استعانوا عليه بقائد العسكر النظامي (الدراكون) سعد الدين بك فبادر الى اجابتهم وجاء معهم الى حيث المتصرف واضطره باسم الجمعية التي كان يحيطها الجميع بالتقديس الى الانصياع لارادتهم ولكنهم ابوا التحدث اليه قبل ان يعتذر عن تصرفه معهم فاعتذر بالتركية وزيادةً في اعناته ابوا الا ان يعتذر تكرارًا بالعربية ففعل .

وكان الليل قد ارخى سدوله فاجّلوا الاجتماع الى اليوم التالي اول ايلول ، وكان ذلك اليوم من الايام المشهورة في بتدين بمن حضره الى جانب الوفد من جماهير بلغ عددها بضعة آلاف واجاب المتصرف الوفد الى كل ما اراد فاقسم يمين الامانة للدستور في ما لا يمس امتيازات لبنان وعزل من انصاره كل من طلبوا عزله، وكان اسم المعزول يعلن على الجموع من على شرفة القصر فتقابله بضجيج السخط مرددة عبارة « فليسقط ! » وعاد الوفد ظهيرة النهار ومن معه من بتدين ينشدون اهازيج النصر على يوسف باشا .

انتخاب انفه

وتوفي في تلك الاثناء عضو الكورة الشيخ جرجس العازار من انصار المتصرف فرأى هذا من باب القول المشهور : « الولد سر ابيه » ترشيح ابنه الشيخ فؤاد ليحل محله ، ولكن المعارضين هبوا من كل جانب يبحثون عن مرشح من مؤيديهم ينافس العازار وينتزع منه المنصب ، فوجدوا ضالتهم في السيد جرجي تامر ، وبعد ان اجل الانتخاب مرات ، تقرر اجراؤه في ٢٩ كانون الاول من ١٩٠٨ في انفه ، واذ كانت المشادات في الكورة في منتهى القوة اوجب المعارضون على الباشا توجيه فرقة عسكرية احتياطاً للطوارئ في الظاهر وفي الحقيقة لترغم الاهالي على انتخاب جرجي تامر . وقد تم ما ارادوا ولكن بعد سقوط اثنين من قادة الفرقة قتيلَين على باب مكتب الاقتراع .

واذ عرف المتصرف بالنتيجة قام وقعد وساق جمهورًا من وجهائها مخفورين الى سجن بعبدا وبينهم الشيخ فؤاد العازار نفسه ، متهماً اياهم باطلاق الرصاص على القتيلين وبتدخل القناصل افرج عن اكثرهم بعد اربعة اشهر وعلى الاثر رفع هؤلاء الى الباب العالي والسفراء في الاستانه يشكون من تدخل المتصرف في الانتخاب ، ويقولون ان تلك الحادثة الاليمة ما كانت لتقع لولا سوء سياسته ويطلبون من الاستانة ايفاد لجنة مخصوصة للتحقيق في الدعوى وادانته بجرمه . وهكذا انقلب انصاره في الكورة الى صفوف خصومه .

تعيين سليم بك عمون رئيساً للمجلس وقضية اشتراك لبنان بالمبعوثان

وعين يوسف باشا في من عينهم من رجال الوفد سليم بك عمون رئيساً لمجلس الادارة في مكان صديقه الامير قبلان ابي اللمع لظنه انه كان اقل معارضيه خطرًا ، وفي ايام رئاسته اصدرت حكومة الاستانة الى متصرفية لبنان امرًا بوجوب انتخاب عضوين احدهما مسيحي والآخر درزي لمجلس المبعوثان الذي تقرر عقده بعد اعلان الدستور ، ولكن اكثرية اللبنانيين رفضوا الاشتراك بمجلس المبعوثان رغم تشويقات يوسف باشا الذي لم يسعه الا ممالأة الدولة على ما تريد وكان انهم فازوا بما ارادوه بمساعي عقلائهم وفي مقدمتهم سليم بك عمون رئيس مجلس الادارة وحبيب باشا السعد وغيرهم ممن كانوا يرون ان امتيازات لبنان ذخيرة مقدسة ابدية تحميه من مختلف الطوارئ ولا يمكنه التخلي عنها باي وجه من الوجوه .

الباشا يرفق سليم عمون بحقده حتى القبر

وظل يوسف باشا حاقداً على سليم بك عمون طوال مدة رئاسته التي امتدت حوالى سنتين وكان من بعض ما رسّخ في قلبه ذلك الحقد نزوع السليم الى المجد والعلى والاستئثار بالسلطة ، وعمله على حماية المجلس من سلطة المتصرف ، وتقربه من الشعب الذي كان يتغنى بحزمه وعزمه ، ويستميت في سبيله يدل على ذلك البرقية التي وصلت اليه ذات يوم من خمسمئة شاب بسكنتاوي يقولون فيها :

« يا عمون الشعب — ها نحن كلنا جنود للحرية التي تنشدها . احقاؤنا ممنطقة . وسلاحنا في ايدينا . وارواحنا على اكفنا نفديك والوطن والاحرار بدمائنا . مر فنطير اليك » .

لذلك حين مات هذا الرجل فجأة على كرسي الرئاسة في المجلس وهو يقرع الجرس لافتتاح الجلسة ونقل جثة باردة الى غرفة الرئاسة وعرف الباشا بموته خرج للحال من مكتبه وركب عربته الى بيروت دون ان يعرج على الغرفة التي كانت الجثة مسجاة فيها ، ومما زاد في الدلالة على حقده وقلة لباقته امتناعه عن ارسال من يمثله في المأتم بدير القمر ومبادرته في اليوم نفسه الى تعيين الامير قبلان ابي اللمع خلفاً له .

خلاف جرجس بك زوين مع المتصرف بسبب داود مجاعص

وفي عهد رئاسة الامير قبلان وقع بين جرجس بك زوين العضو الاداري عن كسروان ويوسف باشا بسبب الصحفي داود مجاعص ذلك الخلاف الخطير الذي ظل زمناً حديث اللبنانيين وشغلهم الشاغل .

وفي السنة ١٩١٠ من مجموعة البشير تفاصيل عن ذلك الحادث لمكاتبها في بتدين المرحوم ابراهيم بك ابو سمرا غانم هذا بعض ما ورد عنه فيها :

كان داود مجاعص صحافياً يصدر جريدة باسم الحرية اكثر فيها من نقد اخطاء يوسف باشا ، وحدث عهدئذٍ انه قدم طلباً الى المجلس الاداري بمدّ ترامواي على الخيل على شاطئ البحر ، ولاجل الفوز بطلبه استعان بجرجس بك زوين العضو الاداري عن كسروان ، وجعل يتردد تارةً معه وطوراً وحده على المركز المتصرفي لملاحقة مشروعه لدى المجلس الاداري .

وبلغ خبره الى يوسف باشا فشاء الانتقام منه بان أصدر امراً الى الخفراء بمنعه من ارتياد السراية . وحدث ان جاءها في ١٣ من شهر شباط من السنة السابقة الذكر مع

جرجس بك فمنعه الخفير الواقف على الباب الخارجي من دخولها . سأله جرجس بك: « علامَ يُمنَع ومن المانع ؟ » اجاب : « المتصرف نفسه ولست اعرف السبب . » فثار لهذا العمل وما فيه من استبداد بمنع لبناني بريء من دخول دار حكومته ، وسار في وجهة مكتب المتصرف وهو يصيح محتجاً ، راوياً الحادث لمن يلتقي به من زملائه ، وقد عنَّ له ان يقابل المتصرف ويتحدث اليه في الامر ويطلب منه الرجوع عن تدبير يباين الحرية ولا حق له فيه .

وعرف المتصرف بمقدمه فامر الحجاب بمنعه من الدخول عليه ، واوصد بابه وقبع في غرفته . ووصل جرجس بك فتصدَّى له هؤلاء وفي مقدمتهم الياور حنا بك الضاهر ومنعوه من طرق الباب بحجة ان المتصرف مشغول بامور هامة ولا يمكنه استقبال اي انسان ، فأفلت منهم غاضباً وهو يقول : « لا يمكن ان يغلق باب المتصرف في وجه نائب الامة » ودفع الباب بيده واذا هو مقفل فلبطه برجله فانفتحت احدى درفتَيه ، وهمَّ بالدخول فتراكض الحجاب واخذوا بتلابيبه ودفعوه الى الوراء واشتبكوا معه بعراك ، عندئذٍ انسحب من بينهم وشهر عليهم مسدسه ليردهم عنه لكنهم تكاثروا عليه وانضمَّ اليهم بعض زملائه من الاعضاء واقنعوه بالذهاب الى قاعة المجلس .

وفيما كان هناك أصدر المتصرف امرًا باعتقاله واخذ مسدسه منه والتحقيق معه ، وحولت دعواه الى محكمة الجزاء فاتهمته بالجناية وكف المتصرف يده . وبتدخله حاكمه القضاة موقوفاً وحكموا عليه بدايةً واستئنافاً بالسجن سنة وثلاثة اشهر ، ولكن الباشا شعر بكثرة الناقمين عليه بسبب ذلك فأصدر امرًا باطلاق سراحه مكتفياً باعتقاله ستة اشهر وبضعة ايام ، وبتجريده من العضوية وانتخاب المحامي نعوم باخوس بدلاً منه .

ومما يؤسف له ان المجلس الاداري لذلك العهد تراخى كثيرًا مع يوسف باشا وسكت مرارًا بكل خنوع عن اعماله المخالفة للنظام وترك النقاد يسجلون له كثيرًا من النقط السود في تاريخه .

تلقيب زوين بالاسد اللبناني

وهناك من روى هذا الخبر على وجه آخر رأينا ايراده زيادةً في ايضاحه قال :

كان لبنان في شتاء ١٩١٠ يتمخض بوثبة اصلاحية ودعاة الحرية فيه يشنون حملة جريئة على يوسف باشا فرنكو وعلى حكومته الرجعية ، وكان في مقدمتهم داود مجاعص محرر مجلة النور وجريدة الحرية . فغضب الباشا عليه وامر بمنعه من دخول السراية .

وجاء داود يوماً الى دار الحكومة في بعبدا فوقف الضابط جرجس غسطين في وجهه يبلغه امر دولة المتصرف فعاد الى بيروت غاضباً وقابل جورج زوين العضو الاداري والذي كان يتزعم المعارضة في المجلس وقص عليه ما جرى قائلاً : « هل ترضى ان يجري ذلك في ايامك يا جورج بك ؟ »

فكبر السؤال في نفس النائب واجاب : « لا والله ذلك لن يجري ما دمت حيًّا... لاقني غداً الى بعبدا وليجرأ احد على منعك من دخول السراية » .

وكان ليوسف باشا جواسيسه فعرفوا بما قاله جورج زوين واسرعوا ينقلونه اليه فنام ليله على مضض .

وفي اليوم الثاني جاء نائب كسروان الى سراية بعبدا وقصّ الخبر على زملائه منتقداً الحاكم بصورة قاسية وفي خلال انتقاده بدرت منه عبارة كان لها يومئذ وقع صاعق قال جورج زوين للنواب في تعبير صريح : «دار الحكومة للشعب اللبناني وليست ملكاً لفرنكو كوسى ولئن سكتم انتم فانا لن اسكت بل ساراه واعرف كيف اوقفه عند حده » .

وسكت النواب ... وقد تهامست الشفاه بأن الامير قبلان ابي اللمع رئيس المجلس يومئذ انسل الى غرفة الحاكم ونقل اليه كلام زوين بحروفه فدعا الباشا ياوره حنا الضاهر (من بشري) واسرّ في اذنه امراً .

وقبيل الظهر وصل داود مجاعص الى بعبدا فمنعه الضابط جرجس غسطين للمرة الثانية من دخول السراية وارسل داود من ابلغ جورج زوين الواقع ، فحنق نائب كسروان ومشى توًّا الى مكتب المتصرف ليحادثه في الامر ، الا ان المرافق العسكري حنا الضاهر اعترضه امام الباب قائلاً له : « يسق ! » وهي كلمة تركية معناها « ممنوع » فقال زوين: « ليس على النائب الذي يمثّل الشعب يسق ، ولا سيما عند قيامه بواجبه » .

فقال المرافق : « يسق على الجميع الكبير والصغير بأمر افندينا ... »

ولم يأبه زوين لقوله وهم بفتح الباب ، فأمسك به الضابط يريد ابعاده عنه ، ونشبت بينهما مشادة يدوية ، وحينئذ اسرع النواب والموظفون والضباط وحالوا بين الاثنين وارتفع الصراخ والاحتجاج وسمع الحاكم الجلبة فخاف وجاء من ينبئه بان جورج زوين كان آتياً وفي يده مسدس ليقتله فازداد ذعراً وأخذ يفتش عن مخبأ في القاعة يكون فيه في مأمن ...

ومن ثم عقد اجتماع سري قضائي عسكري في مكتب الباشا ، صدر على اثره امر « باعتقال النائب بتهمة شهر مسدس على ضابط ومحاولة قتله في اثناء اجراء وظيفته، وجاء الضابطان حليم شقير وجرجس غسطين ومعهما ستة جنود وانتظروا خروج زوين من المجلس فاعتقلوه وكانت الواقعة التي هزّت لبنان وجعلت من جورج زوين بطلاً وطنياً لقب على اثرها « بالاسد اللبناني ! »

كلمة « حمري » تشغل لبنان والآستانة وتودي بالامير قبلان

وحدث في صيف ١٩١١ ان اجتمع اعضاء المجلس الاداري وفي مقدمتهم رئيسهم الامير قبلان ابي اللمع عند يوسف باشا يهنئونه بذكرى جلوس السلطان محمد رشاد على العرش خلفاً لاخيه عبد الحميد .

وصودف يومئذ ان نشرت الصحف خبراً من الاستانة ينبئ بان السلطان معتكف في مقصورته الخاصة لداء المّ به ، ووقف من الاعضاء محمد صبرا يهنئ المتصرف باسم زملائه مبدياً الاسف لاعتكاف مولى البلاد في يوم عيده ، وبعد ان قعد سأل احدهم : « وما هو المرض ؟ » اجاب آخر : « هو الحصبة الذي تدعوه عامتنا بالحميري » . وعنّ للامير قبلان ان يرسل نكتةً ظنها ترطب الجو فقال : « وعسى ان لا يكون من نوع الحمري » فجاءت نكتته البليدة في غير محلها ، وقابلها الاعضاء بوجوم لما فيها من استهتار بالسلطان . اما المتصرف فلم يعرف ما جرى وانتقل الحديث الى موضوع آخر الى ان فضت الجلسة .

وفي اليوم الثاني كانت كلمة « الحمري » على كل لسان في لبنان واغتنمها اعداء الامير فرصةً للايقاع به وحملوها الى جريدة النصير التي كانت اوسع الصحف اللبنانية انتشاراً في ذلك الحين وكان صاحبها عبود بك ابو راشد على خلاف مع الامير فنشرها في صدر جريدته بحروف كبيرة .

وبلغت الجريدة الاستانة فكان لما نشرته في دوائرها اسوأ وقع ، وارسلت الصدارة العظمى الى يوسف باشا امراً مشدداً تطالب اليه محاكمة الامير قبلان ، وهو من اخص انصاره ، فحوله الى محكمة المتن التي لم تلبث ان برأت ساحته . ونقل بعض خصومه الدعوى الى احدى محاكم بيروت فحكمت عليه بالسجن ثلاثة اشهر . ولم يرَ الامير بدّاً من استئناف الدعوى الى الاستانة والسفر اليها وهناك رأى حبل المشنقة اقرب اليه من حبل الوريد ، ولكنه استعان بالبطريرك الماروني وكبار رجال الدين المسيحي وبما دفعه

هنا وهناك من اموال كادت تستنزف كل ثروته ، واخيرًا حصل على البراءة وعاد الى لبنان ضعيفاً منحط القوى لوفرة ما ناله من هموم ولانه كان مصاباً بمرض السكري فقوي عليه ولم يلبث ان اورده حتفه بعد عوده ببضعة اشهر .

وهكذا مات ذلك الرجل قتيل لسانه والناس يرددون حوله قول من قال :

احفظ لسانك ايها الانسانُ　　لا يلدغنك انه ثعبــانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه　　كانت تهاب لقاءه الشجعانُ

زوجة يوسف باشا

ولا تكمل ترجمة يوسف باشا الا اذا اضفنا اليها كلمة عن زوجته الحسناء السيدة لوسي الفرنسية الاصل ابنة السيد كابورال احد اصحاب المصارف في الاستانة .

يروى انه قد كان لتلك السيدة الوافرة الجمال النضرة الشباب المزدانة بالعلم والادب والثقافة تأثير كبير في علاقاته بالمراجع الرسمية في الاستانة وبيروت ، وفي حمايته من تهجمات معارضيه ، حتى لقد كان كثيرون يعزون الى تدخلاتها مع تلك المراجع كل ما حصل عليه من رتب ومناصب ، ومن مساندة في ما كان يلاقيه في اعماله من مشاكل ومصاعب .

ويؤكد احد المطلعين انها حين جاءت الى لبنان لم تلبث ان اصبحت مرجعاً لمن فيه من عشاق الوظائف . كانوا يطلبونها مع بعض الوسطاء من المقربين فيحصلون عليها لقاء ما يقدمون من مال وهدايا . وهكذا كادت تكون لزوجها ما كان كوبليان لواصا ولكن بطرق اضيق نطاقاً واكثر غموضاً وخفاء .

اما عشاق الجمال فقد حام حولها كثيرون من اوفرهم اناقةً وغنى ونبلاً دون ان يظفر منها اي واحد بنظرة رضى . وظلّ ذلك شأنها الى ان التقت في احدى السهرات بالشاب جان بسترس ، وكان جان اجمل شبان بيروت على الاطلاق واوفرهم ثروة واسخاهم يداً ، ومن ثمَّ بدأ الناس يرونها تجالسه وتتحدث اليه وتخرج برفقته الى الاندية والمتنزّهات ، على ما كان عنده من عربات فخمة تجرُّها جياد عربية مطهمة ولكل عربة منها جياد من لون واحد ، سوداء ، او زرقاء ، او شقراء ، او حمراء ، كما كان يفعل ابناء السلطان في الاستانة .

وبسبب ذلك ثار عليها من القيل والقال في لبنان ما يشبه خلايا النحل ووجد فيه المعارضون لزوجها مندوحةً الى المطالبة باستبداله وقد قربت مدته من الانتهاء .

يوسف باشا يتابع سياسة الانتقام

ومضى يوسف باشا في اواخر ايـــامه يواصل سياسته الانتقامية من معارضيه وممن ينتمون اليهم ، تدخل اولاً في انتخاب البترون ضد سعد الله الحويك شقيق البطريرك ورشح له خصماً الشيخ عقل ابو صعب ، ولكن فشل ابو صعب ونجح سعد الله ، ثم تدخل في انتخاب زحلة ضد يوسف البريدي بترشيح خصم له هو جميل المعلوف ففشل كذلك المعلوف ونجح البريدي .

وشاء الانتقام من الامير شكيب قائمقام الشوف لانه كان من اعضاء الوفد فحمل احد صغار المحامين على الشكوى عليه ثم دفع فارس علامة على ان يقيم عليه دعوى « الصفعة » المشهورة وكانت نتيجة ذلك ان كف يد الامير ولكن الامير لم يكن يكبر بالوظيفة بل كانت الوظيفة تكبر به .

وشاء ان يخضع الدائرة الاتهامية في محكمة الحقوق لارادته في احدى الدعاوى فرفضت الا العمل بما يتلاءم مع وحي ضميرها ، فكان ان اصدر امرًا بعزل اعضائها الاربعة الذين كانوا مثال النزاهة والعفة ، وبذلك زاد في عدد الناقمين عليه ، وكانت نتيجة ذلك رمي قنبلة على بيته في عاليه ، وما قيل من ان بعضهم جمعوا ٧٠٠ ليرة ذهبية ليغروا بها القبضاي الفتاك المعروف شاهين مرعي على قتله .

جمعية الارزة

ولكن العقلاء ابوا الا مناوأته بالطرق القانونية فهبّوا الى تأليف جمعية سياسية جديدة باسم « ارزة لبنان » توقفه عند حده ، وفي الوقت نفسه تمانع في تجديد ولايته ، وتسعى في تنقيح بعض مواد في نظام لبنان ، واجراء بعض اصلاحات معيّنة في دوائره الادارية والعدلية والمالية وقد انخرط في سلكها كثيرون من نخبة اللبنانيين وشكلوا لها فروعاً في مختلف انحاء لبنان .

وترأس تلك الجمعية حبيب باشا السعد وسليم بك المعوشي ووضعا لها عدة مطالب وافق اللبنانيون عليها بتفويضات رسمية صدّقها شيوخ القرى ومختاروها وهي هذه :

١ ــ وضع حد لسلطة المتصرف ضمن دائرة القانون .

٢ ــ اقرار الطريقة الشعبية في انتخاب اعضاء المجلس الاداري .

٣ ــ حماية هذا المجلس من اي ضغط وتوسيع سلطته واجبار المتصرف على تنفيذ مقرراته .

٤ — الغاء الضرائب التي استأثر المتصرفون بوضعها دون موافقة المجلس .
٥ — تأمين الحرية للقضاة وحماية وظائفهم من تحكم المتصرّف .
٦ — انشاء محكمة تجارية في لبنان تصدر احكامها بدايةً واستئنافاً .
٧ — منع المتصرف من السكن خارج لبنان صيفاً وشتاءً .
٨ — اصلاح الجندية ومنع الجنود من الاستخدام في منازل المأمورين جميعاً .
٩ — تفويض الجمعية في اجراء كل ما تراه موافقاً للاصلاح في لبنان .

وزاد في نفوذ هذه الجمعية وقوع نفرة بين يوسف باشا وناظم باشا والي بيروت فاندفع هذا الاخير الى تأييدها في الاستانة بتقاريره ، وبذلك حبطت كل المساعي التي بذلها يوسف باشا لحلها والتنكيل باعضائها .

ومضت مدة والجمعية والمتصرف في عراك وكل منهما يلجأ الى المراجع العليا في تسويد صحيفة خصمه ، ومما كانت الجمعية تصرح به في كتاباتها ومراجعاتها والسنة من اوفدتهم الى الاستانة ان لبنان لن يلاقي راحة ما لم يُنَط امره بغير هذا المتصرف الذي يسير في حكمه على روح عبد الحميد الاستبدادية .

واخيرًا جاء سابع تموز وانتهت مدة يوسف باشا ولم يتم الاتفاق بين الباب العالي والسفراء على انتخاب من يخلفه فقرروا عزله واستدعاءه الى الاستانة . اما وكالة المتصرف فقد اسندت اولاً الى سعد الله بك الحويك رئيس المجلس بالنيابة عن الامير قبلان المتغيب في الاستانة بدعوى « الحمري » وبعد حيال شهر عاد الامير مبررًا فاخذها منه ولكنه لم يلبث ان مات بعد زمن قصير فعادت الى سعد الله . وقد قام بها سعد الله بك قياماً مشكورًا دلَّ على ان اللبناني يعرف ان يدير الاحكام احسن الف مرة من باشوات اسطنبول .

الاعمال التي تمت في عهده

ومن الاعمال العمرانية التي تمت في عهد يوسف باشا :
١ — مد طرق عربات طولها ١١٨ كيلومترًا و ١٨٠ مترًا .
٢ — اقامة عدة جسور على روافد الانهار والسواقي الداخلية تؤمن للمارة والمركبات الاجتياز براحة .
٣ — جرّ مياه نبع الزويتيني الى زحلة وتوزيعها على البيوت .
٤ — جرّ مياه حمانا الى عاليه وسوق الغرب .

٥ – اتمام طريق المسيلحة التي كان قد بدأ بفتحها مظفر باشا ، وقد نجم عن اتمام هذه الطريق فائدة كبرى للمواصلات . والفضل فيها عائد الى المجلس الذي خصت به العناية القيام بمثل هذه المشاريع .

اوصافه

ولتعريف اوصاف يوسف باشا بكل تجرد رأينا ان ننقل بعض ما رواه فريق ممن اتصلوا به في عهد متصرفيته من مناصريه واخصامه :

فما قاله ابراهيم الاسود وقد كان من اخص من والوه وظفروا بنعماه :

«كان يوسف باشا فرنكو رجلاً عاقلاً رصيناً يتلقى النوائب بالحكمة والصبر ، وحين اعلن الدستور في تموز ١٩٠٨ اتخذَهُ اعداؤه وسيلةً للايقاع به ... فأجابهم الى ما طلبوا منه كي لا يتسع الخرق ... وبعد ذلك ظل ينتهز الفرص الى ان ثأر لنفسه من كل واحدٍ منهم » .

وقال عنه الياس الحويك :

« لم يترك يوسف باشا اثرًا محمودًا في لبنان ، وقد امتاز بمالأته الدولة على خرق نظام لبنان ، وفعل امورًا كثيرة لم يكن النظام يجيزها ودون ان يأخذ موافقة المجلس ».

وقال في مكان آخر : « كان يوسف باشا مستسلماً لمحيطه واذنابه وواقعاً تحت انتداب زوجته الحسناء ... واهم ما ادّى الى استصغاره في عيون اللبنانيين انتقاله للسكن في بيت جان بسترس مع معرفته بما لاكه الناس عما بينه وبين زوجته من علاقات تطعن كرامته في الصميم » .

وقال عنه الخوري ابراهيم حرفوش في كتابه « ترجمة الحويك » (ص ٥٠٥) :

« ولم يحقق يوسف باشا الآمال بما كان ينتظر منه من الحزم واصلاح الشؤون بل ظهر ضعيفاً قاصرًا في الادارة ، وقد وقعت في ايامه حوادث هامة مشهورة زادت في ذهاب هيبته ... »

ظواهره بيض واخلاقه سود

وكان الشهيد سعيد فاضل عقل مؤسس جريدة البيرق في مقدمة من تطوعوا من اللبنانيين لمناهضة يوسف باشا والسعي في احباط المساعي لتجديد مدته ولتلك المناسبة نشر في صدر جريدته صورة يوسف باشا وكتب تحتها الابيات التالية :

ألبنان هذا رسم حاكمك الذي تضعضعَ في ايامه قومُك الصيدُ
فكانت لهم في كل يومٍ مصيبةٌ وكان له في كل كارثة عيدُ
سعى لاطراد الحكم بعد انقضائه فلا صحَّ تمديدٌ ولا صحَّ تجديدُ
فخذ رسمَه كي لا تُغرَّ بحاكمٍ ظواهره بيضٌ واخـــلاقه سودُ

سفره

وغادر يوسف باشا المركز المتصرفي في ١٢ تموز ولم يكن في وداعه غير حفنة من اخصائهِ لا يتجاوز عددهم انامل الكف ، ولبث في بيروت يعد معدات السفر الى ان ركب الباخرة مع زوجته وابنتيه في ٢٩ منه الى اوربة لنزهة دامت اربعين يوماً ، وبعدها عاد الى الاستانة فعين عضوًا في مجلس الاعيان مختاراً للحي الذي كان يقطنه ولم نتمكن من معرفة تاريخ وفاته .

اوُهانس بَاشـا

١٩١٣ – ١٩١٥

ورشّح الباب العالي ، على عادته ، غير واحدٍ لمتصرفية لبنان . ونشرت الصحف اسماء المرشحين وهم :

١ – يوسف باشا سابا الناشئ في مصر والمفتش العام لنظارة البرق والبريد في الاستانة.

٢ – بيب دود باشا من اشراف المرديت في البانية .

٣ – الدكتور زاني بك المستشار الفني في دائرة الرسومات .

٤ – اوهانس بك المستشار في نظارة الخارجية .

٥ – وقد اضيف الى هؤلاء سينابيان افندي وصوصه افندي وآرام افندي .

انتخاب اوهانس بك

وفي ٩ كانون الثاني من سنة ١٩١٣ اجتمع سفراء الدول الست في جلسة عند وزير الخارجية نورادنجيان وهو ارمني وعرض عليهم المرشحون فاختاروا منهم اوهانس بك وهو ارمني ايضاً . وللحال وضع مرسوم تعيينه ووقعه المجتمعون ووافق عليه الباب العالي ومن ثم دعي لمقابلة السلطان فمنحه رتبة الوزارة ولقب باشا ووجه اليه بعض توصيات على قوله، منها : الا يرهق اللبنانيين بالرسوم لانهم فقراء . وما عتم أن سافر الى لبنان ترافقه زوجته واخته واولاده على الباخرة الفرنسية التي رفعت على احدى سارياتها العلم العثماني تكريماً له .

من هو اوهانس باشا

ولد اوهانس باشا في الاستانة سنة ١٨٥٢ من اسرة ارمنية كاثوليكية وحصل العلوم في مدارسها وبعد ان بلغ اشدّه عيُـّن كاتباً في نظارة الخارجية ، فمستشاراً لسفارة الدولة في رومية ، فمستشاراً في نظارة خارجيتها ، وبقي في هذا المنصب الى ان عـُين متصرفاً، وكان قد رُشّح له مرتين قبل تعيينه فآثر الرفض .

وهو نجـــل بادروس افندي المعروف بثروته الواسعة والذي كان مديراً للمعادن والغابات قبل ان حولت الى نظارة وعهد بها الى سليم باشا الملحمة ، وعضواً في شورى

الدولة ، وامه مارونية المذهب كريمة بولاكي حوًّا وابنة اخي يوسف حوًّا المشهور الذي كان متسلماً اشغال البطريركية المارونية في الاستانة .

اما زوجته فهي السيدة برجوهي كريمة السيد كوتشيوغلو وله عدة اولاد وثروته واسعة كابيه يملك في الاستانة عدَّة بنايات فخمة على ضفاف البوسفور وقد كان سليم باشا الملحمة مستأجرًا واحدة منها .

تعديلات اصلاحية جديدة في مرسوم تعيينه

اما مرسوم تعيينه فقد أدخلت فيه عدة تعديلات اصلاحية جديدة زيدت على نظام لبنان ، اجابةً للمطالب التي تقدمت بها جمعية الارزة وهي التالية :

١ ـ يجاز للبواخر ان تطرق مرفأين في لبنان : جونية والنبي يونس ، وقد أضيف اليها ثالث في شكا كما سيجيء .

٢ ـ لا يحصر الانتخاب الاداري بشيوخ الصلح بل يضاف اليهم عن كل مئة مكلّف مندوب واحد يتفق عليه .

٣ ـ ينتخب عضو اداري عن مديرية دير القمر .

٤ ـ لا تكف يد العضو الاداري ولا يحاكم الا بعد تحقيق يدرسه المجلس ويصدر بشأنه القرار الذي يرتئيه .

٥ ـ الموازنة يضعها المجلس تحت مشارفة المتصرف ، قبل ابتداء السنة بثلاثة اشهر.

٦ ـ العضو الاداري الدرزي المنتخب عن جزين ينتخب بعد ذلك الحين عن الشوف اذ تبين ان لا دروز في جزين .

٧ ـ يجري المسح والاحصاء وتدرس مسائل الضرائب والاملاك الاميرية وتعرض بعد اربع سنين على الباب العالي ليعاد الاتفاق عليها مع السفراء .

٨ ـ تعتبر المحاكم اللبنانية ذات صلاحية للنظر في الدعاوى التجاريّة بدايةً واستئنافاً على ان يكون المتداعون كلهم لبنانيين .

٩ ـ يرفع عدد الجنود اللبنانيين الى ١٢٠٠ ويعهد في تدريبهم الى احد الضباط المستخدمين في تركية ، على ان تخفف النفقات الناشئة عن ذلك عن كاهل الدولة جهد الامكان .

وصول اوهانس

ووصلت الباخرة الفرنسية الى مرفأ بيروت عشية الثلاثاء ٢١ كانون الثاني ، وآثر المتصرف ان يبيت فيها ، وشاء بعض كبار الموظفين اللبنانيين النزول اليها في السهرة للترحيب به فاعتذرت بان نظامها لا يؤذن بذلك .

وفي صباح اليوم التالي ٢٢ منه عجّت الباخرة بالمستقبلين ، فتلقاهم المتصرف بلطف وايناس . وعند نزوله لاقاه الى المرفأ جمهور غفير يتقدمهم والي بيروت والرؤساء والقادة العسكريون ، وعزفت له الموسيقى ، وضربت المدافع ، وبعد قيامه بزيارات الشكر نزل في فندق كاسمان حيث توافد عليه الزائرون . وفي يوم الجمعة ٢٤ منه ذهب الى بعبدا فترأس حفلةً تلي فيها الفرمان السلطاني المؤذن بتعيينه ، بينا كان المطر يهطل مدراراً ويضطر الجماهير المتألبة في باحتها الى الانحشار في اروقة السراي لاتقائه . واخيراً القى المتصرف خطاباً حيّا فيه اللبنانيين واعرب عما يريده لهم من خير وينويه من عمل على ترقية لبنان ادبيًّا وماديًّا مشيرًا الى ما كان له من يد في اقرار التعديلات الاصلاحية الجديدة ، طالباً من الجميع ان يشدّوا ازرَه بالوقوف الى جانبه ، لأنه لا يستطيع وحده القيام بالمهام الجسام الملقاة على عاتقه على الوجه الافضل الذي يسعى اليه .

من اوصاف اوهانس باشا

وها نحن جرياً على ما درجنا عليه ننقل الى القراء بكل امانة بعض ما تركه لنا معاصرو اوهانس باشا من آرائهم في اوصافه :

قال الامير شكيب ارسلان في رسالة الى مجلة الحارس نشرتها له في الجزءين الاول والثاني من السنة ٩ (ص ٥٧) : « انه نزولاً على طلب نورادنجيان ناظر الخارجية كلّم كامل باشا الصدر الاعظم بشأن تعيين اوهانس متصرفاً للبنان ، فقال له الصدر بالعربي : « ولكن هذا رجل انجبار » يريد ساذج بسيط لا يصلح للحكم ، فأجابه الامير شكيب : « وكيف يكون انجبارًا وهو عندكم مستشار الخارجية » فسكت ووافق على تعيينه » .

وقال عنه الخوري ابراهيم حرفوش في كتابه ترجمة الحويك : « كان اوهانس باشا رجلاً متديناً يحترم رجال الدين معروفاً بالاخلاص مزداناً باجمل الخلال ، ولكن لسوء الحظ كان موقفه مع الاتراك بعد اضطهادهم الارمن (وهو ارمني) من اصعب المواقف».

وقال عنه الياس الحويك :

« كان اوهانس باشا حسن السيرة طيب السريرة يعطف على لبنان ويسعى لخيره

ولكنه كان ضعيف الارادة غير متمرّن على العمل وكان كما يقولون « قليل الخاصية » لانه كان ضعيف البنية متقدماً في السن » .

وقال ابراهيم الأسود :

« ولم يأتِ اوهانس باشا عملاً مذكورًا في لبنان ولا أصلح فيه شيئاً وفي عهدهِ حلّ بلبنان كثير من النوائب بسبب الحرب الكونية ، واشتد الخلاف بينه وبين مجلس الادارة لانه كان يميل الى مساعدة شركة الروجي ضد مصلحة لبنان ، وبسبب ذلك وقعت مشاجرة بينه وبين زخور بك العازار عضو المجلس الاداري عن الكورة كان قد تعاظم امرها لولا تدخل رضا باشا ووقوف كلٍّ منهما عند حده » .

وقال فيه اقرب المقربين اليه يوسف الحكيم في مذكراته (ص ١٨٩) :

« رأيي في شخصية الحاكم اوهانس باشا خدمةً للحقيقة والتاريخ : « انــه رفيع التهذيب نبيل العاطفة مخلص لدولته وللجبل لبنان شريف ، حافظ للعهد، ولكنه عصبيّ المزاج، يشكو المأ في معدته في اكثر الاحيان، لم يألف الادارة الداخلية ، ولا يستطيع الصبر على المكاره . وهكذا فاقت محاسنه ما يشكونه منه . والكمال لله وحده . »

ثورة رجال الدرك

ومن الاحداث التي وقعت في عهد هذا المتصرف ثورة رجال الدرك لاول مرة في لبنان . ابتدأوا بها في زغرتا واتجهوا من هناك الى بعبدا فانضمّ اليهم كثيرون من رفاقهم في الطريق . وقد قابل المجلس الاداري ثورتهم بعطف ، وصرف لهم عشرة آلاف ليرة كسلفة لسدّ عوزهم ، ريثما ينظر في مطاليبهم فتفرقوا الى اعمالهم شاكرين ، وكان المتصرف فيما يقال هو الذي دعا المجلس الى ان يصرف لهم هذا المبلغ .

بين المتصرف ورئيس المجلس

وكان اوهانس باشا حال وصوله الى لبنان بتوصية من نجيب باشا ملحمة قد عين حبيب باشا السعد رئيساً للمجلس الاداري ، ولبث معه مدةً على خير حال ، الى أن دخل من ديوانه بعض معارضي السعد فجعلوا يتحينون الفرص الملائمة ليبثوا في نفسه الانجبارية ريبةً منه . وقد تمكنوا مع الايام بمختلف الوسائل من تحويل تلك الريبة الى نفرة ، على ان السعد وقد كان مفطورًا على النبل والاخلاص ولباقة المعاشرة ، عرف كيف يحافظ على مركزه طوال ذلك العهد ويفرض على المتصرف احترامه ويوقفه عن

اي تدخل غير مشروع في شؤون المجلس ويقوم فيه بخدمات جلّى للبلاد لم يقم بمثلها اي رئيس آخر قبله .

اخص خدمات حبيب باشا السعد للبنان في عهد رئاسته

وهاك اخص الخدمات التي قام بها حبيب باشا السعد للبنان في ذلك الحين

١ — اصداره مذكرة لترفع الى اسطنبول يطلب فيها من الدولة ان تسدّد عجز الموازنة اللبنانية من صندوقها ، عملاً بالمادة ١٥ من نظام لبنان، مما لم تجرؤ على مثله المجالس السابقة ، ولكن تلك المذكرة المسجلة في دفاتر المجلس بقيت حبرًا على ورق، لأنها حين قدمت الى المتصرف ليرفعها الى مرجعها عمل هذا على اخفائها خوفاً مما قد تجرّه عليه في اسطنبول من غوائل .

٢ — وضعه قرارًا بفتح ثلاثة موانئ للبنان : في النبي يونس للدروز ، وفي جونية للموارنة ، وفي شكا للارثوذكس ، وقد وصلت اول باخرة الى مرفأ جونية في شهر اذار ١٩١٣ فقابلها الاهلون بمظاهر الابتهاج والحفاوة .

٣ — اقراره فصل ادارة الملح في لبنان عن ولاية بيروت وقد احتجت ادارة الديون العمومية في الدولة على ذلك العمل ، ولكن المجلس ثبت في موقفه واخذ يستقدم الملح الى لبنان على حسابه الخاص وبذلك ايد ظاهرة من مظاهر الاستقلال اللبناني سطرت له تلك العارفة بمداد المنة والشكران .

٤ — نشره قرارًا آخر وافق عليه المجلس بوجوب ايجاد ادارة مخصوصة في لبنان لاحياء زراعة التبغ وبيعه داخـــل لبنان وخارجه مع وضع ضريبة قوية على كل تبغ وتنباك يردان عليه من الخارج ، ولم يلبث ان نفّذ ذلك القرار غير مبال باحتجاجات ادارة الروجي العثمانية ، وبذلك رفع عن اعناق اللبنانيين سلاسل كانت قد قيّدت بها من سنين طويلة ودفع اللبنانيين على ان يسجلوا له تلك الخدمة العظيمة الفائدة للاقتصاد اللبناني بحروف ذهبية .

محاولة اوهانس باشا حل المجلس

وللانتقام من المجلس حسّن لاوهانس موظفو دائرته ان يقوم بدورة عامة في لبنان يحرك فيها من طرف خفي عواطف اللبنانيين على المطالبة بحله وخرج يطوف اقضية المتن وكسروان والبترون وزحلة ناثرًا لاهلها الوعود الخلابة ساعياً بواسطة اعوانه في تختيم عريضة مطبوعة يشكون فيها من تقصير المجلس مسترحمين فضه وانتخاب مجلس آخر

جديد يستجمع اعضاؤه ، على حد قولهم ، الصفات الضامنة للبنان اسباب الرفاه والترقي ، ولكن الاهلين اشاحوا بوجوههم عن تلك العريضة وعاد المتصرف واعوانه يجرون اذيال الفشل والخيبة .

الاحداث المؤلمة الخطيرة التي ختمت بها ولاية اوهانس

نحن لسنا ممن يعتقدون بسعد الوجوه ونحسها لنقول ان وجه اوهانس كان نحساً او شؤماً على البلاد ، بما حصل فيها في اواخر ايامه بعد ان أعلنت الحرب العالمية الاولى من احداث مؤلمة خطيرة ، رافقها من الجوع والتشريد والخراب والموت ما تدمى لذكره القلوب ، وتقشعر الابدان . ولكن واجبنا التاريخي يدعونا الى الالماع لماماً الى ما تم منها في عهده غير محملينه فيها اية مسؤولية ، لأن ولاية الامر في لبنان كانت قد نُزعت منه وتسلّمها من هم فوقه من القادة العسكريين ، وأصبح خاصةً بعد ان نكب الارمن « وهو ارمني » من المشكوك في اخلاصهم ، وبات ينتظر كفّ يده وابعاده عن لبنان بين ساعةٍ واخرى .

مقدّمات الحرب

وكان لتلك الحرب العامة مقدمات عجيبة اشار اليها صاحب سلسلة المقالات المعنوية بين الامس واليوم ، التي نشرها تباعاً في مجلة الحارس . وها نحن نقتبس عنه موجزها وقد قال فيه :

وكأن الله تعالى اراد ان تكون تلك الاحوال والظروف التي مرت بلبنان في عهد اوهانس مقدمة للحوادث التي وقعت فيه في اثنـــاء الحرب العالمية ذلك لان في مجرى الحوادث الطبيعية اموراً يقف عندها العقل البشري قاصراً عن الحكم والتعليل ، فان كثيراً من النوائب التي نزلت بالعالم وحلّت على البشر تقدمتها ظواهر سياسية في كل محل مخصصة بهِ ومحصورة فيه .

وعلى هذه القاعدة يمكننا القول ان ما وقع في بيروت ولبنان من الحوادث خلال السنتين ١٩١٣ و ١٩١٤ قبل اعلان الحرب العالمية كان بمثابة انذارات طبيعية تدل على الرزايا التي نزلت في هذه الديار وسكانها فيما بعد .

من تلك الحوادث

١ — ظهور حركة الاصلاح في بيروت وباريس الرامية الى الانفصال عن الدولة وانضمام بعض اللبنانيين اليها .

٢ — طلب اهالي دير القمر ومجاوريهم ضمّ بيروت وصيدا وطرابلس الى لبنان .
٣ — سعي اهالي زحلة ومن جاورهم بان يضموا اليه ايضاً البقاع وبعلبك وملحقاتهما.
٤ — زيارة الاسطول الفرنسي جونية ونزول اميراله وكبار ضباطه لتناول الغداء على مائدة البطريرك الماروني واتجاه البطريرك الى الاسطول ليرد لهم الزيارة والبحر هائج فصبّوا فيه مقداراً كبيرًا من الزيوت ليسكن ويصل اليهم الزائر الجليل براحة واتفق ان فقد البطريرك خاتمه في اثناء ذلك فاهدوا اليه خاتماً آخر كثير الثمن بدلاً منه ، الى ما رافق ذلك من استقبالات فخمة ، ومن خطب ودية متبادلة ، كان لها في صحف الاستانة الميالة الى المانية صدى غير مستطاب .
٥ — زيارة موريس بارس الاديب الفرنسي الكبير للبنان وما أقيم له فيها من ولائم شائقة وتبودل من خطب عرّض الزائر في احداها بالحكومة العثمانية بما اثار نقمتها عليه وعلى اللبنانيين وجعلها تشك بامانتهم لها .
٦ — قدوم فدرين الطيار الفرنسي على طيارته لاول مرة الى لبنان وتوافد اللبنانيين الوفاً لاستقباله في محلة الكرنتينا وتحويمه بعد ذلك فوق بكركي ورميه اليها من اقاصي الجو بتحية فرنسة ...

كل ذلك وامثاله مما كان يسخط رجال الدولة العثمانية ويثير عصبيتهم قد برّر في نظرهم تلك الخطوب التي انزلها جمال باشا بلبنان واللبنانيين في اثناء الحرب .

اعلان الحرب العامة ووقعه في لبنان

وفي ٣٠ تموز من سنة ١٩١٤ اعلنت الحرب في اوربة بين الدول الموقع اكثرها على نظام لبنان ولم تلبث الدولة العثمانية ان نشرت قانوناً دعت فيه الى النفير العام والبدء بمعاملات التجنيد ، فأقلق ذلك افكار العقلاء من اللبنانيين واثار مخاوفهم ، مما ستجره عليهم الحرب من ويلات تأكل الاخضر واليابس وتقضي على امتيازات لبنان وراحة سكانه ، وأخذوا يحسبون لذلك الف حساب .

الاحصاء وتذاكر النفوس

وحدث بعد ذلك ان بعض اللبنانيين الذين كانوا يترددون الى بيروت لقضاء مصالحهم تعرضوا لملاحقة الجنود التابعين لشعب التجنيد وسوقهم الى الدائرة الخاصة التي كان يرئسها حسن حسني ريثما يؤيدون هويتهم اللبنانية ، ولذلك قررت حكومة لبنان احصاء النفوس فيه وتزويد كل لبناني بتذكرة نفوس لقاء بدل قدره عشرة غروش ، وبذلك تخلّص

اللبنانيون مما كان يلحقهُ بهم اولئك الجنود من اعنات بقولهم لكل من عثروا عليه منهم « نرده وثيقة ؟ » وهي كلمة كثيرًا ما ردّدها اللبنانيون في ذلك العهد .

دخول الدولة الحرب الى جانب المانية

واخيرًا في ٢٩ تشرين الاول من ١٩١٤ كشف رجال الدولة العثمانية المتسلمون القيادة فيها من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي وفي مقدمتهم انور وطلعت وجمال اوراقهم ، وأعلنوا دخولهم الحرب الى جانب المانية ، فكان لذلك الخبر اسوأ وقع في لبنان ، لما ساور اهله من قلق مما قد يحل بهم من اذى فيما اذا طال امد الحرب .

اهم ما حدث بين اعلان الحرب واستقالة اوهانس

وقد رأينا اقتضاب الاحداث التي وقعت بين اعلان الحرب وانسحاب اوهانس باشا على خطورتها مجانبةً لتطويل لا يجيزهُ الموقف :

في ٩ ايلول سنة ١٩١٤ الغت الدولة الامتيازات الاجنبية واقفلت حكومة بيروت ما كان فيها من دوائر بريد للاجانب واخذت تدقّق في ما كان فيها من مراسلات .

وفي ١٤ تشرين الثاني اعلن السلطان محمد رشاد بصفته امير المؤمنين الجهاد المقدس على اعداء الاسلام محاربي دولة الخلافة .

وفي ٢٢ منه دخل فوج من الجيش العثماني لبنان بطريق زحلة وما فوقها من جبال وحلّ في الشوير ومنها انتشر الى غيرها من الجهات اللبنانية وباشر اقامة الاستحكامات في جهات عاليه .

وقبل ذلك كان جمال باشا قد عُيّن قائدًا للجيش العثماني في الاقطار العربية وحلّ في دمشق وهو الذي امر بتوجيه فوج من الجيش العثماني الى لبنان ثم انشأ في عاليه مجلساً عرفيًّا لمحاكمة كل مشبوه في صدق تابعيته للدولة ، ونشر الاحكام العرفية وقلّد السلطات العسكرية الهيمنة على الدوائر الادارية ، واذاع بلاغاً على اللبنانيين حضّهم فيه على الاخلاص لدولتهم ، واعدًا اياهم بالابقــاء على نظامهم الخاص الذي يعفيهم من الجنديّة ، قائلاً انه لم يحتل لبنان الا لصدّ ما قد يحتمل وقوعه من هجوم الاعداء على شواطئه .

الاستعداد لمهاجمة مصر

وفي مطلع ١٩١٥ جعل عاليه مركزاً لقيادة الجيش العثماني المرابط في لبنان، ثم بدأ يعدّ العدّة لمهاجمة مصر عن طريق الترعة «قناة السويس» وطرد الانكليز منها، وفي سبيل ذلك أمر بأن يجمع من لبنان كل ما يحتاج اليه جيشه في تنقلاته من مثل الخيل والبغال والحمير وبعض الامتعة البيتيّة، حتى من مثل أكياس الجنفيص وصفائح البترول الفارغة والنحاس، وان يستأجر منه كل من يريد العمل مع الجيش في مختلف المهن، حتى في تصليح احذية الجنود ممن يسمونهم بالعتقجيّة، باجور مغرية ظهر بعد حين انها كانت اسمية. وقد حملت الحاجة والبطالة بسبب وقوف دولاب الاعمال بعض اللبنانيين على الاغترار بتلك الاجور، والانخراط في سلك العمال، ولكن لم يعد منهم سالماً الا كل طويل العمر وبحالة من العري والهزال تثير الشفقة.

جو من الارهاب يسيطر على لبنان

وفي اذار من السنة المذكورة اقرّ جمال باشا حل المجلس الاداري اللبناني، وأمر بنفي فريق من رجاله الى بعض مدن الاناضول وغيرها وفي مقدمتهم رئيسه حبيب باشا السعد، ثم اتبعهم بآخرين من اعيان لبنان وادبائه ورؤساء اديانه منهم المطران بطرس شبلي رئيس اساقفة بيروت الماروني الذي مات في منفاه شهيد وطنه، والمطران جراسيموس مسرّة متروبوليت بيروت الارثوذكسي، وكان في نيته نفي المثلث الرحمات البطريرك الياس الحويك بتهمات كاذبة نقلها اليه بعض الوشاة، ولكنه حين دعاه اليه ورأى فيه ما رأى من مظاهر الجلال والرصانة والصدق رجع عن عزمه واعاده الى كرسيه بعد ان قابله وودعه بمجالي الحفاوة والتوقير، وقيل ايضاً لان البابا وامبراطور النمسة تدخلا مع السلطان في قضيته فوجّه الى جمال باشا امراً بوجوب رعايته واجلال مقامه، فلم يسعه الاّ الاذعان، واكتفى بان أرغمه واساقفته على اخذ الفرمان من الدولة الذي كان ينص على اعترافها رسمياً بصفتهم الرئاسية على رعاياهم اسوةً بغيرهم من سائر رؤساء الطوائف المسيحيـــة الروحيين، وبذلك قضى على ما كان لاحبار الموارنة في الدولة من امتياز عزيز توارثوه من اقدم ايامهم.

الخوري يوسف الحايك اول الشهداء اللبنانيين

وفي عهد اوهانس ٢٢ اذار من سنة ١٩١٥ أعدم شنقاً في دمشق الخوري يوسف الحايك كاهن رعية سن الفيل اول الشهداء اللبنانيين بسبب جواب شكر من مسيو

ديشانيل رئيس المجلس النيابي الفرنسي ضبط في البريد. وقد شُهِّر قبل شنقه في شوارع المدينة بابشع الصور، وحرضت الساطة فريقاً من الرعاع على ان يرافقوه في تشهيره ويكيلوا له أقبح النعوت والشتائم، وهو ما دلَّ على ما كان يبيته الاتراك للبنانيين من اسوأ النيات.

نخلة باشا المطران

والثاني من الشهداء في ايام اوهانس نخله باشا المطران من اوجه وجهاء بعلبك. كان وشقيقته ڤكتوريا يقيمان في الاستانة قبل الحرب وتحرَّج مرةً موقف جمال فلجأ الى منزلهما فاجاراه واحسنا وفادته، ودفعته يوماً نفسه الامارة بالسوء الى التحرش بڤكتوريا فاسمعته مرَّ الكلام وطردته وشاء الانتقام منها بعد مجيئه الى هذه البلاد فجرَّ اخاها نخله الى سجن دمشق بتهمة كاذبة وبامره اذيق فيه امر العذابات وحكم عليه بالنفي المؤبد في ٥ كانون الثاني ١٩١٥، وبعد ان شُهِّر في اسواق المدينة بآلم صورة نفذ فيه النفي في اوائل شباط الى بلاد الاناضول، وبعد ان تجاوز به القطار حلب الى محطة تل ابيض امره الجنود القائمون على حراسته بالنزول من القطار والسير على قدميه فأطاع، وفي اثناء الطريق قتلوه بالرصاص بحجة انه حاول الفرار وسلبوه ملابسه وقطّعوا جسمه ارباً ورموا قطعه في حوض ماء.

هزيمة نكراء يلاقيها جيش جمال في الترعة

وكان جمال باشا من الشهر الاول من سنة ١٩١٥ سيَّر حملةً الى مصر قصد احتلالها وطرد الانكليز منها، بعد ان جعل مدينة القدس مقرًا لقيادته، وفي الثاني من شباط وردت برقية الى بيروت تفيد ان طلائع الحملة فازت باجتياز القناة دون ممانع وفيما كانت السلطات التركية في لبنان تستعد فيها لاقامة الافراح، واذا بالحالة تتبدّل ويسيطر الوجوم على تلك السلطات، ذلك لتلقيها برقيات اخرى تفيد ان الانكليز تركوا الحملة عند وصولها تجتاز الترعة بسلام، حتى اذا سارت في الجانب الآخر، انهالوا عليها بنيران قواتهم من كل جانب من البر والبحر والجو ففتكت بها فتكاً ذريعاً واضطرت من نجوا منها من الموت الى الهرب، ولكن كانت الترعة امامهم تسدّ عليهم الطريق فلم يظفر منهم بالنجاة الا كل طويل العمر.

جمال باشا يستعد لاعادة الكرة

وكان نبأ هذا الاندحار الساحق مرًا على جمال باشا ولكنه لم ييأس واعلن عزمه على اعادة الكرة وتسهيلاً لنقل الجنود قام بمد خط حديدي من دمشق حتى بئر سبع بطول اكثر من مئة كيلومتر ، أخذ مهندسيه من الالمان ، والاخشاب التي استعملت فيه ، وقد كانت كثيرة ، من غابات لبنان .

مجلس اداري جديد في لبنان

وفي ٢ ايار من تلك السنة دخلت ايطالية الحرب الى جانب الحلفاء ، وفي ٢٦ منه اصدر جمال باشا امرًا بتأليف مجلس اداري جديد في لبنان بطريقة التعيين خلافاً لنص نظامه فكان عمله اول خطوة من خطواته في طريق الغاء هذا النظام .

وابلغت اسماء الاعضاء المعينين الى المتصرف اوهانس باشا فدعاهم الى بعبدا ويبدو انهم كانوا عنده من غير المرغوب فيهم فافتتح جلساتهم بكلمات جافة اوجدت بينهم وبينه نفرةً استمرت حتى آخر ايامه ، وعين منهم وكيلاً للرئاسة الامير سليم ابي اللمع وكان من الفضلاء ، فسعى جهده مع رضا باشا رئيس فرقة عاليه ووكيل جمال باشا في لبنان في ازالة تلك النفرة ، ولكن المتصرف لبث منهم على موقفه مما أيَّد ما قاله فيه بعضهم وهو انه « رجل انجبار قليل المهارة عنيد لغير حجة » .

الجراد والمجاعة وفساد الاخلاق

وكانت الحرب قد بدأت تنشر الضيق في لبنان بانسداد باب البحر وانقطاع الاتصال بالمهاجرين ووقوف دولاب الاعمال ونضوب الاموال ومنع الاتراك توريد الحبوب الى لبنان الا بوثيقة ، فأخذت الاسعار ترتفع ارتفاعاً يهدد بالويل ، وفيما كانت الحال على ذلك المنوال جاء الجراد في اواسط نيسان ولبث يجرد الارض من خضرتها ومحاصيلها حتى اواسط تموز ، ولم يغادرها الا بعد أن اعادها جرداء كما كانت في كانون ، وبسبب ذلك انتشرت تلك المجاعة التي تركت لبنان خراباً يباباً واذلَّت اللبنانيين وشرَّدتهم واماتت منهم اكثر من مئة الف نفس ، فضلاً عما انزلته من تبديل في اخلاقهم وعاداتهم النبيلة الموروثة حتى كاد لبنان بعدها يكون غير ذلك اللبنان العزيز الاشم الذي عرفناه قبلها .

من كان اعضاء المجلس الاداري

وقد قابل اللبنانيون مجلسهم الاداري المعين الجديد بفتور لما ساورهم من قلق على مصير نظامهم وذلك على الرغم مما كان يتحلى به اعضاؤه المنتقون من مزايا وهم السادة :

احمد الحسيني عن كسروان ، سليم داود ثابت عن دير القمر ، حسين الحجار والامير سامي ارسلان عن الشوف ، الشيخ عقل ابي صعب عن البترون ، الدكتور زخور بك العازار عن الكورة ، يوسف بك بردويل عن زحلة ، فؤاد عازوري عن جزين ، اسعد مخايل لحود عن جبيل ، المقدم رشيد مزهر وابراهيم بك الاسود واسكندر بك الخوري عن المتن ، فضلاً عن رئيسهم السابق الذكر الامير سليم ابي اللمع .

استقالة اوهانس وسفره

وكانت الدولة قد نكبت الارمن لاعتبارهم خونة فقتلت منهم من قتلت وساقت الآلاف منهم شيوخاً واطفالاً ونساءً الى سورية سوق السوائم وعلى ذلك كان اولياء الامر في سورية ينظرون الى اوهانس باشا وهو ارمني نظرة حذر واستنكاف ويتحينون سبباً للتخلص منه . اخيرًا جاء ذلك السبب اذ اتخذ رضا باشا من خلاف اوهانس مع المجلس الاداري ورفضه تدخله في مصالحته مع اعضائه سبيلاً الى الاصرار على طلب اقالته. فأبرق الى جمال باشا في ذلك حالفاً بشرفه العسكري انه لن يبقى ساعة في لبنان ما دام اوهانس حاكماً فيه.

واتصل الخبر باوهانس فاسرع الى تقديم استقالته وتسليم حليم بك التركي رئيس المالية في لبنان مقاليد الحكم بالوكالة وكان ذلك في ٥ حزيران سنة ١٩١٥ .

ومن ثم انتقل الى بحمدون فاقام فيها شهرين في فندق الراهبة انسطاس يعدّ معدات الرحيل وفي اواسط آب سافر على القطار الحديدي مع اسرته الى اسطنبول ، ولكنه لم يستطع البقاء فيها طويلاً فانتقل الى رومية وصرف باقي حياته في حالة من الحرمان لان الحكومة العثمانية ضبطت جميع املاكه في الاستانة فاصبح من الوجهة المالية لا في العير ولا في النفير ، اما من حيث آدابه واخلاقه فظل موفور الحرمة موضوعاً للتقدير .

متصرّفون استثنائيّون

عليّ مُنيف بك

٢٥ ايلول ١٩١٥ – ١٥ ايار ١٩١٦

دعي المتصرفون الثلاثة الذين توالوا على لبنان بعد سفر اوهانس والقضاء على نظام لبنان بالمتصرفين الاستثنائيين ، واولهم علي منيف بك مستشار وزارة الداخلية في الاستانة. عُيّن بارادة سلطانية ، على أن يكون لبنان لواء مرتبطاً مباشرة بوزارة الداخلية ، اسوةً بسائر الالوية في بلاد الدولة المستقلة عن الولايات ، وبذلك التعيين المخالف لنظام لبنان بطريقته وبما اعطيه الحاكم المعيَّن من حقوق وصلاحيات ، أصبحت في خبر كان تلك الامتيازات اللبنانية بعد أن دامت اربعاً وخمسين سنة من ١٨٦١ حتى ذلك الحين ١٩١٥ .

مما كان يتندّر به اللبنانيون عن المتصرفين المستقلين

ومن المستغربات تلك المصادفات التي رافقت تاريخ المتصرفين المستقلين وكان يتندر بها اللبنانيون في مجالسهم نذكر منها :

اولاً : القول : ان اولهم ارمني وآخرهم ارمني وقد صحَّ ذلك بداود واوهانس .

ثانياً : المتصرفون المدعوون باسماء لا يتداولها اللبنانيون يموتون في لبنان ، والذين يحملون اسماء كاسمائهم يعودون احياء ، وقد تمَّ ذلك بموت فرنكو وواصا ومظفر ، وعودة داود ورستم ونعوم ويوسف .

ثالثاً : متصرف يعود حياً ومتصرف يموت ، فقد عاد داود ورستم ونعوم ويوسف ومات فرنكو وواصا ومظفر . وشذ اوهانس عن القاعدة لعوده من لبنان قبل نهاية مدته القانونية.

وصول علي منيف – اخص اوصافه

ووصل علي منيف بك الى لبنـــان في ٢٥ ايلول قادماً من الاستانة على القطار الحديدي بعد بقاء حليم بك وكيلاً للمتصرفية زهاء ثلاثة اشهر وعشرين يوماً . وفي ٢٨

منه قرئ في بعبدا فرمان تعيينه بمحضر جماهير غفيرة . واتخذ المتصرف الجديد بعبدا مكاناً لسكنه ، خلافاً للمتصرفين الذين سبقوه ، ومما يذكر له بالخير انه أخذ يقوم بمهمته بما دلّ على حنكة وحزم في الادارة . من ذلك انه منع بعض الرؤساء العسكريين وفي مقدمتهم رضا باشا قائد الفرقة في عاليه من التدخل في شؤون لبنان الادارية وسدّ بابه في وجوه الوشاة والمدلسين ممن اعتادوا التجمع حول اسلافه .

على انه من جهة ثانية اتى اعمالاً أنكرها عليه اللبنانيون منها :

١ تعيينه في بعض الوظائف اللبنانية اشخاصاً اتى بهم من ولاية بيروت مع وجود لبنانيين فيهم كل الكفاية لاملاء تلك الوظائف .

٢ – مساهمته في الشركة التي ترأسها احد البيروتيين في احتكار القمح ، وبيعه في السوق السوداء باثمان فاحشة ، أدت الى استفحال المجاعة وجنيه من وراء ذلك ارباحاً جزيلة كانت بمثابة ثمن للارواح التي زهقت بسبب ما نجم عن ذلك من غلاء ، وموافقته القائمين ببيع ذلك القمح على غشه بالزؤان والكرسنّة والتراب فكان هو بصفته الحاكمية في مقدمة المسؤولين عن اتيان ذلك الغشّ وما نجم عنه من ويلات .

ولعلّ ذلك ما حمل ابراهيم الاسود على ان يقول عنه في كتابه الجزء الاول من «تنوير الاذهان» (ص ٦٨) ما يلي :

«لا يُنكر ان علي منيف كان من اصحاب المعرفة الواسعة والادارة الحكيمة ، ولكنه بما اتى من المنكرات في اثناء وجوده في لبنان او بالاحرى بما ساقه البعض الى اتيانه ترك ذكراً غير مشكور » .

اهم ما وقع في لبنان في عهد علي منيف

وها نحن نلمع بايجاز الى اخص ما وقع في لبنان في عهده :

في ٢١ تشرين الثاني من ١٩١٥ عاد الجراد الى بعض انحاء لبنان وبقيت ارجال منه طوال تلك السنة تتجوّل فيها وتلتهم الزرع ومختلف انواع النبات مما أدّى الى استفحال المجاعة وانتشار الامراض وما نجم عن ذلك من وفيات وشرور .

نواب لبنان في المبعوثان العثماني

وفي تلك الاثناء عين علي منيف بعد موافقة قائد الجيش ومجلس الوزراء في العاصمة ثلاثة نواب عن لبنان في مجلس المبعوثان العثماني بدعوى ان حالة الحرب تحول دون انتخابهم

من قبل الشعب وهم : الامير حارس شهاب ، الامير عادل ارسلان ، رشيد بك الرامي ، وقد مثلوا لبنان احسن تمثيل في تلك الآونة العصيبة رغم ما رافق ذلك التمثيل من مخالفة للقانون .

تجنيد الاطباء وابدال ملابس الدرك

وفي عهد علي منيف بك دعي الاطباء اللبنانيون الى التجند في الفرقة الصحية من الجيش التركي . وقد وُجّه اكثرهم الى مواقع محفوفة بالاخطار لقوا فيها حتفهم فكبرت بموتهم الخسارة على اهلهم ووطنهم .

وفيه ايضاً ابدلت ملابس الدرك فحلّ البانطلون الحديث محل سراويل الزواف القديمة التي كانت تمثل في الجندية اللبنانية الطابع الفرنسي .

مخبآت القنصلية الفرنسية

وفيها دلّ فيليب زلزل احد موظفي القنصلية الفرنسية العامة في بيروت على مخبآت اوراقها السياسية التي كان القنصل قبل سفره قد اودعها في جدار من جدران احدى الغرف ، وطلا بابه بصورة تحول دون معرفته ، ولدى قيام السلطة العسكرية بكشفه ظهرت فيه وثائق موقعة من زهاء اربعين شخصاً من كرام السوريين واللبنانيين ، يطلبون فيها معونة فرنسة على استقلال سورية وصيانة استقلال لبنان وتوسيع حدوده .

وبين ليلة وضحاها كان موقعو تلك العرائض ممن لم يتمكنوا من مغادرة البلاد قبل دخول الدولة الحرب في سجون عاليه ودمشق ، وظلّوا فيها الى ان حكم عليهم بالاعدام ونفذ فيهم الحكم افراداً وجماعات فماتوا شهداء كراماً في سبيل استقلال وطنهم .

الشهداء الذين اعدموا في عهد علي منيف

وهذه اسماء الشهداء اللبنانيين الذين اعدموا في عهد علي منيف في ساحة بيروت بتهمة انتمائهم الى منظمات تعمل على الانفصال عن الدولة :

من شهداء القافلة الاولى الذين اعدموا في ٢١ آب ١٩١٥ :

عبد الكريم الخليل ، محمود ومحمد المحمصاني ، عبد القادر الخرسا ، نور الدين القاضي ، محمود نجا ، صالح حيدر .

وهؤلاء شهداء القافلة الثانية الذين اعدموا في الساحة نفسها في ٦ ايار من سنة ١٩١٦ بمثل التهمة الآنفة الذكر :

الشيخ احمد طباره ، عبد الغني العريسي ، عمر حمد ، علي الحاج عمر ، بترو باولي ، سعيد فاضل عقل ، توفيق البساط .

وهناك شهداء آخرون اعدموا لاتيانهم اعمالاً رموا فيها الى خير وطنهم وهم :

عبد الله الطاهر القبيات في ١٤ اذار ١٩١٦ ، يوسف الهاني في ٥ نيسان ، مسعود الهليل في ٢٥ منه ، ومن السنة نفسها .

وفي اواسط ايار من سنة ١٩١٦ انتهى عهد علي منيف في لبنان بتعيينه والياً على بيروت فانتقل اليها وبقي في وظيفته تلك الى اواسط ١٩١٨ اذ دعي الى الاستانة لاشغال منصب فيها ولم يتصل بنا بعد ذلك شيء من اخباره .

اسماعيل حقي [١] بك

١٥ ايار ١٩١٦ - ١٤ تموز ١٩١٨

وفي اوائل ايار ١٩١٥ عين اسماعيل حقي بك بارادة سلطانية خلفاً لعلي منيف بك . وكان عند تعيينه في الاستانة عضواً في مجلس الاعيان ، وقد شغل من قبل على عهد عبد الحميد منصب امانة السر في الديوان الهمايوني ، وكان مدةً في مصر مستشاراً عند مختار باشا الذي صار صدراً اعظم ، وتعرّف الى البطريرك الماروني حين زار الاستانة سنة ١٩٠٥ .

وصوله الى لبنان

وفي ١٥ منه وصل الى لبنان على القطار الحديدي فاستقبل في محطة بعبدا بالاكرام والموسيقى ، وسير به بموكب الى السراي حيث تلي فرمان تعيينه ، وأعلن رغبته في سكنى الجوار ضمن حدود لبنان فاستؤجر له بيت في الحدث اقام فيه حتى نهاية عهده .

من اوصاف اسماعيل حقي بك ومواقفه من اللبنانيين

وكان اسماعيل حقي بك شيعي المذهب ، طيب الخلق ، رقيق العاطفه ، يحب عمل الخير والاحسان الى الناس ، والترفع عن اي اذى ، وهو الذي فتح المآوى الخيرية للاولاد الفقراء وجهّزها بالمؤن ، ولكن بعض الذين ائتمنهم على ادارتها اساؤوا الامانة فقلّلوا كثيراً من فائدتها .

ويروى انه بعد ان اقام زمناً في لبنان عرف اشياء كثيرة عن اولئك الذين كانوا منه يتصلون بالفرنسيين في جزيرة ارواد لعدّة اغراض منها تسلّم ما كان يصل على يدهم الى لبنان من مساعدات المهاجرين ، ومع ذلك كان يعتصم بالسكوت والتجاهل اشفاقاً وحناناً . ومن مرويات المطران بولس عقل انه زاره مرةً في بعبدا ، فخلا به واسرَّ اليه انه مطلع على مغامراته مع نعوم باخوس واوصاه بالحذر ، وبأن يكتم عن الجميع امر تلك الزيارة . وعمله ذاك يدل على تقديره للظروف العصيبة التي كانت تضطر اللبنانيين الى ركوب مثل تلك الاخطار .

ولاسماعيل حقي بك خدمة ادبية جلى للبنان نذكرها له بالشكر وهي تكليفه جماعةً من افاضل المؤرخين والكتاب في مقدمتهم الاب لويس شيخو اليسوعي وعيسى اسكندر المعلوف وضع كتاب في مختلف الشؤون اللبنانية باسم « لبنان » سدّ ثلمةً في تاريخنا ، بما انطوى عليه من مختلف المباحث الرصينة الخاصة بلبنان ، ونجد هذا الكتاب الآن تحفة ثمينة يكبر العارفون قدرها .

من اهم الاحداث التي حصلت في عهده

في صيف ١٩١٦ اشتدت المجاعة في لبنان بشكل رهيب بسبب منع القمح من الورود الى لبنان بحجة احتياج الجيش اليه ، وطلب الالمان جانباً منه ، وقد ادّى ذلك الى انتشار الامراض وازدياد الوفيات والى اقدام بعض الجياع على ذبح الاطفال المهملين واكل لحمانهم ، واعتقل في طرابلس بالجرم المشهود بعض اشخاص كانوا يذبحون من يقع في ايديهم من الفقراء ويتجرون ببيع لحومهم . فحكم عليهم بالشنق .

وفي ١٠ حزيران من هذه السنة اعلن الحسين امير مكة الجهاد المقدس على الاتراك اعداء العروبة ومغتصبي الخلافة ، فكان ذلك التاريخ بدء الثورة العربية .

واستولى المجاهدون العرب على مكة والطائف وجدّة والمدينة وفي خامس تشرين الاول من تلك السنة بويع الحسين ملكاً على الديار المقدسة وقاد نجله الامير فيصل الجيش العربي يرفرف النصر على اعلامه .

وكان جمال باشا في هجومه الثاني على الترعة قد دُحر وتتبعه البريطانيون من مصر ، وبعد مدة انضم اليهم الفرنسيون يرافقهم متطوعون من مهاجرى سورية ولبنان فاستولوا على غزة والقدس والتحموا بالجيش العربي وساروا معه صفاً واحداً يهزمون الترك والالمان من جبهة الى جبهة ، فكان ذلك طليعة التحرر العربي الذي تنعم به اقطارنا في الوقت الحالي .

وفي عهده اعدم شنقاً في بيروت يوم ٥ حزيران من ١٩١٦ الشهيدان الاخوان فيليب وفريد الخازن بتهمة اخلاصهما للبنان ، والاخوان انطون وتوفيق زريق لتخلفهما عن القيام بالخدمة العسكرية وذلك بصلبهما على عودين متجاورين واطلاق الرصاص عليهما بصورة همجية اطالت عذابهما وهو ما تنكره الطرق المتبعة في مثل هذه الحال .

تحرج موقف جمال وعزله

وعلى اثر تلك الهزائم التي مني بها الجيش التركي في الاقطار العربية تحرّج موقف جمال في الاستانة ، وأخذت الصحف الفرنسية تلوك سمعته ، فجاء صوفر في تموز ١٩١٧

واستدعى اليه البطريرك الماروني وارغمه بين الوعد والوعيد على توقيع شهادات بحسن تصرفاته وبراءته من شتى التهمات الموجهة اليه ، ولكنها لم تجده نفعاً ، ولم تلبث الاستانة في ٥ كانون الثاني من سنة ١٩١٨ ان أصدرت امراً بعزله من قيادة الجيش وبدعوته الى العاصمة حيث عهدت اليه بمنصب وزير للبحرية ثم بمنصب وكيل في نظارة الداخلية ، وبذلك تقلص ظله عن هذه البلاد ولم يبقَ له فيها الا ذكريات مظالمه ولقب « سفاح » الذي اجمعت كلها على وسمه به بكل استيهال ، وما زال هذا اللقب يلازمه حتى اليوم .

خلف جمال باشا

وخلف جمال باشا قائد آخر باسم جمال ، سماه اهل بلادنا جمال باشا المرسيني او الصغير نسبةً الى بلده مرسين ولانه دون جمال الاول خطورةً ، فبلغ بيروت في ١٤ اذار من سنة ١٩١٨ وفي ذلك الحين بلغ الغلاء اشدّه لأن الالمان ضبطوا الحبوب المجتناة من سوريا ووردوها الى المانية ، ولم يقم جمال هذا الصغير طويلاً في بلادنا بل لم يلبث ان سار الى جبهة فلسطين حيث كان قد اشتد القتال بين الجيشين البريطاني الفرنسي العربي والالماني العثماني ، ولم يذكر أنه تدخّل في شأن من شؤون حكام سورية ولبنان او انزل اذيةً باي مخلوق .

وفاة محمد رشاد

وفي ٤ من شهر تموز سنة ١٩١٨ مات السلطان محمد رشاد الخامس بتأثير الداء السكري وخلفه في اليوم التالي اخوه وحيد الدين ودعي باسم محمد السادس وهو السلطان الدستوري الثاني .

وفي التاريخ نفسه عين اسماعيل حقي بك والياً لبيروت ، واذ كان البطريرك الماروني يعرف الكثير عن اعماله الطيبة رفع برقية الى الصدارة العظمى يلتمس فيها ابقاءه مع ولايته على بيروت وكيلاً لمتصرفية لبنان فأجيب الى طلبه الى ان رأت الدولة تعيين من يخلفه .

مُمتاز بك

٢٥ آب — ٣٠ ايلول ١٩١٨

وكان هذا الخلف ممتاز بك . عيّن في ٢٥ آب . ولم يمكث في ادارة الحكومة اللبنانية الا خمسةً وثلاثين يوماً رأى في آخرها الجيش التركي ينسحب هارباً من البلاد ، ممزّق الشمل ، فبادر الى حمل ما خفّ وغلا من امتعته ، ونزل الى حيث صندوق المتصرفية ، وطلب من المستأمن عليه حليم بك ان يعطيه كل ما فيه من نقود ، وقد بلغت قيمتها خمسين الف ليرة ورقية ، فانتزعها . واذ طاب منه حليم بك وصلاً بها ، شهر عليه مسدسه. ووضعها في حقيبته. ومضى الى زحلة يرافقه ياوره سعيد بك حماده .

ولجأ في زحلة الى منزل خليل بك مسلّم . فرحّب به وحماه من اي اعتداء، ثم اشار الى نجليه بنقله على مركبتهما الخاصة الى محطة ريّاق حيث انضمّ الى فلول الجيش التركي الهارب مذعوراً من غير ما نظام .

وعلى الرغم مما اوقعه الترك من مظالم في لبنان، فقد عاملهم اللبنانيون ابان تلك المحنة بما فطروا عليه من مروءة وتسامح ومكارم اخلاق، وتركوهم ينسحبون اذلاء يتملكهم الرعب . وكل ما فعله بعضهم تجريدهم من اسلحتهم وغنم ما تركوه من امتعة وعتاد استعاضوا بها عن بعض ما أفقدتهم اياه تلك الايام السود . لا ارانا الله لها مثيلاً .

وبهذا يختتم كتابي « عهد المتصرفين في لبنان » الذي ارجو ان اكون قد اسديتُ به خدمةً متواضعة لهذا الوطن المفدّى ، وقد جعلت منه مثلاً يحتذى في تخصيص كل عهد من عهودنا التاريخية بكتاب على حدة من نوعه يمكّن القائم به من الاستزادة في التعمق والتبسّط في توضيح غوامضه وكشف مخبآته ، سائلاً المطالع الكريم غضّ الطرف عما قد يجد فيه من تقصير او يعثر عليه من اخطاء ، فالعصمة لله وحده ، ورحم الله من قال :

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها ؟ كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه !

مصادر الكتاب ومراجعه

تاريخ سورية ، الجامع المفصل ، سفر الاخبار في سفر الاحبار ، للمطران يوسف الدبس
لبنان للجنة من الادباء ، على عهد اسماعيل حقي بك
تنوير الاذهان في تاريخ لبنان ، ودليل لبنان ، لابراهيم الاسود
تاريخ لبنان العام للدكتور يوسف مزهر
في سبيل لبنان ليوسف السودا
بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ليوسف الحكيم
دواني القطوف لعيسى اسكندر المعلوف
لبنان في التاريخ للدكتور فيليب حتي
دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني
مخطوطة الياس طنوس الحويك عن لبنان في عهده المتصرفي
ديوان شبلي الملاط
تاريخ بشعلي وصليما ، ولبنان ويوسف بك كرم ، للخوري اسطفان البشعلاني
المحررات السياسية للاخوين فيليب وفريد الخازن
مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري
كوثر النفوس للملحم ابراهيم البستاني
مذكرات هند لنعوم لبكي
كنوز لبنان المرصودة لشاهين الخازن
الشيخ بشاره الخوري الفقيه ، ومختصر تاريخ لبنان لطلبة المدارس ، للمؤلف
وقائع الحرب الكونية للطف الله نصر البكاسيني
العناية الصمدانية في ترجمة الحويك للخوري ابراهيم حرفوش
لبنان لمحات في تاريخه وآثاره للخوراسقف يوسف داغر
قلائد المرجان في تاريخ شمالي لبنان لبطرس بشاره كرم
تاريخ لبنان الموجز لفؤاد البستاني واسد رستم
تاريخ لبنان المطول لادمون بليبل
مجلات : المشرق ، الحارس ، اوراق لبنانية ، الورود ، المنارة ، المسرة
مجموعات جرائد : البشير ، الجوائب ، حديقة الاخبار ، الجنة ، ثمرات الفنون ، لسان الحال ، ترجمان حقيقة ، النصير .

الفهرس الأول

الأشخاص والأسر والطوائف والشعوب

الفهرس الثاني

الأماكن والمحالّ والبلدان

ت

ج

ح

خ

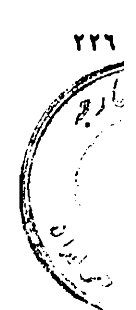
د

الفهرس الثالث

المؤسّسات والمُنشآت والمصطلحات

الفهرس الرابع

الكتب والصحف والمنشورات



فهرس الكتاب

تمّ طبع هذا الكتاب على مطابع المطبعة
الكاثوليكية في بيروت (لبنان) لعشرٍ
خلون من شهر تشرين الاول من السنة
السابعة والستين بعـــد التسعمائة والالف

PUBLICATIONS DE L'UNIVERSITÉ LIBANAISE

SECTION DES ÉTUDES HISTORIQUES

XIV

ÉPOQUE DES MUTAṢARRIF AU LIBAN

1861-1918

PAR

LAHAD KHATER



BEYROUTH

1967